البشير بن سلامة

عادل

رواية





نشر وتوزيع مؤسسات ع. الكريم بن عبد الله

عيسى يوسف الناعوري

عادل

للكـــاتـب أيـضـــا :

- اللّغة العربية ومشاكل الكتابة ــ الدار التونسية للنشر ــ 1971-1985.
- الشخصيّة التونسيــة ــ مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ــ 1974.
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي، 1977.
- قضـايـا ــ الدار العربية للكتاب ــ 1977-1985.
- لوحــات قصصيــة ــ الدار العربية للكتاب ــ 1984.
- نظرية التطعيــم الايقــاعي ــ الدار التونسية للنشر ــ 1985.
- عائشـــة (رواية) الطبع على حساب المؤلف، 3 طبعات، 1982-1983-1986.
- تاريخ إفريقيـا الشماليـة، ترجمة عن شارل أنـدري جوليـان بمعيـة الأستـاذ محمـــد مزالي (عدّة طبعـات).
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، ترجمة بمعية الأستاذ محمد مزالي.
- في رحـــاب الفكر والأدب ــ الهيئة المصرية للكتاب ــ 1986.
- خير الدّين، ترجمة عن كريكن ــ دار سحنــون ــ 1988.
- نحو هوية بشرية ملائمة للواقع، ترجمة عن المنصف القيطوني ــ دار الاداب ــ 1990.
- سليمـــان القـانونــي، ترجمـة عن كلو ــ دار الجيل ــ 1991.
- في رحـــاب الثقـافـة ــ تحـت الطّبـع.
- اللـهـــو الصّفــر ــ مخطـــوط.
- ليلة الفلــق، ترجمـة عن فتحــي بن سلامـة ــ مخطــوط.

حسن يوسف المرتني

البشير بن سلامة

عادل

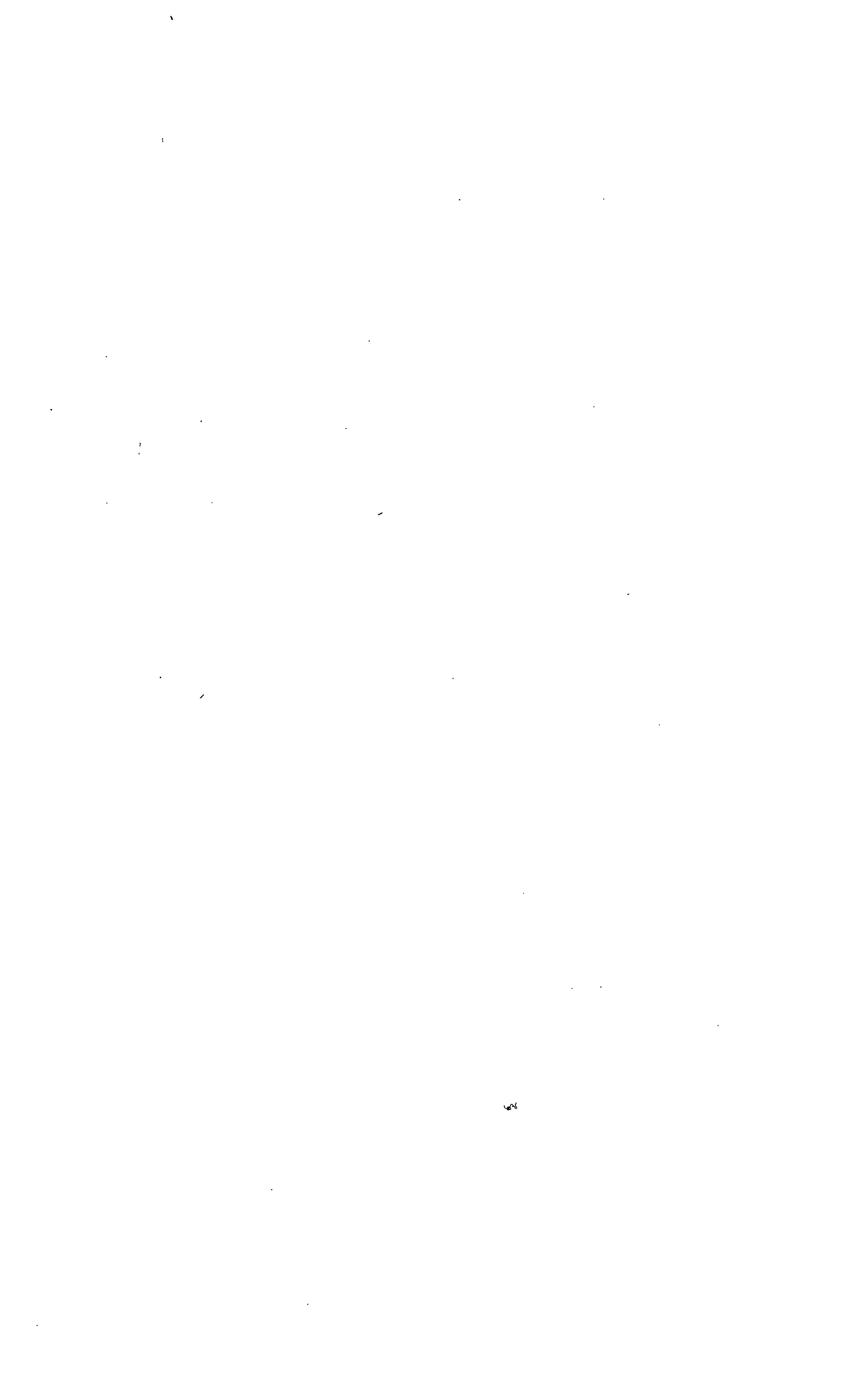
رواية

نشر وتوزيع مؤسسات ع. الكريم بن عبد الله

رسم الغلاف للفنان زبير التركي

إلى روح والدي

هذا هو الرّكن الثّاني من رباعيّة « العابرون » . وهو كالأوّل في رواية « عائشة » أشخاصه ، ووقائعه من حبك الخيال . وكلّ شبه بأشخاص واقعيين ــ إلاّ من ذكروا بأسمائهم قصدا ــ إنّما هو محض صدفة . طالما أنّ النّفس البشريّة في تعدّدها ، وتنوّعها معدن فرد ، وطينة واحدة .



حسني يوسف الكويتي

بَاب
سَيّارة الكولونيل

عمر الشّيخ « علي » طويلا وناهز التسعين . وهو رغم قامته القصيرة حافظ على هيبته وأبقى على هيئة الضابط التي توحي دائما بالحزم ، والقوّة ، سواء في قسمات الوجه أو الهندام أو المشية . لم يغيّر في وجهه إلّا حجم الشّوارب وطولها وصورتها . فبعد أن كانت في عنفوان شبابه ، مذبّبة الأطراف ، كثّة الشّعر ، صقيلة ، لمّاعة ، دعاها تقدّم الزّمن ، وروح التطوّر إلى الإنكسار قليلا ، في أوّل الأمر ، ثم التّخفيف من غلوائها بالتّشذيب والتّحفيف إلى أن صارت مجرّد أرضية باهتة غلبها الشّيب وأرهقها حدّ الموسى من جرّاء رقصاته اليوميّة المرتعشة .

كان يعتقد أنّ الوجه هو باب النّفس الذي ينمّ عمّا بالدّاخل ، من جمال أو قبح ، خير أو شرّ ، حقّ أو باطل ، قوّة أو ضعف ، شباب أو شيخوخة . ولهذا حرص على أن يبقى وجهه صقيلا يكاد يكون خاليا من التجاعيد . تعلوه جبهة ، وضّاءة ، عريضة بها شبه غرّة ، بين الحاجبين تميل إلى الحمرة ، وكأنّها سمة اختصت بها شجرته . وتعمره عينان ، واسعتان ، فيها بقيّة لمعان ، يشتدّ ويضعف على حسب المزاج والصحّة . وفي الأسفل ذقن بارز ، قويّ ولكنه مرتخ شيئا ما من جرّاء فعل الزمن وتقادم الأسنان . أما الفم ـــ وهو عنده كما لا يزال يردّد، نافذة النفس ـــ فقد حافظ على رقّة في الشّفتين لم تعمل فيهما الأيّام بل زادهما منطقه حلاوة ، وأضفت عليهما نبراته وتساوق الألفاظ نغمة، محبّبة عند السامع .

كان أولاده وأحفاده يلتفّون حوله ليحدّثهم عن هذا القرن المشحون بالأحداث وهو الذي ولد معه وعرف فيه العثرات المطوّحة به إلى أهوال، وتبدّل أحوال ، لم ينفك يذكرها في نفس ملحميّ ، شجيّ . كما تعوّد منه الثّغرات التي لم يقدر على ملئها، غفلة، وسوء تقدير ، إلّا بعد لأيٍ وفوات أوان .

ولكنّه رغم هيبته ، ووقاره لم يسلم من حدّة ملاطفة أحفاده له ، ومداعبتهم ، خاصة عندما لا يستنكف من ذكر المواقف الـحرجة ، والمخزية ، واللاّأخلاقية ؛ فيقول له عبد اللطيف أحد أحفاده :(وكان جدّه يستلطفه ، ويقبل مداعباته ، وحتى مشاكساته ويغفر له مقاطعته لكلامه عندما يكون مسترسلا في سرد ما شاهده في حياته ، مثله كمثل الجواد المندفع في سباق ، لا يوقفه شيء إلاّ نهاية الجولة) :

ــ إن نافذة نفسك في بابها ! فهل سمعتم بنافذة في باب ؟

ــ لا هي كوّة في رِتَاج ، هي قَمْرِيَّةٌ في الباب الكبير . ثم ألا تعرف أنّ الأبواب في حياة الإنسان ، هي كلّ شيء ، في الدّنيا والآخرة ؛ فِللسّماء أبوابها ، وللجنّة أبوابها ، ولكلّ شيء أبواب : للحكمة، وللخير، وللدعاء ، والرحمة ، وكذلك للشرّ ، ولليل ولجهنّم . نعم للجحيم أبواب . وإذا فتحت أبواب جحيم النّفس فهي الطامّة الكبرى والمأساة التي لا تطاق .

وابتسم عبد اللطيف ابتسامة ، فيها طلاقة ، ولكنّها تخفي شيئا من المكر لأنه يعرف أن جدّه أكبر مُسَجّلَة عرفها في حياته . لقد خزن في دماغه أشرطة مرتّبة على حسب مفاتيح ابتدعها لنفسه ، وهي تقوم بدور عنصر الملامسة في المادّة الكيمياويّة . فمجرّد كلمة تكون انطلاقا لسرد حادثة بأكملها . وعند ذلك فلا توقّف ولا تردّد ، بل هي الإعادة الحرفية ، لتلك الحادثة للمرّة الألف ، بنفس اللّهجة ، والنبرات ، والوقفات ، وايقاعات الاسترسال ؛ حتى أن عبد اللطيف كان يقول : إن جدّي قد اخترع المسجّلة قبل أوانها ، يوم أن تداعت حافظته ، وتوقّدت ذاكرته ، فنسجت لنفسها الواقع الذي تحكيه . لذلك أصبحت أخطر من الخيال ، وأوقع أثرا في النّفوس ويضيف : وما حيلة جدّي وقد ضيّق المشيب عليه فسحة إرضاء رغباته ولم تبق له إلاّ الذّاكرة، بابا فريدا من أبواب إرضاء الرّغبة .

كلّ هذا لا بدّ أن يكون قد جال في خاطر عبد اللطيف في لمحة بصر . فلم يتوان ليقول لجدّه :

ــ أليست هذه الأبواب تذكّر بقصة « عادل » صديقك الّذي كان له شأن مع الطّاهر والد عائشة .

ولم ينتظر « الشيخ علي » صدور طلبات الإلحاح من الحاضرين الذين لم يعرفوا القصّة . بل تنحنح ، ولملم برنسه ، وسوّى هيئته ، وانبرى يحكي أطوار حياة « عادل » كما رتّبها هو غير عابئ بالإسترسال الزّمني ولا بالإستطرادات التي يعمد إليها عندما يكون هو طرفا في الحادثة ، قال :

ــ 2 ــ

عندما أذكر يوم السبت 9 أفريل 1938 يغمرني الأسى والألم ، لِما شاهدته بعينيّ من تقتيل وتعذيب للوطنيين في شوارع تونس . وكنت آنذاك ضابطا في عسكر الباي أعمل بوزارة الحرب ، وهي الإدارة التي كان يحكمها ضابط فرنسيّ والكائنة أمام مقهى الباشا بشارع باب بنات . وفي ذلك اليوم مُنع جند الباي من الخروج إلى الشارع . ولكنّنا تابعنا من وراء الأبواب الحديديّة للإدارة ، تحركات الشرطة والجندرمة والجيش الفرنسي ، لمطاردة المتظاهرين الذين واجهوا القوّة الغاشمة بدون سلاح ، يحدوهم الإيمان بقضيّة تونس ، والعزم على مقاومة الاستعمار .

وحوالْي الساعة الرابعة والنصف تكرّر الشّغب ، ولمحتُ فلول مظاهرة كان الوطنيّون يصرخون ضمنها بعبارات مندّدة بالاستعمار . وكان هذا الوقت هو الذي يخرج فيه تلامذة فرع المعهد الصادقي الإبتدائي من الفصل . فخشيت على ابني التلميذ في السّنة الأولى من الضّرر ، وطلبت من رئيس الإدارة أن يسمح لي بالتوجّه إلى المدرسة

لاصطحاب ابني فنبّهني إلى أنه من المتعذّر تخطّي حواجز الأمن في اتّجاه القصبة . فأصررت فأذن لي . ولمّا وصلت إلى قصر العدالة الآن ، وجدت الشرطة والجيش الفرنسي ، والجندرمة ، مدجّجين بالسلاح ، فمنعوني من مواصلة طريقي رغم بدلتي العسكريّة . فأنا ، بالنسبة إليهم، أجنبي لأنّني لابس لباس عسكر الباي . فرجعت وأنا متأثّر شديد التأثّر ممّا رأيت . وكان رئيس الإدارة وراء الباب الحديدي هو وثلّة من الفرنسيين العاملين هناك يرقبون عن بعد ما يجري في الشارع . فاقترح عليّ أن أمرّ من نهج الباشا ونهج دار الجلد وأن أبلّغ حامية دار الباي، وهي مكوّنة من عسكر الباي ، الإذن بغلق باب الوزارة الكبرى . وهذه مهمّة من المهمّات العظمى التي قَنعَ بها الباي هو وجنده .

وكم حزّ في نفسي ، وأنا من الطبْجِيَّة ، المتمرّس على القذف المدفعي ، أن أبقى هكذا أعزل من السلاح ليس لي حَوْلٌ ولا طَوْلٌ أنظر إلى أبناء جلدتي يأكلهم الرّصاص ، وتجري دماؤهم على الطريق ولا من يردّ الفعل ، وليس في إمكاني التّخفيف ممّا حلّ بهم والدفاع عنهم. وفهمت آنذاك أنّني أنتمي إلى عسكر الخزي وأصررتها في نفسي وحلفت أن أثأر لأبناء جلدتي ، طال الزّمان أو قصر .

دلفت إلى المدرج المقابل لوزارة الحرب المفضي إلى نهج «قَرْمَطُّو» وَعُجْتُ إلى نهج القَلَش ، ومنه إلى نهج الباشا ، وهناك روّعني ما رأيت إذ لمحت عددا كبيرا من طلبة الزّيتونة والصادقيّة مجاريح يسرعون الخطى إلى الدّور ، والدماء تقطر منهم ، وتبيّنت جمعا آخر من النّاس يحملون على ظهورهم المجاريح أو الأموات . وأهل الحيّ في هلع شديد ، يحكمون غلق أبواب دورهم بعد إيواء فلول المظاهرة . حتّى شارفت القصبة ، وهناك سمعت صرخة ضابط شرطة تدوّي بالفرنسيّة أن قِفْ فتراجعت إلى الوراء ، وظننت أنّني المعنيّ والتفتّ وإذا بي ألمح

في ركن من آخر نهج دار الجلد ، على خطوات من ساحة القصبة ، « عادل » يلصق ظهره بالجدار ، وبين قدميه طربوشه يتدحرج ، وبيده « بَاكِيتَتُهُ » المجلّبة بالفضّة ، وهو يشير بها إلى ضابط البوليس متوعّدا. ولم يَعرف عادل أن الضابط كان متهيّئا لإطلاق الرّصاص عليه ، لولا أنّني صرخت صرخة عظيمة قائلا بالفرنسية :

ــ إنّه ابن الفَرِيك مصطفى .

ولمّا تبيّن أنّني ضابط أمسك عن إطلاق الرّصاص وقال متعجّبا من تدخّلي :

ــ وما شأنك ، فلقد رأيته يجري مع فلول المظاهرة ، وبالأمس شاهدته في الصفوف الأولى من المظاهرة التي مرّت أمام « باب البحر ».

ــ إنّه مجرّد وهمٍ .

وظهر لي أن ضابط البوليس تراجع فيما كان أزمع عليه ، ولكنّه من فرط الغل ضرب برجله طربوش عادل ، كأنّه كرة ، ومضى لسبيله .

فأخذت الطّربوش ومسحته بكمّ « المَاطَلُوطَة » وتقدمت من عادل، فوجدته يكاد يموت من الخوف . فهدّأت من روعه ، وحاولت السير معه خطوات نحو القصبة فلم نقدر على تخطّي صفوف الجندرمة والجيش والبوليس. فرجعنا أدراجنا وقلت له :

ــ ولماذا خرجت في هذا اليوم ؟

فأجاب :

ــ كنت بمنزل خالي بنهج المَقْطع ، ومع الساعة الرابعة خرجت لاتّجه نحو الصادقيّة وآخذ معي ابن خالي المنجي. والغريب في الأمر أنّه أمكن لي أن أخرج من صَابَاط الظّلام وأصعد الدّرج وأقطع بسرعة

قارعة طريق شارع باب بنات من طوار إلى آخر لألج نهج شرلكان. ولكنّ المعارك كانت هناك حاميّة فتراجعت إلى الوراء ولم أدْرِ، وأنا مضطرب البال ، كيف أخطأت الطريق حتّى وصلت هائما على وجهي إلى هذا المكان . فلمحني هذا الإبليس الذي أطلق الرّصاص على رجل في مدخل « الدَّبْدَابَة » ولم أعرف كيف تجرّأت عليه ، وصحت به أن كفّ وتوعّدته بِبَاكِيتَتِي، فطاردني من هناك إلى هذا المكان ولولا ألطاف الله وحضورك لفعل بي ما فعل بالآخرين .

ومشينا صامتين مندهشين من الجوّ المخيّم على هذه الأنهج وكأنّ المدينة قد خلت من أهلها اللّهم إلاّ ممن كان يسرع الخطى لائذا بالفرار أو محمَّلا بجريح أو ميّت . ولم نلبث أن صعدنا الدّرج المفضي إلى شارع باب بنات وجرينا إلى مدخل وزارة الحرب ففتح لنا الباب الحديديّ ووجدنا « الكولونيل » رئيس الإدارة ، وبجانبه « قُبْطَان » من الجيش الفرنسي ، وهما يرقبان ما يجري في شارع « باب بنات » فقدّمت « عادل » إلى « الكولونيل » وقصصت عليه بسرعة ما حدث، فهوّن عليه الأمر . ولكنّنا شاهدنا في ذلك الوقت وطنيّا يصيح في الشارع :

ــ يَحْيَا بُورْقِيبة ، تسقط فرنسا .

فما كان من القُبْطان إلاّ أن اِجْتذب مسدّسه وصوّبه من بعيد نحو الوطنيّ ، ولكنّه لم يفطن إلاّ ويد تمسكه وتهزّه هزّا ، فالتفت فوجد « عادل » حانقا يقول :

ــ ما دخلك أنت . ألا يكفي ما سقط من الأنفس اليوم .

وإذا بالكولونيل يتدارك الأمر ويقول :

ــ نعم هذا ليس شأنك . هيّا ادخلوا مكاتبكم .

وعندها سمعنا طلقة صادرة عن بندقيّة ، ورأينا ذلك الوطنيّ الشّجاع يسقط أمام « قهوة الباشا » ، نزلت دمعة من عيني وجذبت « عادل » من يده ودخلنا مكتبي وأجهشت بالبكاء حسرة على هذه الأنفس الشّهْمَةِ التي ذهبت ضحية الواجب ، ولم تجد من يأخذ بثأرها ، وحيرة أيضا على ابني الّذي لا أعرف مصيره .

وتعجّبت من عادل كيف أنّه لم ينبس ببنت شفة مدّة طويلة ثمّ تنهّد وقال :

ــ أتعلم ، يا عليّ ، أنّني عرفت في هذا اليوم ، أنّني ضللت طريقي وأنّ حياتي ــ وأنا قد شارفت الأربعين ــ كانت ضياعا في ضياع . كانت التردّد ، والتمتمة ، والتعثّر ، والغفلة ، أنا سليل الأبطال الذين دَوَّخُوا شَارْلُكَانْ ، وأزاحوه من هذه البلاد ، ورووْا هذه التّربة بدماء جنده . هناك في هذا النّهج الذي سمّاه سدنة الاستعمار نهج شارلكان، ذاق هذا الامبراطور الأمرّين ، واقتيد ضبّاطه وجنده للأسر ، ومات منهم الآلاف ثمّ ها نحن الأحفاد نشهد صاغرين ــ بعد أربعة قرون ــ ما يفعله فينا بنو جنسهم وأنصار دينهم بل أكثر من هذا نقضي جلّ عمرنا في التيه والضّلال وإشفاء الرّغبة ومطاردة اللذّة . يا لعارنا .

وفي ذلك الوقت دخل شَاوُش الكولونيل مكتبي وقال بعد تحيّة قويّة :

ــ سيّدي « الأَجُودَانْ » يقول لك الكولونيل الآن (وكانت الساعة السادسة) انتهي كلّ شيء ويمكن لك أن تخرج للإتيان بابنك .

وطلبت من عادل أن ينتظرني بمكتبي وخرجت لا ألوي على شيء .

ــ 3 ــ

كنت أمشي بخطى سريعة ، وكانت على طول الطريق كوكبات من البوليس ، أو الجندرمة ، أو الجيش ، ترابط أمام المباني الحكوميّة ،

أو في وسط الطّريق ، ولم ألبث أن وصلت إلى نهج شارلكان متخطّيا زاوية « سِيدِي غريب » الصّغيرة ، وصعدت الطّريق المؤدّية إلى الصادقية، وفوجئت بكثرة الدّماء التي كانت تلطّخ الأرض . ورغم صعوبة الصّعود إلى المكان الواقع فوق هضبة فإنني سرعان ما وجدت نفسي أمام المدرسة، فانتشلت ابني من يد المعلّم وسألت عن ابن خال عادل فعلمت أنّ معلّمه تولّى أمر إرجاعه إلى منزله . ورجعت من الطّريق نفسه ، وكان ابني الصّغير الذي لم يتجاوز سنّه السّبع سنوات يسألني عمّا حدث في هذا اليوم ، ولماذا تأخّرت عن المجيء إليه ؟ وما هذا الأحمر الذي يغطّي الطريق ؟ هل هو دم ؟ أم ماذا ؟

ولاحظت على ابني علامات الارتباك والهلع ، خاصّة عندما مرّ أمام القوّة العامّة المدجّجة بالسّلاح ورأى عسكر « الزُّوافْ » وآليات لم يشاهدها من قبل . فكنت أطمئنه ، ولكنّني لم أتمالك عن أن أقول له : إنّ فرنسا هِيْ التي تقتل التّونسيّين لأنّهم لا يرضون بحكمها ولأنّها سجنت الزّعيم الكبير عَلِي الْبَلَهْوَان .

ولمّا رجعت إلى مكتبي ، وجدت عادل ساهما ، فأعلمته أنّ ابن خاله قد وصل المنزل ، فلم يقل ولو كلمة واحدة ، واتّجه نحو ابني يسأله بلطف عمّا فعل في ذلك اليوم وما الذي كان يتردّد من كلام طول الوقت .

وخرجت لأستأذن الكولونيل في الخروج ولكنّه أعلمني أنّ الطّرقات كلّها مقطوعة ، وأنّه لا سبيل إلى الذّهاب إلى باردو وقال لي متسائلا :

ـــ يظهر أن عادل ابن الْفَرِيك مصطفى يكره فرنسا . أظنّ أنّه كان ضمن المظاهرة في هذه العشيّة . كلّ المظاهر تدلّ على أنّه من المناوئين لنظام الحماية ، المؤيّدين لهذه الشّرذمة من المشاغبين .

قلت ضاحكا ومقدّرا في نفسي جسامة مثل هذا الكلام ، وهي تهمة تؤدّي بصاحبها إلى السّجن عندهم :

ــ عادل ذاك اللاّهي ، المحبّ للحياة الرَّخِيَّةِ من المناوئين ! أبدا! إنّما يتغلّب عليه طبعه الحادّ عندما يكون غاضبا . أنت تعرف أنّه من سلالة الأتراك ، والقولة الفرنسيّة تقول : قَوِيٌّ مِثل تُرْكِي ، والأمر من مأتاه لا يستغرب .

لم يعلّق الكولونيل على كلامي بل ضغط بإصبعه على الجرس ضغطة فيها شعور الاستعلاء بالنّفوذ ، فدخل الشّاوش دخول المستنفَر ، فأذنه أن يأمر السّائق باصطحابي أنا ، وابني ، وعادل إلى باردو . فحيّيته ، وشكرته ، واتّجهت نحو مكتبي ، وأنا أفكّر فيما سيحلّ بعادل من نقمة، لأنّني أعرف أنّ الكولونيل لا يلقي الكلام على عَوَاهِنِه ، وأنّه لا بدّ أن يكون قد عزم على إجراء بحث في خصوص عادل .

وقفنا أمام الوزارة نترقّب مجيء السيّارة . وكان الصّمت مخيّما على الشّارع إلاّ من وقع أقدام الحرس، أو مرور سيّارة من سيّارات الجيش ، أو البوليس أو الجندرمة . ولم تظهر من الشّمس إلاّ بقايا أشعّة باهتة ألبست الأشجار مسحة من الأسى والحزن ، وأضفت على واجهات المنازل المقابلة لونا رماديّا ، مكفهّرا ، وبدا مقهى الباشا الذي كان يعجّ بالجالسين من لاعبي الشّطرنج ، والنّرْدِ ، والمدمنين على النّارجيلة والتَّكْرُورِي ــ جامدا ، ميّتا ، رغم الألوان الزّاهية التي زخرفت جَلِيزَ جدرانه .

ونظرت إلى عادل فرأيته يحرّك « بَاكِيَتَتَهُ » في عصبيّة شديدة ، وإذا به يتّجه إليّ قائلا :

ــ ولماذا تريد منّي أن أركب سيّارة الكولونيل في يوم مثل هذا .

ـــ لا بدّ من أنْ تبيت بمنزلك بباردو . العائلة كلّها ستبقى في حيرة لو بقيت في العاصمة . وليس هناك من طريقة أخرى غير هذه . ثمّ إنّه ليس في الإمكان رفض عرض الكولونيل وإلّا حلّ بنا مكروه .

ـــ ليكن ما يكون . فأنا أهيم بين عالمين أحدهما ميّت ، والآخر ليس في استطاعته أن يولدَ. فمكاني لا مكان ، وزماني لا زمان . يا علي ، أنا أخطأت الباب الذي كان عليّ ولوجه ، لو ساعدني الحظّ. إنّني لم أجده وأعياني البحث عنه ، واكتفيت بِالْمَهْيَعِ الرّحب الذي يكثر فيه الصّخب واللّغو ، ويقود إلى الباب الواسع الذي يدخله من هبّ ودبّ .

وفي ذلك الوقت وقفت السيّارة أمام المدرج ، فنزل منه عادل درجة درجة ، ووقْع الْبَاكِيتَة ينغّم خطواته ، واتّجه نحو باب السيّارة الخلفيّ، نحو الباب الأيمن وانتظر لحظة ، ثمّ عالجه ، فوجده مقفلا ، والسّائق يشير إليه بإلحاح ليصعد من الباب الأيسر . ثمّ نزل من المقود وفتح هذا الباب . فاستشاط عادل غضبا وصاح :

ـــ الرُّومِي خَيْرٌ مِنِّي ... أصبحتم لا تعترفون إلّا بهم أسيادا ... اِفتح الباب ... يَا ...

وفي ذلك الوقت التحقت بالسيّارة ، وحاولت حلّ المشكل . ولكن عادل أصرّ على أن يركب يمين السيّارة كالكولونيل . ففتح السّائق الباب الأيمن مكرها ، فركب عادل ، وجلست حذوه وفي حضني ولدي . وتحرّكت السيّارة نحو باب سُوَيْقة .

كان شارع باب بنات خاليا من المارّة إلّا من القوّة العامة ، وآثار الاصطدام واضحة : فهذه عِصيّ ملقاة هنا وهناك ، وهذه عربات يدويّة صغيرة ، مهشّمة ، وتلك سيّارة مقلوبة ، وأحذية « وبَلاَغِي » منتشرة

على الرصيف في وسط الطريق . ولمّا وصلنا إلى بطحاء باب سويقة فهمنا أنّ المعارك كانت حامية . إذ شاهدنا عددا من عربات « التّرام » قد تهشّم بلّورها وأزيلت عن سكتها ، وتلطّخ بعضها بالدّماء ، وأغلقت المقاهي وأمامها الكراسيّ والمناضد مهشّمة ، مكدّسة ، بعد أن جمعت لتمكين آليّات الجيش والجندرمة من التحرك . ووقفت السيّارة أمام مشهد مضحك مُبْكٍ : شرطيان يجرّان إلى حافّة الطريق حصانا من ذيله، وبطنه يفغر دما .

هذه بطحاء باب سويقة التي كانت تعجّ بالمارّة ، وتصطفّ على جانب منها « البَرَاوُط » بالبقول والثّمار ، والفواكه المجلوبة من أقاصي الدّنيا ، وتعلو فيها الأصوات متغنّية بالبضاعة ، أو متخاصمة لجوجة ، ويشتدّ صخب عربات « التّرام » و« الْكَرَارِط » و« الْكَرَارِس » والسيارات، أصبحت خالية إلاّ من آليّات البوليس ، والجندرمة ، والجيش الفرنسي . ورغم أنّ السيّارة رسميّة ، فقد اضطرّ السّائق إلى الرجوع من حيث أتى ، حتّى وصل إلى « بَاب الْعُلُوج » ومن هناك يمّم شطر « المَلاَّسِين » لأنّ طريق « التُّرْبْخَانَة » و« باب سَعْدُون » كان مسدودا .

ت عادل وقد هدأ شيئا ما، ثمّ نظر من بلّور النّافذة وقال :

ــ أرأيت هذا الشفق ، هذه البقيّة من ضوء الشمس ، هذه الحمرة ن تلبث أن يغلبها الغسق . هي خليط من النهار والليل ، من النّور والظلام ، من الظاهر والباطن ، من الكشف والسّتر ، هي الحدّ الفاصل بين عالمين ، ينتسبان إلى عالم واحد : هذا يحتضر ، وذاك يفيق إلى الحياة ، والغريب ونحن في الغروب حيث الفقر والعدم أنّ ما احتضر الآن كان قد أفاق بعد ساعات وما استيقظ اللّحظة يتهافت بعد ذلك. أنا واقف في هذا الحدّ الفاصل . فهل هو مكان يمكن لأيّ مخلوق أن يكون عمله فيه مثمرا ؟

وفهمت أن عادل لا يمكن أن يُترك وحده في هذه الليلة. فقلت :

ــ أتعرف . الأحسن أن تنزل عندي اللّيلة . واتّجهت نحو السائق وقلت له :

ــ بعد وصولنا مرّ بقصر الفريك وأشعره أنّ سي عادل مقيم ببيتي في هذه اللّيلة . أسمعت .

قال السائق : نعم مُونْ أَجُودَانْ .

ولم يُحِرْ عادل جوابا . وأخذ ينكت قاعدة السيارة بِالْبَاكِيتَة ، موقّعا عليها وكأنّه يلملم أفكاره ، ويريد أن يقول شيئا ، ولكنّه خرج بالصّمت عن لا ونعم .

وبعد دقائق وصلت السيارة إلى المنزل وفتح الباب بسرعة لأنّ كلّ من في البيت كان في انتظارنا . وانتظر عادل في البهو حتّى ترك لزوجتي المهلة لتستقبلني أنا وابني ولتفتح « بَيْتَ القَعَاد » كالعادة ، وتختفي وراء أستار البيت وهذه عاداتنا في ذلك الوقت . وعندها أفسحت المجال لعادل فدخل واكتفت زوجتي بأن سلّمت عليه من وراء السّتر وغابت لإعداد العشاء .

ــ 4 ــ

كانت الغرفة بسيطة الأثاث على النّمط القروي القديم . ليس بها لا كراسي ، ولا مقاعد ولا « أبْنَاك » . هكذا يحبّها علي . وترك للضّيوف الغرفة الملاصقة ، وهي في أغلب الأحيان مغلقة إلاّ في الأعياد والمناسبات . أمّا هذه الغرفة التي يختار « عادل » أن يجلس فيها ، مثل صديقه علي فقد فرشت أرضيّتها بالبُسُط التي نضّدت فوقها الوسائد

والمساند ، وطرحت هنا وهناك المَنَابِذُ . وفي الوسط امتدّت زربية قيروانيّة بألوانها الزّاهيّة . ودارت على الجدران المغطّاة بالجليز الأندلسي سجّادات رقيقة النّسج تحمي ظهر الجالسين من الالتصاق مباشرة بالجدار . وعلى الزربية سفرة مستطيلة الشكل ، ملوّنة تلوينا بديعا ، ومزخرفة برسوم مَن الأزهار والأوراق . وعلى الجدران علّقت لوحات فيها تصاوير دهنت على البلّور فيها مشاهد من قصّة رأس الغول وسيف بن ذي يزن. وقبالة الدّاخل مدفأة قديمة تغيّر استعمالها ، وأصبحت بعد تغطيتها بالقماش المزخرف ، تحمل في وسطها شمعدانا به اربع شمعات. وعلى الجانب الأيمن والأيسر مصباحان من البترول . ويظهر أنّ هذه كلّها تمّ إشعالها عند وصول عادل لأن مصباحا ثالثا معلّقا في ركن من أركان الغرفة ، كان يحاول جاهدا أن يماثل بضوئه الباهت الأضواء الأخرى . وفوق المدفأة علّقت صورة زيتيّة لربّ البيت في زيّ المراسم متمنطقا سيفا يلمع مثلما تلمع « الخَبْشَة » في « الشّاشيّة » والأزرار التي تحلّي « المَاطَلُوطَة » والكتفيّتان التي تتدلّى خيوطها الصفراء كأنّهما مشطان ذهبيّان عظيمان . وكذلك الأنجم المميّزة لرتبته في الجيش المحيطة برقبته في أعلى السّترة فهي أيضا لها بريق حرصت زوجته على صقلها . وكأنّ الرسّام فطن إلى كلّ هذه الرّغبات فأبرزها بعناية فائقة ، وركّز ريشته على أن تظهر الشّوارب المذبّبة ، فيها فحولة تضفي على هيئة الضابط مسحة حربيّة .

وبقي عادل صامتا بعد أن نزع حذاءه ، ووضع على المدفأة «شَاشِيَّتَهُ» وأسند البَاكِيتَة إلى حافتها ، وتربّع على البساط . ولم يمض وقت طويل حتى دخلت والدتي العجوز وصفّت على السّفرة ما أعدّته زوجتي . وأكلنا صامتين بدون شهية وبسرعة كأن لم يكن ذلك إلّا مجرّد سخرة أو طقس من الطّقوس . ثمّ قال لي عادل :

ـــ هذا يوم فاصل في حياة هذا الشّعب . انتهى فيه الزّيف وتعرّت كلّ المذابح . وعرفت أنّ حياتي كانت كلّها باطلة .

وكنت فهمت أنّه يتوجّس خيفة من الكولونيل فقلت له :

ـــ غدا سأعالج الموضوع مع الكولونيل فأجابني محتدّا :

ـــ أتظنّ أنّني أخاف من هؤلاء ، وأخاف من السّجن أو الموت . أنا أقول لك أنّ هذا اليوم يوم فاصل في حياة التونسيين وأنت تحدّثني عن الكولونيل . أنا لو عرفت أنّنا سنصل إلى هذا اليوم الذي نذبح فيه على قارعة الطريق ، ولا من مدافع ، ولا من مقاوم لكنت نذرت نفسي إلى مكافحة الاستعمار مثل هؤلاء الأبطال الذين سيقوا إلى السّجن أو جرحوا أو قتلوا صبرا بدون إعداد أو استعداد . أما أنا ...

وأخذ عادل يبكي بكاء شديدا ، وأنا أنظر إليه مستغربا ما وصل إليه هذا الرجل من التأثّر الشّديد ، وهو الرصين المتعقّل المعروف باعتداله، وبحبّه للحياة ، وملاذّها ، وبعده عن الأحوال الملمّة بالنفس في الظاهر : حيرة وقلقا وكآبة . بل والهازىء حتّى من نفسه . ولكنّ النفس هوّة من نظر إلى أعماقها أصابه الدوار . أمّا ليلها فكم أخفى من ويل . فقلت :

ـــ هوِّن عليك يا عادل ، كيف أصبحت تحمل هموم النّاس وتتأثّر إلى حدّ البكاء والإخلاد إلى العبارات .

فانفجر حانقا وقال :

ـــ هذا نتيجة ما ملأ به الطّاهر دماغك . هو لا يعرف من حياتي شيئا إلّا تلك الأقاويل التي تحكيها له «دُوجَة» التي لا ترى الدّنيا إلا من خلال ثقب الأبواب ، ومتاهات أخبار المتلصّصين . وليس أحقد على الناس وعلى الحياة ولا أشدّ شماتة بهم من متلصّص مترصّد .

ولمّا كنت في تلك الليلة مجهدا ، متعبا ، غير ميّال إلى النّقاش ركنت إلى الصّمت وتركته يقصّ عليّ حياته . ومع هذا فقد تيقّظ منّي الحسّ وسجّلت كلّ ما قاله لي في تلك الليلة ، لأنني عرفت من تلك الساعة أن «عادل» رجل مسكين لم يصبه إلى سنّه ذاك إلّا القليل، ولست أدري لماذا بدأ يحكي لي سيرته من يوم ولادته إلى ذلك الوقت . ولماذا دخل في تفاصيل شدّتني شدّا ، رغم تعبي وإرهاقي . ولكنّها لن تكون أقل غرابة ولا أخفّ مأساة مما سيصيبه من الويلات بعد ذلك اليوم المشهود وأكون أنا ، تارة شاهدا ، وأخرى طرفا .

— 5 —

قال عادل :

ــ ولدت في أوائل القرن العشرين سنة 1900 في بيت عريق من سلالة تركيّة . جاء جدّي إلى هذه الأرض الطيّبة مع سنان باشا في أعقاب تلك الحملة التي شنّها شارلكان على تونس، وبعد بلاء خير الدين بربروس بلاء حسنا . وبقي بيتُنا من ذلك التاريخ إلى اليوم مرموقا ، كما تعرف ، منغرسا في تونسيّته كأشدّ ما يكون الانتساب وطنيّة وقوميّة. أنبت القوّاد والوزراء الذين دوّخوا الأعداء ، وسجّلوا الأمجاد إلى أن حلّت بهذه البلاد الكارثة ، وانتصبت الحماية الفرنسية وأخذت في تحطيم كل القيم السائدة عندنا ، أشخاصا ومؤسسات اقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، وتربوية ، ودينية ، حتى وصل بنا الأمر إلى أن أصبح والدي الفريك إسما خاويا : المظاهر كلّها تدل على أنه محترم مبجّل مكرّم ولكن الحقيقة المرة ، هو أنه كالمركب تتقاذفه الرياح : رياح النظام الاستعماري ورياح بطانة السّوء عند الباي . كلّ شيء أقيم في هذه البلاد على قلب القيم ، فأصبحت دواليب الإدارة والمؤسسات تخضع لهذا التقنين الجديد الذي سلط علينا . وها هو شعبنا يحاول

برجاله الأبطال الثورة عليه ولكنه ينخره كالسوس ويوغل في إصابة الأعماق . وهو ورث كل سلبيات الماضي وزادها إحكاما ورسوخا حتّى أن الانسان يستسلم ويعزو ذلك إلى الدّهر . هذه الكلمة الغامضة التي نحشر فيها كلّ شيء عندما ينتابنا العجز ولا نحاول تحليل الأمور بعقلانية وحسب النواميس الموضوعية ، كما فتح لنا طريقها ابن خلدون . ونبقى نردّد ما صاغه المسكين ابن الرّومي عندما قال :

دَهر علا قدر الوضيع به • وغدا الشّريف يحطّه شرفهْ
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه • سَفَلا وتطفو فوقه جيفهْ

فجعل ذلك سنّة من سنن الكون ، ولم يفطن إلى أنّ الشريف بغفلته، وأنانيته ، واستبداده على غيره واستئثاره بالنّعمة هو السبب في ذلك .

أما أنا فقد ولدت في هذا البيت العريق . ولكن لم تمرّ على ولادتي ستّة أشهر حتى مرضت مرضا لم تقدر الطبيبة « الكُرْغُلِّيَّة » ولا غيرها على معرفته . وسجيّت وانتظر والدي موتي يوما كاملا وليلة عصفت فيها الرّياح قويّة ، ونزلت الأمطار ، وجرت المياه ، كالنّهر أمام القصر وغمرت كل شيء في طريقها . ثم عند الفجر سكنت الطبيعة الصّاخبة، المزمجرة ، فتحرّكت وفتحت عينيّ . هكذا حدّثني والدي ، وابتسمت. وعمّت الفرحة كل القصر ، وأشعلت الأضواء ، وأقيمت بعد ذلك الولائم . ولكن الموت بقي غير منفصل عنّي ، ظل مشدودا إليّ ، يرافقني في كل لحظة كأنه أغنية يردّدها كياني . التصق بها وقادني إلى الحياة، ونفخ في أشرعتي إلى ما وراء اللّيل ، إلى ما بعد الظلام . وفي الواقع فإن الأفق انسدّ في وجهي ، يوم أن قرّرت ألّا أموت (ويبتسم وكأن لسان حاله يقول : وكيف لي أن أقرر وأنا ريشة في مهبّ الصّدفة ورهن تقلبات الدّهر) نعم يوم أن أردت الفرار من هذه الحياة فأمسك

الموت بتلابيبي ، فلا هو تركني وشأني ولا هو أخذني معه . ولكنّ الحياة العقيمة هي موت مؤجّل وبالأحرى موت مسبق والناس يعتبرون الموت أمامهم ، يرقبونه بعينين مفتوحتين ، أمّا أنا فأعتبره خلفي يلاحقني. أليس هذا من غرائب الأمور .

وفي ذلك الوقت استفاقت ذاكرة علي فقال مقاطعا :

ــ نعم حدّثني الطّاهر أن والدك الفريك مصطفى كان في ذلك الوقت جالسا على كرسي أمامك وهو يفكّر كيف سيذوق ــ وأنت بكره ــ لوعة ليس أمرّ منهالوعة ، حديدا يتّقد نارا ، ينغرس في الأحشاء ويشويها شيّا . والحرقة أشدّ وقعا في سواد اللّيل لأن البصر بنوره غير قاذر على التخفيف من وطأتها . واللّوعة صيحة يضخّم الليل صداها ، وينشر همهمتها . وقال الفريك للطّاهر كما روى لي ذلك عادل معرّضا بهذا الطاهر الضارب في الخيال ، والذي ليس به من فضل في عينه إلاّ أنه يعزّ والده كثيرا ، رغم ردود الفعل البدائية التي يركن إليها أحيانا . وهو عندما يروي ما حكاه له الفريك يتفنّن فيه ويضفي عليه مسحة أدبية ، ولا ينسى تطعيمه بما أثِر من القول شعرا ونثرا . فكأنّ والده أصبح ذاك الأديب الفذّ أو الخطيب المصقع ، وهو المسكين الميّال إلى ضرب من التصوف الشائع لدى العامة ، قد أضاع مع هؤلاء الحكّام الأميّين ما حفظه صغيرا ، ولقّنه مشايخه شابّا . وليس له من خيار ليبقى مسموع الكلمة ، غير مهمّش إلا أن يرتاح إلى الأميّة مثلهم ، ويتظلّل بوارف نعمتها ، فيكون حريصا على سفساف الأمور ، متمرّسا بأساليب الدسّ والخديعة ، ماهرا في تسديد الضربات الخسيسة ، متباريا مع الفُلَتَاءِ تحت قناع الوجاهة والشّرف حتى لا تصيبه حجارتهم :

ــ في تلك الليلة والنّار تأكل أحشائي ، تحرّكت الطبيعة بزوابعها، ووابل أمطارها ، فتخيّلت نفسي كما حدّثني والدي عن أجداده عن

جدّي الأوّل الذي وطئت قدماه هذه الأرض مع الوزير والقائد سنان باشا كيف كان يخوض في ليلة مثل هذه معركة كبرى ضدّ جيش الإسبان في المكان الذي بنيت فيه المدرسة الصّادقية ، وسمّاه الإفرنج هضبة شارلكان وكيف دحر ، هو وكوكبة من جنده ، العدوّ ومن مع الملك الحفصي الخائن إلى الْبَسْتِيُون قرب باب البحر ، حيث ضرب سنان باشا الحصار ، وانتصر على المغير وهدم الْبَسْتِيُون . في تلك الليلة ، وابْنِي مسجّى أماميَ ، شعرت بأن كلّ آمالي تحطّمت ، فكأنّني كنت أنتظر من ابني أن يكون المخلّص لنا من الأجنبي المتصرّف فينا بكلّ وحشية، وكذلك من الخونة المتواطئين معه . والآن هو في طريقه إلى الموت، ساكنا لا حراك به ، ولعلّه مرتاح إلى هذه الحال . أمّا أنا فكأنني أصبحت إفرازة للعذاب واللوعة ، وكأنّ هذا الإحساس التصق بي كما يلتصق العظم باللحم ، فلا بكاء ، ولا دموع . وكلّما حاولت أن أهرب من هذا العذاب باللّجوء إلى لطف ربّي إلا وألقيت بنفسي في عذاب أشدّ وأنكى حتّى تمنّيت أن يكون موت عادل هو نهاية كلّ شيء ، نهاية الدّنيا بهذه الزوابع ، وهذا الطوفان ، وهذه الصّواعق المجلجلة برعودها، الخاطفة للأبصار ببروقها ، النّازلة من السماء على الأرض ، توقد النيران في الأشجار ، وتقصم ظهور البشر ، وتحيلهم هباء منثورا . ولكن لمّا تحرك عادل وتبسّم ، انقلب الشّعور بالعذاب إلى وجد به ، وتذكّرت ما قاله شاعر من الصوفيّة :

وكلّ مآربي قد نلت منها   سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

وصدّقت تصرّف ابن عربي في لغة العذاب إذ عنده ينقلب العذاب عذبا. وما سمّي العذاب عذابا إلّا لعذوبته .

ولم أتمّ كلامي حتى لمحت عادل وهو متّكىء على وسادة قد ألمّ به النّوم ، وترك أمامه كأس الشاي لم يرتشف منه ولو رشفة واحدة،

ولا التفت إلى « الْكَاكَوِيّة » المكوّمة في صحن وفي متناول يده . ولعلّ ذكر الطاهر وما بينهما من نفرة جلبا له النّوم . والنّفرة في العادة حافز لتحريك النّوازع وإلهاب المشاعر ، ولكن عند عادل هي باب من أبواب النّسيان ، وهروب إلى النّوم ، هذا الباب الآخر للموت .

ونظرت إلى وجهه الوضّاء وإلى عينيه المغمضتين المستسلمتين للنّوم وقلت في نفسي : لعلّه ليس من خَدِينٍ حميم في اللّيل الأسود غير النّوم بل هو جنّة الأحياء ، في كنفها يتحرّرون ، وفي رحابها يتساوون ، وفي أرجائها يجدون الأمن والطّمأنينة . وعادل ما زال قادرا على أن يقهر حزنه وألمه بالنّوم الذي هو برزخ السّلامة ، ومحطّ رحال الفكر المتعب ، وبلسم المحزون ، وثروة الفقير ، والحكم المنصف بين العظيم والحقير ، والقادر بالوهم على فكّ عقال الأسير .

وتركت عادل يهدهده النّوم ، مستنكفا من إفساد راحته بإيقاظه وانسللت ، وأنا المتعب أيضا ، إلى غرفتي مطمئنًّا إلى أنه غير محتاج إلى من يدلّه على فراشه .

— 6 —

قال عبد اللّطيف لجدّه :

ـــ يظهر أن الصّداقة تمتّنت بينك وبين عادل ، وانحلّت أواصرها بينه وبين الطّاهر . فكيف عرفته .

أجاب الشّيخ علي :

ـــ ويظهر أنّك تريد أن تسبق الأحداث ، وأن تشوّش عليّ نسق القصّ، وتختبر قدرتي على التصرّف فيما أتذكّره بالتّقديم والتأخير . أنا جدّك خبرت هذه الدّنيا ، وعرفت النّاس بأصنافهم وجبت هذه البلاد،

شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وسبرت أهلها ، في المدينة والريف والصحراء ، بدوا وحضرا ، ويعجبني في حفيدي هذه الحيويّة التي يخالطها شيء من المكر والشّطارة . بل لعلّك ـــ وأنت تعزني كثيرا ـــ تريد أن تسمع منّي أكثر ممّا تنصت إلى ما سجّلته في ذاكرتي من أقوال عادل ، في فجر تلك اللّيلة ، بعد أن أيقظني ، وهو يتوجّع من مغص أصابه؛ فناولتُه شيئا من شراب البِسْبَاسِ. وسرعان ما صحّ، وطفق يسرد عليّ قصّته ، ولم أعرف الأسباب التي جعلته يبدو حريصا على البوح لي بأسراره ، مع أنّه متيقّن من أنّني مطّلع على الخبايا ، وطالما حاول إخفاء الكثير منها عنّي . وكم ظهرت حيرته على وجهه ، من جرّاء ذلك ، السنين الطّوال . وها هو في تلك اللّيلة يحسّ بحاجة ملحّة لمشاطرتي أسراره . ربّما تمتينا للصّداقة ، واعترافا بالجميل ، لمّا خلّصته من الشرطيّ في ذلك اليوم الأسود ، وفي مناسبات قبلها سأذكرها فيما بعد .

وعند ذلك لمعت عينا عبد اللطيف مكرا وخبثا وقال له :

ـــ أي جدّي العزيز ، كيف تبوح بأسرار صديقك وهو الذي ائتمنك عليها .

ونزلت هذه الكلمات على عليّ نزول الصّاعقة لأنه لم يكن لينتظرها. واحتار كيف يخرج من هذه الورطة ، وهو الذي لم يبق له في الحياة من متعة إلّا الحديث عن الماضي وإذاعة الأسرار ، وكشف العورات، وفكّ عقال ما كتمه في صدره طيلة عقود . والآن وقد مات من مات، ونسي من نسي ، وظهرت أجيال من النّاس ، بعيدة عن تلك الأجواء التي عاش فيها ، ما ضرّ لو أنّه يذكر هذه الأحداث للعبرة . وتظاهر بأنّه لم يأخذ الأمر مأخذ الجدّ ، بل نحا منحى الهزل منع حفيده وقال :

ـــ ألا تعلم أن الشّيخوخة تجعل صاحبها يشعر بأنّه محور كلّ شيء، وأنّه قلب الدنيا تماما مثل المنتشي بالخمر ، ومثل الشّباب فيَ عنفوانه (قال ذلك معرّضا بحفيده في ابتسامة ساخرة) وأيّ سكرة مثلَ سكرة الشّباب ، تيها ، وزهوا ، ونحن صغار في مبدإ حياتنا ، وصغار في نهايتها إن طالت .

ويقاطعه عبد اللّطيف قائلا :

ـــ ولكنّ الأطفال أحفظ للسرّ من الكهول .

غير أنّ علي يواصل حديثه وكأنّه لم يسمع ما قيل :

ـــ وفي الواقع ، ليس هناك أشدّ بوحا من الزّمن ـــ ولقد مرت على هذه الأحداث أكثر من خمسين سنة ـــ والسرّ إن تخطّى صدر صاحبه انتفت عنه صفته . كالأسير إن أطلق سراحه لم يبق أسيرا . ألا تدري أنّ السرّ ، ليس ذاك الشّيء المكتوم ، بل هو ما أهمس لك به وحدك. ولهذا قالت العرب : أسرّ له أي باح له بسرّ . والسرّ هو دائما ثمرة أخطاء الإنسان . وكم يلذّ للإنسان أن يهيم بأخطائه وكلّما زاد عشقه لها ، كلّما زادت ذيوعا وانتشارا ، كالعاشق الولهان إن استعبده الحبّ تخطّى الجوى إلى الهيام ، فهام على وجهه ، على مرآى ومسمع من النّاس .

ـــ 7 ـــ

قال الشّيخ عليّ لعبد اللّطيف وكأنّه أصبح يخاطبه وحده ، إذ اتّجه إليه بكلّيته :

ـــ تسائلني كيف عرفت عادل . كنت أنا في سنة 1920 قبل ذلك بقليل ، أو بعده ، لا أذكر التّاريخ بالضبط ، في حرس الباي . ما زلت

« أُمْبَاشِي » (عَرِيف) ، ألبس « ٱلْكُمْبَرَهْ » وهي سترة من الملْفِ قصيرة تصل إلى الخاصرة ولا تتعدّاها ، سوداء بها تعاريج حمراء ، وتحتها صدريّة ، تلفّها في مستوى الوسط شملة عريضة . وهو نطاق يدور على الوسط مرّات عديدة ، مشدود شدّا محكما ، حتى يضمر البطن . وعلى الرأس شاشيّة ، فيها خبشة تلمع . لو رأيتموني في ذلك اللّباس لضحكتم. خرجت أنا والطّاهر نتجوّل في العاصمة ، وكنّا نتردّد على سينما ومقهى عَلِي بِنْ كَامِلَهْ ، في مدخل نهج الْقَصَبَة ، وبالصّدفة تلاقينا مع عادل. فقدّمه إليّ وجلسنا بالمقهى ، وإذا بعُمْرَانْ بِنْ عَلِي بِنْ كَامِلَهْ يلتحق بنا. وكان قبل ذلك يعزف على البيانو ، مساوقة لبثّ شريط سينمائيّ وكانت السينما صامتة آنذاك . وجلس حذونا ، وما لبث أن جاء عبد الله الذي نزع عنه هذا الإسم وكان اشتهر به في البلدة ، وتسمّى بعليّ رجوعا إلى اسمه الأصلي . هو صهر بن كامِلهْ الذي اشتهر في ذلك الوقت بمشاريعه الثّقافية ، من مسرح وسينما وحفلات موسيقيّة . ومن ذلك اليوم انعقدت بيننا المودّة وأصبحنا ــ العليّان وعادل وعمران ــ نتلاقى أواخر الأسبوع ، وينضمّ إلينا عبد العزيز العِرْوِي ونلْهُو ما وسعنا الأمر، ونحن في ميعة الشّباب .

وكثيرا ما كانت تجمعنا دار علي بِنْ كَامِلَهْ الكائنة في آخر الْحَلْفَاوِين، قرب باب الْخَضْرَاء . نتناول هناك طعام الغداء أو العشاء . وأصبح عادل مرتبطا بعلي وعُمْرَان أكثر منّي . أمّا الطّاهر فإنه أقلع عن صحبتنا كرها في عادل . ولم أعرف سبب تردّد صاحبنا يوميّا على دار بِنْ كَامِلَهْ إلّا عندما أتاني في يوم من الأيّام ، وباح لي بحبّه لفتاة اسمها زَيْنَب .

وزَيْنَبُ فتاة في الخامسة عشرة من عمرها . رأيتها في دار علي بن كاملة تأتي لتتعلم، مع بُنَيّتَيْه الصّغيرتين ، التّطريز وشيئا من الكتابة والقراءة . هي جارة لهما . الفتاة جميلة طويلة القدّ بيضاء . شعرها كثّ

فاحم ، طويل ، سبط . وعيناها دَعْجَوَانِ ، وأنفها أقْنَى ، أما حاجباها ففيهما زجَجٌ .وكأنّ على وجنتيها وردتين ناضرتين . وهذه الفتاة ليست تونسيّة بل إنّ أباها جاء من فرنسا ، بعد أن فرّ من روسيا عند قيام ثورة 1917 . كان من أعيان المسلمين ، انحدر من إحدى البيوتات الإسلاميّة السّاكنة بالبلدان التي ضمّها الرّوس إليه في عهد قريب . ولمّا لم يجد في فرنسا ، رغم تحصيله على الجنسيّة الفرنسية ، ما يسدّ به رمق العيش، آثر أن يأتي إلى تونس التي هي دار إسلام علي كلّ حال ، رغم احتلالها من الأجنبي . ورضي بأن يكون موظّفا بسيطا ، بإدارة الأشغال العامّة. ولعلّ اسم عَلِي قُولِي الذي لم يرض بتبديله ، هو الذي سدّ أمامه الأبواب في فرنسا .

سكن حيّ الْحَلْفَاوِين ، رغبة في الانسجام انسجاما كلّيا مع البيئة الإسلاميّة ووجد نفسه بالصّدفة جارا لعلي بن كَامِلَهْ . وأعجبُ ما في الصّدفة أنّها تخبط خبط عشواء كالمال . وأنّها لا تنفع إلّا الأقوياء من النّاس ، ولا ترضي آمال من كان العذاب نصيبه وقدره المقدور . وعلى كلّ فقد عاشر هذا الرّجل بِنْ كَامِلَهْ عشرة حميمة ، مقدّرا فيه حسّه الثقافيّ ، في زمن لم تعرف فيه تونس حياة ثقافيّة بأتمّ معنى الكلمة ، ومعجبا بإقدامه على بعث المشاريع الثقافيّة رغم أنّه من وسط شعبيّ ، وانحدر من مدينة صغيرة بالسّاحل التونسي . وأمكن له بحيويّة عجيبة أن يستقطب جمعا كبيرا من الموسيقيين والمسرحيين ، سواء كانوا تونسيين ، أو مشارقة ، متيحا لهم الفرصة ، ليشيعوا في العاصمة التونسية جوّا فيه المتعة الفنيّة الرفيعة والخصب الثقافيّ .

استفاد عَلِي قُولِي من هذه الجيرة ، وأصبح علي بِنْ كَامِلَهْ يستعين به في بعض أشغاله ، بين الفينة والأخرى ، فيوفّر عَلِي قُولِي بهذه الصورة موردا جديدا . ورغبة منه في انصهار ابنته في البيئة الإسلامية دفعها إلى

ملازمة ابنتي بِنْ كَامِلَهْ الصغيرتين فصارت تتعلّم معهما التّطريز ومبادىء العربيّة ، وتتمرّن على حذق اللهجة التونسية . ولكنّها تمسكت بزيّها الفرنجي وخروجها سافرة مثل الأجانب .

لقد جنّ بها عادل حتى أصبح يغدو ويروح ، جيئة وذهابا ، في نهج الحلفاوين ، ويقف أمام دار بِنْ كَامِلَهْ منتظرا عمران ، الساعات الطوال، ليراها تخرج من منزل أبويها ، وهي تخطر في مشيتها . وسرعان ما تطرق باب الجار ، فيفتح . وتدخله ، والحياء يجلّل وجهها . نعم هذا الباب الذي كم وقف أمامه وأنعم فيه النّظر حتى حفظ دقائقه . ويقاطع عبد اللّطيف جدّه ويقول :

ــ هذا الباب وصفه عادل لصديقه عبد القادر في رسالة من رسائله. هو باب مزخرف بالمسامير كسائر أبواب دور المدينة ، يحوطه إطار عظيم من حجر الكَّذَال ، يعلوه ساكِف بقوس من رخام ، فاتح اللّون ، تتخلّله حجارة سوداء ، وفوقه قوس حادّ من الهِرْشَةِ ، تفتح فوقه نافذة صغيرة مشبّكة بالحديد . كان يطيل النّظر إلى المسامير حتى أنه حسبها كلّها : المسامير ذات الرّؤوس الغليظة المدهونة بالدّهن الأسود ، وما بينها من مسامير صغيرة الرّؤوس . ويتذكّر المشاكل الحسابيّة التي كانت تطرح عليه ، وهو في المدرسة الابتدائيّة ، ويطلب منه فيها أن يعرف عدد الأشجار انطلاقا من عدد الصّفوف ويشعر أنّه مسمّر أمام الباب، تماما مثل أحد هذه المسامير المنتشرة فوقه ويربط كلّ ذلك بطول انتظاره وبأنّه لن يظفر بشيء ممّا يتوق إليه . ثم ينقل نظره إلى ما فوق الحلقتين ، وينزل به سريعا ، ويهمّ بطرق الباب ، ولا يلبث أن يمتنع عن ذلك ، ليشغل نفسه بتأمّل الزّينة الموجودة فوق الحلقتين ، في الرّكن الأيمن والأيسر ، من أعلى مصراعي الباب : سهمان موجّهان إليه ، يرسُمان عند ما يتّسعان ، صورتين كأنّهما نهدان بحلمتيهما . والغريب

أنّه ، عندما يصل إلى هذه المرحلة من تسميرته ، تفتح الباب أمّ عمران وتقول له بلطف :

ــ يَا وْلِيدِي عادل ، عُمْرَان لن يأتي إلّا بعد ساعة . البرد قارس .

وعند ذلك يقاطع الجدّ عبد اللّطيف ويقول معلّقا ومسترسلا في حديثه عن عادل :

ــ أحسنْتَ. أحسنت من ترك خليفة له لم يمت ... ويدخل عادل الدّار ، ويجلس « بِبَيْتْ الْقَعَادْ » وهي مقابلة للغرفة التي يتعلّم فيها البنات. ويبقى هناك إلى أن يأتي عمران ، وفي الأثناء ترسل إليه أمّ عمران مع زينب ، وهي سافرة مثل الإفرنج كما قلنا ، القهوة والمرطّبات بأنواعها. فيسألها عادل بالفرنسية عن أحوالها ، وأحوال عائلتها ، وكيف عاشوا في باريس ، وهل تستطيب المقام هنا ، وهل تعجبها تونس ، وأحياءها، وحياة النّاس فيها ، حتى يعلوَ صوت أم عمران مناديا ، فتجري زينب ملبيّة في لهجة تونسية ، بها بعض رطانة ، وشيء من الارتباك .

كان عادل في ذلك الوقت حييّا ، مستقيم السيرة ، لم يكتسب تلك الجرأة التي أصبحت لصيقة به . ورغم أنّه غادر المدرسة الصادقية لأنه لم يتحصّل على الدّيبلوم في الكرّة الأولى ، فقد بقي يعين والده في تصريف شؤون الضّياع ، ويتطلّع إلى معرفة واقع الحياة في تونس . وكان يستنكف فترتها من التردّد على أماكن اللذّة مثل أصحابه ، وعندما يجرّه هؤلاء جرّا إلى تلك الأنهج التي تظهر فيها المومسات في مباذلهنّ أمام غرفهنّ ، يصيبه القرف ، ويطلق لساقيه العنان كأنّه مطارد . لأنه كان يعتقد في قرارة نفسه ، أنّ المرأة أشرف من أن تبتذل بهذه الصورة وتباع سلعة مثلما تباع البهيمة على مذبح الشّهوة الرّخيصة .

وعند ذلك يقاطع عبد اللّطيف الشّيخ عليَ قائلا :

ـــ وهذا لا يمنعه عند الرّجوع إلى غرفته من الاختلاء بنفسه والرّكون إلى شهوة أرخص من تلك .

ويضحك الجميع ويتوقّف الجدّ ضاحكا ، ثمّ سائلا عبد اللّطيف :

ـــ ومن أين جئت بهذه التفاصيل .

ـــ أنسيت يا جدّي أنّك كلّفتني بترتيب أرشيفك . فلقد وجدت من بين ما وجدت ملفّا كاملا ، كان سلّمه لك عادل قبل وفاته ، وفيه من بين ما فيه ، المراسلة التي كانت بين عادل وصديقه عبد القادر . والغريب في الأمر أنّ عبد القادر قبل أن توافيه المنيّة ، وهو في شبابه، ردّ كلّ رسائل عادل مصحوبة بكلمة يقول له فيها (وأخرج من جيبه ورقة وطفق يقرأ) : « ها أنّني اليوم أشرفت على الموت رغم شبابي ، وأنت تعرف أنّ الموت حبيب إليّ ، منذ زمان ، قدّمت إليه ترشيحي بصورة دائمة، معتبرا إيّاه رفيقي في هذه الحياة التي لم أجد خطّة أُرشّح نفسي لها غيرها . ما أحبّها خطّة أيّها الصديق العزيز . إني أتقبّلها بكلّ سرور، آملا أن تطوي كلّ ما عرفته في هذه الحياة . وليس لي من حسرة إلّا على هذه الصّداقة المتينة التي ظلّت بيننا ضوءا بارزا ، في عتمة هذا العيش الكريه . ولهذا كرهت أن أصحبها معي حيث لا نور ، ولا ضوء إلّا العدم المطبق. وهذه الرسائل هي التّجسيم الحقّ لهذه الصداقة . فخذها عندك ، واحتفظ بها مع رسائلي . فأنت على كلّ ، خير من يحفظها ، لأنك تقدّرها حقّ قدرها ، وتعرف معنى الصّداقة . أمّا أنا فإنّي أريد أن أموت بدون شهود » .

والأغرب في الأمر أنّ عبد القادر لم يتوفّه الله إلّا بعد عشر سنوات انقطعت فيها أخباره عن عادل ، لأنّه سافر إلى فرنسا ، حتّى عاجلته المنيّة هناك ، بسبب ورم في الدماغ .

وعند ذلك أصاب الشّيخ علي شيء من الإعياء فضحك وقال :

ــ إن هذا الشّيطان عبد اللطيف شوّش عليّ تسجيلي للأحداث، ولهذا فإني أتوقّف عن سردي لقصة عادل وإلى مرّة آتية .

— 8 —

لم يكد ينفضّ الجمع ، حتّى دخل عبد اللّطيف مكتبة الشيخ علي التي أذن له جدّه بالمرابطة فيها لترتيب أرشيفها ، واتّجه نحو الملفّ الذي نامت فيه رسائل عادل وعبد القادر . وتناول بعض الرّسائل التي تحدّث فيها عادل عن الحبّ والهوى وأفضى في طيّاتها بما كان يسميه حبّا ، وهو الطّفل ثم الشّاب ، حتى عرف لوعة الهوى والشّوق مع زينب. ورتّب الأوراق حسب تواريخ إرسالها ، مع ردود عبد القادر . وشدّته رسالة غريبة كتبها عادل وعمره ، آنذاك ، ثلاث عشرة سنة ، وهو في السّنة الأولى من التّعليم الثّانوي يحكي فيها حزنه إثر هجر من كانت تحبّه حبّا كبيرا. كتب قائلا :

« صديقي العزيز عبد القادر ،

ها أنّ عطلة الرّبيع طالت ، وأنت فضّلت أن تكون بين أهلك في هذه الأيام ، بعيدا عن صديقك الذي يعزّك ولا يقدر على فراقك . ولئن هزّني الشّوق إليك ، وتذكّرت حنوّك عليّ ، أنا هذا التّائه في خضم الحياة ، رغم النعيم الظاهر الذي يظنّ الناس أنّني أنعم به . فإنّ الذي حدث لي في هذه الأيام ، عصف بنفسي ، وأثّر فيها تأثيرا كبيرا . لقد تردّدت في أن أكتب إليك خوفا من أن يقرأ ما سأكتبه غيرك . ولكن عندما تذكّرت أن أمّك وأخاك جَمَيِّلْ لا يعرفان لا القراءة ولا الكتابة، داخلني شيء من الاطمئنان . لأنّني لا أريد أن أبوح بما حدث لي هذه

الأيام إلّا لك أي إلى نفسي . وتصوّر المأساة التي يمكن أن تحلّ بي، لو قرأ هذه الرسالة طرف ثالث . احرص على إخفائها حرصك على صداقتنا ، يا عبد القادر[٢]، وضعها في مكان لا يمكن أن يتفطّن إليه أحد.

أنت تعرف أنني ، منذ أن دخلت المدرسة الصادقيّة إلى اليوم ، لا أروح إلى منزلنا بباردو إلّا في العشيّة ، عندما تأتيني « الْكَرُّوسَهْ » أو يصحبني « الْحَاجْ كُرُنْبَهْ » في التُّرُمْفَايْ . وعند الزّوال يأتيني « عَمّ صَابِرْ » الشغّال عند خالي لأتناول طعام الغداء ثم أرجع بعد ذلك إلى المدرسة . وفي هذه السّنة كنت صحبتني في بعض المرّات إلى دار خالي ، ورأيت بنفسك أنّ « لِلّهْ رْقَيَّهْ » أخت زوجة خالي تحبّني كثيرا . وهي كبيرة في السنّ لم تتزوّج بعد . وفي كل أسبوع ألتمس الأعذار لأبيت ليلة الجمعة هناك ، وأقضي يوم العطلة في العاصمة ، لأتمكّن من الخروج مع « لِلَّهْ رَقَيَّهْ » إلى أحياء المدينة ، وأتفرّج على ما في ساحة الحلفاوين من حوّائين ، ومشعوذين ، وعارضين لضروب الألعاب، وأشبع من حركة الأسواق وما فيها من زحام ، ومشاهد غريبة ، تصل إلى العراك ، والمشادّات الكلاميّة وحتّى بالأيدي . وكانت « لِلَّهْ رقيَّهْ » تعتبر رفقتي مشجّعة لها للخروج حتى أدفع عنها مشاكسات أراذل النّاس .

واغتنمت فرصة هذه العطلة لأبقى في بيت خالي ، وتعوّدت أن أبيت مع « لِلَّهْ رَقَيَّهْ » . وكانت دائما تضمّني إليها ، وتعتبرني رضيعا لها ، وتعجبني اللّعبة فأرضعها بشغف حتى يأتي وقت تشتدّ فيه عليّ، وتمعن في تقبيلي وضمّي إليها في لهفة تفوق الحدّ ، ولا أدري لمناذا تصل إلى درجة إيلامي في بعض الأحيان ، حتى أشعر بأنّني سأبول في فراشي. ثمّ تهمد هي وتنام . وأبقى أنا ، وقتا طويلا ، أراود النّوم فلا يأتيني. ولكن حدث في ليلة الجمعة الأخيرة ما لم يكن في الحسبان . إذ ما

أن ضمّتني بقوّة ، ودحرجتني فوقها ، لتقبّلني بلهفة كالعادة حتى خرج « عُصْفُورِي » من مكانه ، واحتكّ فوق منامتها في مكان أستحي أن أتلفّظ به فلم أتمالك أن أحسست بلذّة ، لم أكن لأعرفها عند البول، وشعرت بشيء من البلل فوق منامتها ، وكأنها فطنت إلى ذلك ، فدفعتني بقوّة ، وضربتني وقالت لي : لن تبيت معي من الليلة فصاعدا. فقلت لها : « يا لِلَّهْ رَقَيَّهْ » إنّني لم أقصد شيئا ، ولم أعرف كيف أملك نفسي وهي قطرات قليلة . فأجابتني قائلة : ليس هو ما تظنّ في شيء. إنّك أصبحت رجلا . وقامت وأنارت الغرفة ، وأبدلت منامتها بمنامة أخرى ، وغسلت البقعة ، ونبذتني في أقصى السّرير . والغريب أنّها لم تكن غاضبة كثيرا ، بل كانت الابتسامة تعلو ثغرها من حين لآخر والذي زادني ألما ، هو أنّها رفضت في صباح الجمعة الباكر اصطحابي معها كالعادة إلى حمّام النّساء . وكانت هناك تمعن في المقصورة في تنظيفي وتضحك من « عُصْفُورِي » وتعابثني فيه مرات ومرات ، وأنا أتعجّب منه كيف يكبر وينتشر ، وأضحك وهي تضحك وأصبحت أشتاق دائما إلى اللّعبة ، وأحزن عندما لا تؤاتيني الفرصة للذهاب إلى حمام النّساء . وكنت أتوقّع من حين لآخر أن أمنع من دخوله . إذ سمعت بأذني « الْحَارِزَهْ » تقول « لِلَّهْ رَقَيَّهْ » : يا أختي ، عادل سلّمه الله ، كبر وأصبح رجلا . فتجيبها قائلة : أُوِّهْ ... هذا رجل . إنّه لا يزال صغيرا ، لا يهمّك فأنا آتي به في الصباح الباكر قبل أن يمتلىء الحمّام . فتجيبها الحارزة : لا يَا أَخَيَّتِي ألا ترينه كيف ينظر إلى النّساء ويتبعهنّ ببصره . نظرته لم تعد بريئة . إنّها أصبحت حَرْشَاءَ . وهكذا صدق حدسي إذ قالت لي « لِلَّهْ رَقَيَّهْ » في هذه المرة : يجب عليك من الآن فصاعدا ، أن تذهب إلى حمّام الرّجال . فقلت لها بين الغضب والأسى : إنّ في بيتنا بباردو حمّام . ولهذا لا أحتاج لا لحمّام الرّجال ولا لك .

فضحكت طويلا ، وضمنّتني وقالت لي : إنّني أحبّك كالعادة ، ولكن بدون أن تبيت معي .

هذا ما جرى لأخيك يا صديقي . فهل النّساء في مثل هذه الغرابة أم ماذا . ألا يمكن لك أن تفسّر لي هذا . وتخفّف عنّي ما أصابني في هذه الأيام » .

صديقك الذي يعزّك
عـادلْ

وبعد أن انتهى عبد اللّطيف من قراءة الرسالة ، وجد الردّ عليها الذي وافى عادل بعد أيّام قليلة . وفيه يقول عبد القادر :

« صديقي العزيز عادل ،

لقد وافتني رسالتك في يوم كان من أحزن أيّام حياتي ، إذ كادت تحلّ بنا كارثة ، لولا لطف الله . أنت تعلم ، يا صديقي ، أنّني استعرت منك مبلغ تذكرة السّفر إلى الهوّاريّة ، وتعلم أيضا أنّني لا أغادر العاصمة من أجل زيارة أهلي فقط، بل لأعين والدتي، وأخي البحّار على همّ الزمان، بما أحصل عليه من أيام عمل عند معلم البناء الحاج الزِّعْبِي ، طيلة هذه العطلة الطويلة . وبينما كنت أحمل سطل « الْبَغْلِي » إذ جاء جار لنا وقال : إن مركب جَمَيِّلْ البحّار قد غرق ، ولسنا ندري من هو الذي هلك من البحّارة الثلاثة الذين يحملون هذا الاسم نفسه . وتصوّر كيف نزل عليّ الخبر نزول الصّاعقة ، فانطلقت إلى الشّاطىء ، ومن ألطاف الله أن وجدت أخي من النّاجين وهو الذي أخبر النّاس المجتمعين على الشّاطىء بخبر هلاك المسكين . إذ رأى من بعيد مركبه ينقلب عليه من شدّة غليان البحر ولم يكن في وسع أحد من البحّارة أن يقترب من ذلك المكان المعروف بخطره .

يا أخي عادلْ تصور أنّ أخي « جَمَيِّلْ » هو الذي مات كيف يكون حالي أنا . عند ذلك ليس لي من حيلة غير الانقطاع عن التّعليم لأعول أمّي . ولهذا كانت فرحتنا كبيرة في تلك اللّيلة . وكم ضممت إليّ أخي جميّل وأمّي ، وسعدنا سعادة ليس لها مثيل . وكانا يتطلّعان إلى الرّسالة التي أتى بها ساعي البريد ويسألاني عن حالك . ولكنّني كنت أضحك وأنا أقرأ ما دوّنته من سذاجة في رسالتك ولا أقول بلادة. ولفّقت لهما قصّة خياليّة ، مضحكة ، وادّعيت أنّك صاحبها ولم يكن لك من غرض إلّا إضحاكي لقد تذكّرت ، عند قراءة وصف حالك في الحمّام، قصّة الأحدب والأقعس التي كم ضحكنا منها . قلت لهما :

كان في قديم الزّمان صديقان أحدب وأقعس . عرف الأول بالشّجاعة والإقدام والثّاني اشتهر بالجبن والخوف . وتناقل النّاس في تلك المدّة أنّ حمّامنا ، سكنه عفريت من العفاريت . وأنّ هذا العفريت يظهر في الفجر عندما يكون الحمّام خاليا من الناس وفي « بَيْت السُّخُون » حيث يكثر البخار ويتعتّم الجوّ . ولهذا لا يدخلها المتردّدون على الحمّام فرادى . وصادف أن دخل الصّديقان الحمّام ، فجر يوم من الأيام . فتراهنا على أنّ من يدخل « بَيْت السُّخُونْ » وحده يهدي إلى صاحبه حملا . وكان الأحدب بالطّبع هو المتطوّع . فتوغّل بدون تردّد في ردهات الحمّام ، ووصل إلى أقصى ما فيه من دهاليز . ولم يغب طويلا حتّى رجع مستقيم الظّهر ، شامخا بأنفه . فتعجّب صاحبه من الأمر ، وسأله عن سبب تغيّر حاله فأعلمه أنه ، لمّا جلس أمام الحوض الكبير الذي يغلي فيه الماء غليانا ، إذ بالماء يفور ، وينشقّ عن عفريت عظيم الهامّة طويل القامة ، أشوه الوجه ، أغبش ، وصرخ في وجهه صرخات مرعبة ، فلم يتحرّك من مكانه ، ولم يتزعزع ، وبقي ينظر إليه في لا مبالاة أدهشت العفريت . ثم سأله ماذا يريد في هدوء لا مثيل له .

فضحك العفريت ضحكة فار لها ماء الحوض ، وقال له لم أر إنسيّا أشجع منك . أطلب ما تشاء أحقّقه لك في الحال . فقال الأحدب : هذه الحدبة أضرّت بي ومنعتني من تحقيق رغائبي في دنيا النّاس ، أزلها عنّي أثابك الله ، وقبل توبتك . فما كان من العفريت إلّا أن ألصقه بالجدار ، وسوّاه كأنه عجينة بين يديه . فتعجّب الأقعس من ذلك وقال له : والله لست أشجع منّي ولا أكثر إقداما. وحزم أمره وجرى نحو بيت السّخون لا يلوي على شيء . ولم يغب طويلا ، حتى رجع إلى صاحبه وكأنّه يحبو وقال له : هذه مصيبة لا تطاق . أتعرف أنّ هذه الحدبة التي أحملها على ظهري هي حدبتك ألصقها بي العفريت لمّا جزعت منه جزعا كبيرا ، وسخر منّي سخريّة لم أعرف أن الجنّ قادرة على مثلها . وطالبه صديقه بالحمل .

وأنت يا أخي عادل ، في بحبوحة من العيش ، لا تعرف من قساوة الحياة شيئا ، ولا من مأساتها القليل ولا الكثير ، وتقصّ عليّ أمرا طبيعيّا، يعرفه كلّ من يكبر منّا ، ويستطيبه عندما يختلي بنفسه . اعرف أنّك من هنا فصاعدا لن تأمنك أيّة امرأة صغيرة أو كبيرة . إنّهنّ يخفن من الفضيحة . سأحدّثك عن ذلك بإسهاب عند لقائنا وسأدلّك على الطّريقة التي تشعر بها باللذّة مثل أترابك أيّها الغرّ الجهول . وإلى اللّقاء قريبا، والآن فأنا متعب ، ولا بدّ أن آخذ حصّة طويلة من النّوم ، لأنّني مطالب بالنهوض مبكّرا . لأن الحاج الزَّغْبِي يبدأ أشغال البناء في الصّباح الباكر ».

أخوك عبد القادر

ثم استعرض عبد اللّطيف عدّة رسائل، واستوقفته رسالة، تعبّر حقيقة عن نفسية عادل وهو في سنّ المراهقة لم يعرف شيئا من الحبّ بعد، ولا عرف واقع النّاس ومع هذا فهو يعيش مأساة غامضة تجعله يشعر بالهمّ والضجّر، ويحسّ بضيق لا يعرف له معنى . ويحاول أن يداوي قلقه بقرض الشّعر ، والهُيام بالطّبيعة ، والتمسّك بالصّداقة .

كتب وهو في السّابعة عشرة من عمره لعبد القادر قائلا :

« أخي عبد القادر ، يا أخا الولاء والوفاء ، طابت عناصرك . لا أدري ماذا تفعل في هذه العطلة الصّيفيّة . الأمر عندك واضح . أنت تتعلّم لتسعد أمّك ، وتعين أخاك يوم تحصل على وظيف ، وأنت الآن كعادتك لا بدّ وأنّك تجهد نفسك في النّهار ، وتكدّ للظّفر ببضعة نقود توفّرها لأمّك ولنفسك فأنت سعيد بالنّظر إليّ . أمّا أنا فإنّي أعيش مأساة ، لا أدري ما هي ، وما سببها ، وهذا الحزن الذي لم يبرح يلازمني ، وهذه السّحب من الهمّ التي تنتاب نفسي ، ما سببها يا أخي ؟ حتّى أنّني اتّجهت إلى الخالق أقول له في هذه الأبيات النابعة من نفس مهمومة :

لهذا خلقت أم لغيره يا ربّ همـوم وأحـزان وبلـوى تـدبّ
ونفس تذوب بالأسى والضّنى ينمو وفي الصّدر حيرة ونـار تشبّ

إنّني ، والله ، لم أكن مع أهلي في ذلك اليوم . كنت أسير ، وأسير، والشّمس تكاد تشوي الوجوه . فإن قلت شقيّ فلا لشيء ، وإن قلت لك أنت سعيد فلا لشيء . وإن قالوا ضدّان لا يجتمعان فذاك من غرابة هذه الدّنيا . فاسمع أخاك وتفهّمه : أيريد الإنسان أن يعيش منبوذا ذليلا. أيريد الحرّ أن يبقى تحت رحمة كلمة أو شقاء من كلمة . أيجدر بالحرّ أن يذلّ أو يحزن ليحيا . تلك أفكار تبدّت لي منذ أيّام ثم تبدّدت وها هي تعاودني في هذا اليوم . أهي حقيقة أو نزوة من نفس مخبول .

أهي سبيكة نزعت من إنسان عين الطبيعة أم قذى استغنت عنه . قولي بالله أيّتها النّجوم ، وازجمي أيّتها السّماء : أهي حقيقة أم جنون . أهدري أيّتها الأمواج وثوري أيّتها الرّمال وقولي : أهي حقيقة أم جنون. ناجيني أيّتها الشّمس ، وقولي : هل تسمحين للقمر أو لنجمة الظهور إن بزغت. وأنت أيّتها الرّياح أتتذكّرين يوما أصبحت فيه رهينة الأمواج دون حلمك . لا أسمع شيئا إلاّ صفير الرّياح ولا أرى الشّمس إلا كعادتها . كلّ شيء أخرس حتّى القلب عدم كلّ شيء... لم تتحوّل الرّياح عن طبيعتها ولا نواميس الكون عن كنهها . فصرخت وقلت :

هاتهـــا لــي مـــرّة كالعلقـــم	قـد سئـمت اليـوم زهـو المـبسم
ربّ وصب نـال منّـي مـا هــوى	وهمــوم فــي ضلوعـــي سقّـــم
فنهــيت الدّمــع أن لا يشتكـــي	وكتــمت الهــمّ لمّـــا يكتـــم
ذاك شأني في الدّنـى ذي شأن من	حطّــم القيــد بحـــزم الأرعـــم
وأهـــاب بالحيـــاة ساخطـــا	مــن دهــور تعـــتصي للأفهـــم
وعبـــاد تستكيـــن عجّـــزا	للحقيــر والجهـــول الأظلـــم
إنّنـــي فيهـــم غـــريب مبهـــم	حبّـذا عنـدي حيــاة المبهـــم

هكذا أنا ، يا أخي ، في هذه الأيام لا يهمّني شيء ممّا ترفل فيه عائلتي من نعيم السلطة والجاه والتّرف ، بل إنّني أتوقّع أنّ كل هذا زائل وأنّ الرّعود ستقصف قريبا ، وأنّ كلّ هذا الزّيف ستعصف به العواصف عصفا شديدا ... اسلم لأخيك عادل » .

وكلّما أمعن عبد اللّطيف في قراءة الرّسائل ، إلاّ وتبيّن أنّ عادل يعيش أزمة نفسانيّة لم تبن معالمها بعد . ولكنّه وجد فيما يبثّه لصديقه من شعر ، وما يكتبه من رسائل ، وما يتملاّه من مناظر الطبيعة وما يسمعه من روائع الموسيقى العالمية والتونسية والمصرية عزاء له . حتّى لاحظ

أنّ تواريخ الرّسائل تباعدت شيئا ما ، وأن الصديقين افترقا . فعبد القادر انتقل إلى بنزرت ليصبح قيّما بمدرسة « سِتِيفُونْ بِيشُونْ » . ويغادر عادل « الصّادقِيّة » بدون أن يحصل على « الدِيبْلُوم » إلاّ بعد انقطاعه عن التّعليم . وتختطفه حياة النّاس في العاصمة ، وتتلقّفه أجواؤها الثقافيّة، والسياسيّة ، ويأخذه واقع النّاسِ بكلّ ما فيه من بساطة ، وعفوية ، ويرتبط بأصدقاء جدد ، وإذا بعبد اللّطيف يعثر — والنّوم يخالط أجفانه — على رسالة تبدأ هكذا :

« أخي عبد القادر ،

في اللّيلة الحالكة الظلام ، وفي الفجر عندما يبدأ الصراع بين الضّوء والظّلام ، وفي السّاعة التي ترجح فيها كفّة الضّوء على كفّة الظلام ، وفي الدّقيقة التي يخرق فيها خيط الضّوء جبّة الظّلام ، يكون للنّفس شؤون وأيّة شؤون . يكون لها من ظلام اللّيل سود الخواطر ، يحمن عليها حوم الطّير يريد الماء . ثمّ يلممن ويتعلّقن بها تعلّق الصّادي بقدح الماء ، ويكون لها من حيرة الفجر شكّ ويقين ينتزعان منها صوابها ، ويتركانها تهوّم في فضاء الأبدية بين الشك واليقين . ويكون لها من رجحان الضّوء قبس تخترق به الشّكوك ، وتصعد به عاليا ودائما إلى أعلى تبحث عن الحقيقة المرّة ، وتتصبّر بآمال ربّما كانت لها منها القضاء المحتوم . ويكون لها من انتصار الضّوء على الظّلام فواجع وأيّة فواجع . لأنّ الضّوء يا عزيزي عبد القادر ليس النّور . النّور ينبعث من **الإنسان، من الأشياء، من الطّبيعة. النّور يحمله الإنسان فيه، يفرزه** من كوامنه . أتظنّ أنّ العين — كما قيل لنا في المدرسة — تنظر بما ينعكس على شبكتها من الضّوء . كلاّ وألف كلاّ وماذا تقول في الحيوان الذي يقدر على البصر في الظلام . النّور ينبع منّا ، ينبع من الأشياء ، وما نراه من اختلافِ الضّوء عليها الذي يكيّفها ، هو نورها الذي يعطيها الظّلال التي نشاهدها ... » .

ولم تطاوع عبد اللّطيف عيناه على المضي في هذا الكلام الغامض فأغمضهما ، ودخل في عالم النّوم تتجاذبه الأحلام ، وهو بين الكتب والمجلات حتى فاجأه ضوء الصّباح وأيقظته حركة الشّيخ علي وقد نهض ليصلّي .

— 9 —

ولم يشأ عبد اللّطيف النّهوض لإصلاح هيئته ، وتناول فطور الصّباح، بل أصرّ على قراءة الرسالة الطّويلة التي تحدّث فيها عادل عن حبّه ، وكيف انتهى به الحال بعد ذلك . فإذا هي الرسالة قبل الأخيرة التي يقول فيها :

« أخي عبد القادر الذي طوّح به الزمان ، وانغمس في حياة اللذّة التي أنسته في الظّاهر هموم هذه الدنيا ، وأبعدته عن أصدقائه وأحبّائه، وراح يدفن همومه في الكأس والشّهوة ، ولا يعرف أنّ صديقه المهموم جِبِلَّةً، الضّجر بهذه الحياة أساسا قد اكتوى بنار الحبّ . لقد تغيّر كل شيء في حياتي ، يا عبد القادر ، فبعد أن عزمت على الإقبال على واقع الحياة ، والاحتكاك بالنّاس ، والانصراف إلى ما تفرضه الصّحبة من انقياد لها ، إذا بالصّدفة تأخذ بتلابيبي ، وترمي بي أمام زينب ، هذه الفتاة التي تسكن قرب دار صديقي عُمْرَانْ . لقد أعجبني جمالها ، وهي المنحدرة من إحدى جمهوريّات الاتحاد السّوفْيَاتِي . جاء والدها إلى تونس بعد أن استقرّ بفرنسا . ولكنّه رأى أن يعيش في بلد إسلاميّ فكأنّ القدر رمى بها حتّى أراها فأتعلق بها. ولم يكن الأمر في الأول إلا مجرّد خطرات ، من باب اللّهو الذي استسلمت له من دون تدبير ولا تفكير. رأيتها وهي تدخل بيت صديقي عُمْرَانْ وعلمت عن أمرها الكثير من أمّ عمران وابنتيها الصّغيرتين . فقلت ولم لا تكون هذه حبيبة لي ، وهي تخرج سافرة ، والاتصال بها يسير لا يحتاج إلى واسطة ولا تخفٍّ .

فبادرتها بالكلام بالفرنسيّة ، وهي التي حذقتها في باريس ، وأصبحنا نتحدّث عن كلّ شيء حتى أمام أمّ عمران وابنتيها ، وهن لا يفهمن هذه اللّغة ، وتوهّمن أن الأمر ، لا يعدو أن يكون سؤالا عن بعض أسرار اللّغة الفرنسية وأدبها . فكنت أتفنّن في التغزّل بها ، وأسوق إليها ما حفظته من شعر كبار الشعراء الفرنسيّين وأترجم لها أرقّ أشعارنا العربيّة. وكُنْ واثقا ، يا صديقي العزيز ، أنّني لم أكن إلا لاهيا ، ملئا لفراغ حياتي ، وإذا بي أصبح بين ليلة وضحاها ، مربوطا بها ، لا أفكّر في اللّيل إلّا فيها ، بل تتراءى لي وأنا بين الحلم واليقظة بقدّها الممشوق، وبعينيها الدَّعْجَاوَيْنِ ، وأنفها الرّقيق ، وفمها الذي كنت أتمنّى ، في تلك اللّحظة ، أن أطبع عليه قبلة فيها من حرارة الشّوق ولهيب الجوى ما يطوّح بي إلى إطفائه بما كنت نصحتني به عندما هجرتني « لِلَّهْ رَقَيَّهْ » وأصبحت من أصحاب الجلْد لا الجَلَدِ ، غفر الله لك ولي . وفي النّهار عندما أمتطي « التُّرَمْفَايْ » من باردو لألتحق بعُمْرَان في السّينما أو في مكان آخر إذا بي أنزل بمحطة باب سُوَيْقَهْ ، وأشقّ سوق الجزّارين في ذلك الزحام المعروف حتى أصل إلى بطحاء الحلفاوين ولا أفطىء بنفسي إلّا وأنا أشقّ نهج الحَفِير وأنتصب أمام دار زينب . وعرفت عند ذلك أن هذا الحب تحوّل إلى هَوًى غَلّابٍ وأنّ ذلك ليس مجرد رغبة ، يتحكّم فيها الإنسان كما يشاء ، بل هي عنصر اضطراب في الحياة ، تعنف به وتدخله في متاهة لا نهاية لها ، وتزجّ به فيما لم يكن ينتظره من الأحداث والحالات المأسويّة . وكنت قبل ذلك أبكي لأمر مبهم وحلول حالة لا أعرف مأتاها ، أمّا الآن فإني أبكي من لوعة الشّوق، وأسهر من جرّائه ، وبقيت أيّاما أقنع بالنّظرة الخاطفة ، والابتسامة العابرة، حتّى عرفت كيف أختلي بها في سقيفة الدّار ، وأظفر منها بالقبلة الشّافية، والضمّة التي تطفىء شيئا من لوعة الشّوق . لم تكن هذه الجرأة لتمرّ على الحبيبين بسلام ، إذ سرعان ما علم أبوها بالأمر ، ولست أدري

كيف كان ذلك . وكلّمني عُمْرَانْ في الموضوع بشيء من اللوم ، وأعلمني بقرار والدها في منعها من الخروج من المنزل . فجنّ جنوني ونزعت عني الحياء الذي عرفته فيّ ، وطرقت باب منزل « قُولِي عَلِي » فرحّب بي ترحيبا فيه شيء من الغضب ، رغم معرفته لمكانة والدي، ولعلّه لهذا السبب ملك من نفسه ما ملك في ذلك الظرف، وأدخلني غرفة تقليدية جدرانها مغطاة بالجليز وعلى يمين الداخل ويساره مقاصر وفي الوسط « القُبُوْ » المفروشة فيه الأبناك أحسن فرش والمبثوثة في زواياه تحف لم نتعوّدها في بيوتنا .

جلست وأنا أحبس أنفاسي من هول ما أقدمت عليه ، بدون تفكير، ولا رويّة ، متحدّيا التقاليد ، بركوب رأسي في موضوع يقرأ فيه ألف حساب عندنا . وكان « قُولِي عَلِي » لا يستقر به مكان ، تارة يخرج من الغرفة ليأمر بقهوة ، وطورا ما أن يستقرّ به الجلوس حتى يندفع إلى بهو الدّار ليوصي في عنف بالكفّ عن الضجيج المنبعث من المطبخ. وقد تراءى لي بجزماته و« كَلْبَاكِهِ » كأنّه ضابط من أولائك الضبّاط الأتراك الذين نرى صورهم في الجرائد . وعندما جلس أمامي لم أر من وجهه إلّا عينين برّاقتين ، وشاربين عظيمين ، وتخيَّلْتُه وفي يده كربَاجٌ، لأن هيئته تدلّ على أنّه مستعدّ لتعنيفي . ولم أدر كيف فتحت فمي ، وبدأت أسأله عن حاله ، وهو لا يجيب إلا بكلمات مقتضبة في فرنسية متحذلقة مع هذا ، ولسان حاله يقول : قل ما جئت من أجله وانصرف. حتى تطرّقت إلى موضوع زينب ، وطلبت يدها منه. فتطلّق وجهه، ووضع « كَلْبَاكَهُ » على الْبَنْكِ وابتسم ابتسامة عريضة ، غاب لها عبوسه، وتقلّص كبر شاربيه بسحر ساحر ، وأجابني بفرنسية أشدّ تحذلقا أنّه مسرور بهذه الزّيجة . ولكنّ التّقاليد تفرض عليه وعلى عائلتي أن يسير الأمر سيره العاديّ ، وما على أهلي إلّا مخاطبته رسميّا . ولكنّه ما أن

تلفّظ بتلك الكلمات حتى صرخ بلغته القوميّة مناديا . وإذا بزوجته وابنته زينب يأتيان سريعا ، ويرحّبان بي ترحيبا كبيرا ، ومعهما القهوة العابقة النّكهة ، والمرطّبات والحلويّات الغريبة عنّي . ولا تسل عمّا أصابني من ذهول ، ولا كيف خرس لساني من الفرح ، ولا لم بارحتني تلك الجرأة التي جئت وأنا مُتَجَلْبِبٌ بها . وإذا بي أشعر بنفسي وكأنّني عار ألملم ثيابي لأستر عورتي . وكأنّ بي رغبة كبيرة تخزني وخزا وتدفعني إلى الافلات من قبضة « قُولِي عَلِي » وإطلاق ساقيَّ إلى الرّيح . هذه الأرجل التي قادتني إلى ما قيّدت نفسي به . وتذكّرت « فَلْقَة سَيِّدِي المِدِّبْ » وشعرت بقدميّ وكأنّهما تضربان بالعصا . وقلت في نفسي لم يظلمني أحد في هذه المرّة بل أنا الذي ظلمت نفسي . ولم أتخلّص من ذلك الموقف إلّا عندما دعاني صاحب البيت إلى تناول طعام العشاء في الغد مع العائلة . فاغتنمت الفرصة ، وودّعت الجميع ، وخرجت وكأنّ لي جناحين أطير بهما . ولم أتذكّر كيف جزت نهج الحفير، والحلفاوين، والجزّارين لأرتمي في التّرمفاي ، وأصل إلى غرفتي في قصر والدي بباردو ، وأختفي هناك بعد السّلام على والديّ .

لم أنم في تلك اللّيلة ، واعتبرت ما قمت به في ذلك اليوم منعرجا كبيرا في حياتي . فبقدر ما كان السّرور يغمرني لأنّني ظفرت بما كنت أتمنّاه ، بقدر ما كبر عليّ ما أقدمت عليه من دون مشورة والدي . وكنت أقول في نفسي : كيف سيكون ردّ فعله عندما يعلم بذلك ، وهو لا يعرف عن « قُولِي عَلِي » شيئا ، بل يعتبره في منظوره ، رجلا طريدا لا نسب له ولا حسب . فقرّرت أن أكتم الأمر لبضعة أيّام .

وفي الغد لبست أفخر ثيابي واخترت أحسن « بَاكِيتَةٍ » في مجموعة والدي ، وميَّلْتُ طربوشي ، وأخذت معي ما أعدّه « الْحَاج كُرُنْبَهْ » من « خَجْلاَتِ » الْفلّ والياسمين ، وكنت في الموعد . وكان العشاء

فاخرا ، قدّمت فيه والدة زينب أصنافا من الطعام ، والمرطّبات ، والحلوى التي تعوّدت إعدادها في بلدها الأصلي . وكان حديث مطوّل عن المغامرة التي دفعت بهم إلى الخروج من وطنهم ، والوصول إلى باريس ، والعيش هناك ثم الاستقرار بتونس واستطابة العيش فيها . وأخذ «قُولي» يشرح لي أنواع الطّعام التي قدّمتها لي زوجته، وقد لبست لباس أهلها بتلك الأصقاع، وظهرت آسيويّة الملامح مثل العازفات التي تصدّرت لوحة كبيرة، معلّقة في الحائط أمامنا. وهي مُنَمْنَمَة، قال «قولي عَلِي» أنّه رسمها، معتمدا على تحفة بريشة «لُونِي» تصوّر فريقا من العازفات جالسات جلسة شرقيّة ، بيد الأولى المحْتَبِيَةِ طُنْبُورٌ شبيه بالبُزُقِ أمّا الثانية المتربّعة فبيدها دُفٌّ ، والثالثة المُقْعِيَةُ فهي تنفخ في بُوقٍ ، والرابعة وكأنّها مُتَحَفِّزَة للوقوف تعزف على مِزْمار . وكلهنّ ظهرن لابسات أجمل الحليّ وفيهن وسامة ظاهرة مع ملامح آسيويّة واضحة ، وأصابع رقيقة ، كأنّها تتحرّك للعزف ، وقد وضعت كلّ منهنّ إكليلا من الأزهار أو الغار . وبدت لي زوجة « قُولِي عَلِي » بلباس قومها ، كأنّها عازفة خامسة ، زادها مرحا ، ونشاطا ، شربها لنبيذ بلادها وقد زعمت هي وزوجها أنّه غير مسكر . فلم أذق منه إلّا جرعة أحرقت حلقي ، وألهبت لساني ، ويظهر أنّ قُولِي عَلِي علِم بمكانة والدي عند البايات ، فزاد في إكرامي وبالغ في الحفاوة بي ، ولم يبد رغبة ملحّة في التعرّف إلى والدي ، خوفا ربّما من عواقب هذا التسرّع . بينما وجدت شيئا من الاحتراز لدى زوجته ، ولمست رغبة منها في مغادرة تونس ، وميلا إلى التنويه برغد العيش في باريس ، معتبرة الإقامة بيننا مرحلة لن تدوم طويلا . وفهمت بعد ذلك لماذا كانت تتبرّم من العيش بين ظهرانينا ، وحريّتها مقيّدة ، ومجال مغامراتها الغراميّة محدود .

ومن ذلك اليوم أصبحت فردا من أفراد العائلة ، أروح وأغدو بكلّ حريّة ، وألتقي بزينب في بيت أبويها ، متى شئت . وتيّقنت أن هذه

العائلة خرجت عن تقاليدها القديمة ، وتطبّعت بحياة الفرنسيين في باريس . وهي تعتبر زياراتي المتكرّرة من طبيعة الأشياء . وازددت حبّا لزينب وتقديسا لجمالها ، وخوفا عليها من كلّ ضرر يصيبها . ألا تعرف، يا عبد القادر ، أن الحبّ يفتح باب القيم على مصراعيه ، ويعطي معنى للحياة ، ليس أخطر منه إلّا الحياة نفسها . إنّي أصبحت أتذوّق معنى الحياة بملء جوانحي ، وأشعر باللذّة القصوى في مناجاة حبيبتي ، والتغزّل بها وضمّها إليّ ، وتقبيلها قبلات معسّلة . والغريب أنّني كنت أعتبرها بمثابة إلاهة ليس ليَ إلّا تقديسها ، والتمسّح بأذيالها ، والسّجود أمامها ، ولا أسمح لنفسي بأن أدنّسها بما يخطر على بال كلّ شابّ. وأقول لنفسي هذا لن يكون إلّا إذا أصبح الزّواج رسميّا ، وأسمع صرخة بين جوانبي تقول لي : ومتى يكون المحبّ محبّا وقلبه في فزجه . وتوهّمت أنّني ظفرت بالسعادة ، وحصرت نعمتي في هذا الحبّ العذريّ الذي تمنّيت دوامه إلى ما لا نهاية له . حتّى أنّني شعرت أنّ اللاّنهاية التي لا رجعة منها هي تلك التي يلقيك الحبّ في أحضانها بل الهوى المطوّح الذي هو أقدس من الجمال وهو الذي يسمو بالنّفس إلى قيم ما كانت لتستشفّها من قبل .

لم تدم تلك السعادة أكثر من أسبوع ، كنت فيه أتردّد على زينب كلّ يوم ، وأنا محمّل بالهدايا ، وبالأزهار ، وبفاخر المرطّبات والحلويّات . وأنا لا أعلم أنّ هناك من كان يقيّد حركاتي وسكناتي ، وجيئتي وذهابي ، تارة في الصّباح الباكر ، بعد السّهر والسّهاد ، وطورا في أعقاب العشايا وأوائل اللّيل . وكيف لي أن أفطن بذلك ؟ وأنا اعتبرت نفسي كأنّني مع حبيبتي وحيدا في هذا العالم . فلا زحام سوق الجزّارين، ولا لغط الحلفاوين ولا رقباء نهج الْحَفِير ، ولا أعين الجارات من وراء النوافذ ، وثقوب الأبواب باعثة للحيرة في نفسي ، أو موجّهة

لي إنذارا بأنّ هذا الذي أعيشه إنّما هو مجرّد أضغاث أحلام أو سكرة من سكرات الشّباب لا بدّ أن تعقبها مرارة الاستفاقة .

وكان اليوم السّابع هو الفاصل والمهدّم للأحلام . إذ ما أن دعاني « قُولِي عَلِي » للعشاء حتّى لبّيت الدّعوة مبتهجا . وجئت من العشيّة، واستطبت الحديث مع زينب وأمّها نادية . حتّى جاء صاحب البيت فرحا، ضاحكا ، ذاكرا لما حدث له مع رئيس المصلحة الفرنسي الذي تناول معه طعام الغداء ، وأفرط في شرب الخمر معه .

وبدأت زينب ونادية تعدّان العشاء ، مع حرص على تقديم أطعمة بلادها وحلوياتها . وأثناء ذلك بدأ الرّعد يدمدم ، والبرق يلمع . وسرعان ما أظلمت السماء قبل أن تغرب الشّمس تماما . فهبّ «قُولِي » وأنار « القِيزَانْ » فتراءت صورة العازفات وكأنهنّ يرقصن مع رقصة فتائل المصابيح ، وتخلّل ذلك إيقاعات الرّعد وقصفاته التي كانت ترتعش لها النوافذ والأبواب فتصرّ هذه صريرا ، وتطنّ تلك طنينا .

وما أن نصبت المائدة ، وتحلّق الجمع حولها حتى جادت السّماء بوابل من الأمطار كما اعتادته تونس العاصمة في فصل الخريف . ودام نزول المطر قرابة السّاعتين أصبح من المتعذّر معه أن يغامر أيّي كان فيخرج إلى الشّوارع وقد غمرتها المياه ، بل إنّ صخب الجيران الذين دفق الماء إلى بيوتهم ، كان يأتينا من حين إلى آخر . ولم أعرف كيف شربت بلهفة نبيذ أهل الدّار . وكانت نادية تحفّني في تلك اللّيلة بكلّ عناية وألحّت عليّ ألاّ أغامر، وأعود إلى باردو في هذه العتمة المحفوفة بالمخاطر . فالطريق لا بدّ أن تكون مقطوعة كالعادة . وزاد « قُولِي عَلِي » تأكيدا لذلك مبيّنا أنّ « الْوَاد » لا بدّ أنّه عمّ طريق قصر والده، وهو يعرف ذلك لأنّ المشكلة مطروحة في إدارة الأشغال العامّة وبدأ التفكير في بناء سدّ صغير ، يحوّل مياه هذا « الواد » إلى المناطق

الفلاحيّة. فاقتنعت بذلك وقلت : سأبيت عند صديقي عُمْرَان . فأجابتني نادية : كيف تقول هذا والبيت بيتكم فأنت الآن منّا وإلينا . وألحّ « عَلِي قُولِي » عليّ بأن أمضي اللّيلة عندهم وهناك مقصورة تنتظرني .

ولم يسعني إلاّ أن أستجيب لرغبة الجميع . أمّا زينب فكان الحياء غالبا عليها . فلم تنبس ببنت شفة ، لأن والدتها لم تترك لها الفرصة لتفوه ولو بكلمة واحدة . وتمّت السّهرة ، وقد سرى النّبيذ في المفاصل، وأحسست بنشوة لم أعرفها من قبل ، سقطت معها كلّ كلفة ، وأزيلت الحواجز التي كانت تفصل بيني وبين « قُولِي عَلِي » ونادية . وظهر على مضيّفي التعب ، لكثرة ما شرب من الخمر في ذلك اليوم ، وانسحب إلى غرفته بسرعة ، مشيرا بأنّ المقصورة في هذه الغرفة بالذات، وأسرع فأنار المصباح ، وخرج إلى بهو الدّار ، والمطر ينزل بغزارة ، واختفى عن الأنظار . وما لبثت زينب أن انسحبت أيضا بعد أن قبّلتها قبلة قدسيّة ، بريئة ، وتمنّيت لها من كل قلبي ليلة سعيدة ، وأحلاما لذيذة .

وبقيت مع نادية في الغرفة ، وخيّم صمت كانت لقلقة المياه في الميازيب ، وحركة مضيّفتي الحريصة على ترتيب الغرفة ، تبعثان في نفسي شيئا من الاضطراب والضّيق . حتّى عالجتني نادية قائلة :

ــ هذه غرفتك تنتظرك . هل تريد أن أسوّي لك الفراش ؟

فأجبتها : شكرا . سأقوم بذلك وحدي ولا تكلّفي نفسك أيّة مشقّة .

ولم أفطن إلا ونادية تدخل المقصورة ، وتبدأ في تسوية الفراش ، بعد أن تخفّفت من لباسها مدّعية أنّ المطر تسبّب في زيادة الحرارة . وماذا تريد أن يوحي المطر عندما يلتقي بالأرض إلا بما تبعثه هذه الأنفاس الحارّة الملهوفة من رائحة الخصب والإمناء . وفعلا شعرت بالحرارة تصعد إلى رأسي ، وقفزت إلى المقصورة وقلت :

ـــ يا سيّدتي لا تتعبي نفسك .

وأخذت أنزع من يدها اللّحاف لأسوّيه . وتلاقت أنفاسي مع أنفاسها، ولكنّها سرعان ما ضمّتني إليها ، وقبّلتني قبلة طويلة تجاوبت معها وأفقدتني صوابي . وأقول لك ، يا عزيزي عبد القادر ، إنّها أول مرّة بعد « رَقَيَّهْ » يلتقي جسدي بجسد امرأة . وكنت أعتقد أنّ اللّذة الجنسيّة لا تعدو ما تعوّدت عليه في سرّي ، وإذا بي أكتشف في تلك اللّيلة عالم المرأة ، بل عالم اللذّة القصوى . تصوّر ، يا عبد القادر ، أنّني لمّا التقت أنفاسي بأنفاسها بدأت أذوب كما ذابت في فكّي قطع حلوى الفالُوذَجِ التي صنعتها نادية من العسل ، والنّشا ، والزّعفران ، واللّوز المقشور، كما وصفته لي أثناء تناول الطعام بل تحوّلت قطع الفالُوذج بسرعة ، من فمي إلى أسفلي ، وانحلّت بما زيد فيها من عُسَيْلَةٍ وأشياء أخرى ، حتّى خفت على ذاك الذي كثيرا ما لا ينهض إلاّ بالجلد المبرّح . ولكنّ النّبيذ ، وكلّ ما قدّم لي من طعام ، كان كفيلا بإحياء الموتى وهي رميم . وكانت المرأة أيضا صناع اليد والفم واللّسان تقول للشّيء قم فيقوم ، فهي تحذق الفالوذج وأشياء أخرى . وأصبحت عفريتا من عفاريت الجنّ ، كلّ ما فيّ وفيها خرج من قمقمه صارخا بأعلى صوته، متناغما مع أصوات القطط في الشّارع وهي التي لم يهدأ لها بال ، ولا غريزة في هذه الأمطار الغزيرة . فكانت تغمر كلّ صوت في الغرفة بألوان من المواء المرنّم الموقّع ، المتفاوت في طول النّفس وفي موقعه من سلّم الأنغام . إذ كانت تتجمّع تحت ظلّة شبّاك المقصورة المطلّ على النّهج ، وتنصب أركسترا ، تعزف في تساوق عجيب مع ما يحدث داخل المقصورة . لقد تغيّر فيّ كلّ شيء . وكانت نادية تقول بين الفينة والأخرى : إنّني أريدك لنفسي ، ودع ابنتي زينب فهي مازالت صغيرة .

وفهمت أنّها لا تريدني زوجا لابنتها . فغضبت ، ودفعتها عن نفسي، ونهضت لألبس ثيابي ، وأخرج في تلك الليلة اللّيلاء . ولكنّها تعلّقت

بعنقي ، وأغرتني من جديد ، تفنّنا في التّقبيل وصنوف أخرى من الصّنعة الملائمة للمقام ، حتّى مضى هزيع من اللّيل ، وغلبني النّوم ، وانسحبت هي كالطّيف الذي يلمّ إلماما وينصرف .

ولم أعرف منذ أن طلّقت الطّفولة ، أو طلّقتني أنّي نمت نوما أعمق، ولا أهدأ من تلك النّومة . ولكنّني لم أتذكّر أنّني استيقظت في فزع مثلما كان ذلك في صباح تلك الليلة . لقد طرق سمعي من الشبّاك صهيل هو سهيل وَرْدٍ أحد حِصَانَيْ « الكَرُّوسَهْ » . هو صهيله الذي يطلقه عندما يراني أو يحسّ بمجيئي ففزعت فزعا كبيرا، ونهضت أبحث عن ثيابي ، فلبستها عن عجل ، وفي أثناء ذلك كان طرق عطيم يزلزل باب المنزل في ذاك الصباح الباكر . وأصلحت من شأني ما أمكن إصلاحه، وفتّشت عن طربوشي فلم أجده لا في الغرفة ، ولا في المقصورة حتّى لمحت في أضغاث الملاحف شيئا أحمر ، فكان طربوشي قد تحوّل إلى عجينة فالوذج . سوّيته بقدر الإمكان ، وخرجت من المقصورة فصادفت نادية مقبلة عليّ وكأنها إحدى عازفات اللّوحة ، شبحا باهتا، قد أصابه الإعياء ، يخرج من اللّوحة ، وقالت بلهجة فيها تحريف :

ــ حَاجْ كُرُنْبَهْ يريدك ويريد زوجي .

قلت في نفسي لقد شمّني « ورْد » ولم يصهل صهيله ذاك عفوا . وخرجت من باب الدّار في هيئة من قضى حاجته في ثيابه ووجدت « الْحَاجْ كُرُنْبَهْ » يشير إليّ في فزع ويقول :

ــ سيّدي الفَرِيكْ مصطفى بدار بِنْ كَامِلَهْ يطلبك . إنّه غاضب غضبا لم أره منه أبدا .

دخلت « الْقُبُوْ » في دار « عَلِي بِنْ كَامِلَهْ » فرأيت والدي جالسا وهو في غضب شديد وأمامه صاحب المنزل بعمامته العظيمة يخاطب « قُولِي عَلِي » قائلا :

ــ قل لي يا سِي قُولِي وإلّا آشْ سَمَّاكْ رَبِّي . هَذِي الْجِيرَهْ وإلّا بَلاَشْ. أكرمتك ، ووفّرت عليك ، وإذا بدارك تصبح ماخورا . من اليوم فصاعدا لا أريد أن أراك لا أنت ولا عائلتك . اخرج من « حَوْمَتِنَا » واسْكُنْ أحياء الإِفْرَنْجِ .

وفهم « قُولِي عَلِي » ما قاله « بِنْ كَامِلَهْ » وأجابه في شيء من الرّطانة المفهومة : أنّ « عَادِلْ » خطيب ابنته زينب . آواه البارحة لأنّه كان من المتعذّر عليه أن يرجع إلى باردو مع كثرة الأمطار . وعند ذلك التفت والدي نحوي وقال :

ــ صَحِّيتْ . تخطب بناتِ مَن لا نعرف لا حسبهم ولا نسبهم وإلى أيّة فئة ينتمون وبلا مشورتي .

فاندفعت قائلا :

ــ سِي قُولِي عَلِي مُسلم وابنته مسلمة .

عند ذلك نهض والدي وسلّم بحرارة على « عَلِي بِنْ كَامِلَهْ » مودّعا وشاكرا له غيرته ، وفضله . وحدج قُولِي عَلِي بنظرات فيها الاحتقار، ولوّح في اتّجاهه بِبَاكِيتَتِهِ تلويحا فيه أكثر من معنى وقال :

ــ هَيَّا يَا سِي الشَّبَاب .

فلم يكن منّي إلّا أن رافقته ، وصعدت « الْكَرُّوسَهْ » وجلست حذوه، ولم يقل لي أثناء الطّريق إلّا هذه العبارات :

ـــ انظُر إلى هيئتك وشمّ رائحتك فكأنّك قد بتّ مع الكلاب . ثم إنّك تترك ليلى ابنة خالك ابنة الحَسَبِ والنّسَب ...

ولم أدرِ كيف لم أتركه يتمّ كلامه وقلت له :

ـــ إنّها بَكُّوشَة (بَكْمَاءُ) .

ـــ وأنت أعمى » .

ومع نهاية الرّسالة دخل الشّيخ علي على عبد اللّطيف وهو منهمك في القراءة وقال له :

ـــ هيّا لقد حضر فطور الصّباح . إنّ قصّة عادل أخذت بعقلك . هي أعقدُ ممّا تتصوّر .

ـــ 10 ـــ

ولمّا جلس عبد اللّطيف مع جدّه الشّيخ علي ، لتناول فطور الصّباح، سأله عن مصير قُولِي عَلِي فأعلمه أنّ الفريك مصطفى أمكن له الحصول على أمر بطرد الرّجل ، هو وعائلته من تونس وترحيلهم في ظرف أربع وعشرين ساعة . فلم يعثر عادل على أثر لهم ولا عرف إلى أيّة وجهة اتّجهوا ، فكأنهم تَبَخَّرُوا بين يوم وليلة .

مرض عادل ولزم الفراش أيّاما ، ثمّ خرج إلى أصحابه ، وانضمّ إليهم، وشاركهم في لهوهم ومرحهم ، وحتّى مجونهم . وتغيّرت حياته ، وأصبح شخصا آخر ، لا يبعد كثيرا ، عمّا كان يلصقه به الطّاهر من نعوتٍ ، وما ينسب إليه ، من أعمال ماجنة ، وطقوس جنسيّة فاحشة. ولكنّ الحقيقة تدعوني إلى الاعتراف بأنّ عادل ، كان ضحيّة بيئته . ولقد حضرت في تلك الأيّام جدالا بينه وبين صديقه عبد القادر بعد خروجنا من مشاهدة فيلم بقاعة بِنْ كَامَلَهْ . جلسنا في المقهى وبدأ الحديث ، وإذا بعادل ينتفض في كرسيّه ويقول لصديقه :

ــ وأيّة مشكلة تريد أن أحدّثك عنها ، بعد هذا الذي صببته في أذنك صبّا ، وأرهقت به سمعك حتّى لمحت في وجهك علامات التذمّر . وقد عهدتك قبلاً شغوفا بمثل هذه الأحاديث ، ولوعا بها ، ولطالما شجّعتني ، ورغبت منّي أن أزيد في التّحليل والتّدقيق . فما بالك اليوم بعد هذا الغياب الطويل ، تظهر الإعراض عن حديثي ، وتحاول ، بكل جهد ، إبدال الموضوع؟ أغاضك هذا التحليل الدّقيق الذي أتوخّاه عندما أصف كلّ خلجة من خلجات نفسي أم ساءتك منّي هذه البراعة التي اكتسبتها في تصوير عواطفي وأحاسيسي ؟ ألم يحيّرك حديث حبّي والآلام التي تجرّعتها من جرّائه ، واللّيالي التي سهرتها أتلمّس في ظلامها قبسا أستضيء به ، لعلّه يوصلني إلى حبيبتي ؟ ألا تعطف يا صديقي، على هذه النّفس المسكينة المتألّمة كما كنت تعطف عليها ؟ ألا تقدّر الأحوال التي مررت بها حقّ قدرها ؟

إنّ هذه النّفس ، يا صديقي ، هذه التي تسكن بين جوانحي ، قد شغلتني عن كلّ مشكلة في عالمنا هذا . إنّها ، وحدها ، عالم ليس له حدّ . وإنّ الذي يجيش بها ، سيشغلني عن كلّ شيء في حياتي وسيكون رائدي ، دائما ، حلّ لغزها ومعرفة كنهها . وإذا كان الأنا مكروها، كما يقال، فليس هو أنايَ بل أنا الآخرين. وإذا نصحونا بأنْ نحبّ لغيرنا ما نحبّه لأنفسنا ، فكيف يكون مكروها إذن . وأنت تعرف أنّك من نفسي أعلق ، وبمكونها ألصق .

وأجابه عبد القادر من دون أن يظهر عليه أيّ تأثّر يذكر :

ــ لطالما حدّثتني عن حبّك ، ولطالما وصفت لي الأزمات التي مرّت بها نفسك . ولمست فيها شيئا من الدقّة ، والتحليل الصّادق . وقدّرت حينذاك عواطفك وأحاسيسك حقّ قدرها . وإنّي على يقين ، من أنّك تودّ أن تحياها من جديد ، وأنّك تحاول جهدك أن تتلبّس بها ، وتوهمني

أنّك صادق فيما تقولُ وفيما تحسّ . ولكن ، يا صديقي ، إلى متى أنت متمـاد في هذا الأسلوب من العيش . إلى متى أنت تجهد نفسك لإعادة نفس الرّواية (وتبسّم ولسان حاله يقول : هذه الرّواية التي أصبحت مهزلة) إنّك تعيش ماضيك الذي لم تتحمّل منه عشر معشار ما وصفت. فقاطعه قائلا :

ــ هكذا .

ــ نعم . إنّ ماضيك أضعف من أن يتحمّل مثل هذه الأثقال التي تنوء تحتها الأجيال والأجيال . إنّ ماضيك ليهيب بك أن تتركه نائما في زاوية من نفسك حتى يتكدّس عليه الغبار ، فتنساه وتكفّ عن صقله، لأنّه كاد يفقد بل فقد لمعانه .

ثب يا صديقي إلى نفسـك ، وتطلّع إلى أشياء أحقّ وأجدر بالبحث والتّدقيق من هذا الذي تفعل . ذلك أنّ مشاغل الحياة ، ومشاكلها ، أصبحت لا تدع للإنسان فرصة للرّاحة ، والتلذّذ بالأحلام العريضة . إنّها تدفع الإنسان الحيَّ إلى العمل ، إلى الفعل ، إلى النظر السّديد الذي يتبعه النّفع .

ــ أتراني حين أحدّثك عن نفسي وعن آلامها غافلا عن مشاكل الحياة . كلاّ وألف كلاّ . إنّني حين أصف لك عواطفي وأحاسيسي، أعني دائما هذه العواطف وهذه الأحاسيس التي يشعر بها كل كائن حيّ. فأنا أهتمّ بأسمى ما في الإنسان . وأيّة مشكلة تتطلّب جهدا أكبر مثل هذه . وأيّ شغل أعظم من هذا الذي أكرّس من أجله حياتي : إنسانٌ توفّرت له كلّ الظّروف لينجح ، ويسعد في الحياة ، ولكنّه يخفق الإخفاق كلّه . لا لبلادة في الطّبع (وتطلّقت أسارير وجه عبد القادر في سخريّة واضحة ، لتعلّق قائلة : أنت تقول ولكنّها لم تترجم الحركة

بالقول) ولقلّة إدراك بالواقع ، بل لأنّ هذا المجتمع مجهض لكلّ ما فيه، يسحقك ، يحثّك على أن ترضى بالدّون ، يطلق عليك الفلتاء ليلقوا عليك الحجارة ، يوجّههم، يكتريهم ليحبطوك ، يؤلّب عليك أصدقاءك، يعزلك عنهم . وإنّي ، رغم كلّ هذا ، لآسف كلّ الأسف لهذا التبدّل الغريب الذي طرأ على تفكيرك ، وجعلك لا تهتمّ بأمر نفسك ، مثلما كنت في الماضي .

ـــ إنّ الغريب هو هذه النّظرة التي بقيت متشبّثا بها ، بعدما ، رأت عينك ما رأت ، وسمعت أذنك ما سمعت في هذه الفترة القليلة من الزمن . ولو كنت تعيش حقّا في زماننا هذا لانطبعت نفسك بغير هذا الذي تريد أن تقنعني بصحّته . أنت تعيش على الهامش ، كما يقولون، وحقيق بي أن أسألك ، أوّلا وقبل كل شيء ، عن تاريخ اليوم . وإنّ الذي يؤسفني أن نجد بيننا شابّا مثلك يركن إلى الكسل ولكنه يخفيه بحذق ومهارة . إنّك يا صديقي بهذه النّظرة إلى الحياة ، ترضي في نفسك ، نزعة قويّة ، طغت عليك أكثر من الحبّ الذي حدّثتني عنه، وهذه النّزعة أساسها الكسل . إنّه كامن في نفسك ، يسيّرها كيف شاء، وأنت غافل ، مستسلم له ، متلذّذ بما يحيكه لك من أحابيل .

وأجابه عادل ، والدّهشة تملأ جوانبه :

ـــ لا ، يا صديقي ، إنّه ليس الكسل ، ولكنّي أشعر بدافع قويّ ، يوجّهني إلى هذه الطريق التي بها يمكن لي أن أستكنه هذا الوجود ، وأصل إلى أسباب شقاوة الإنسان . وإن الذي أسمعه منك يحزّ في نفسي، ويجعلني أومن بأنّني خلقت لأتحمّل مثل هذا وأكثر .

ولست أدري لماذا عنف عبد القادر بعادل ، وكيف اطمأنّت نفسه إلى جرح صديق عزيز عليه . ولكنّ الذي أعرفه هو أنّ الرّسائل انقطعت

بينهما . فهذا بتونس ، والآخر ببنزرت . وبقيا هكذا لا يسأل الواحد منهما عن الآخر زمانا طويلا . ولكنّ عادل تغيّر كثيرا ، لأنّه ، كما قال لي امتحن في الصّداقة وفي الحبّ ، وأضاعهما الاثنين ، في ضربة واحدة . وماذا بقي له غير الانغماس في الواقع ، وأيّ واقع ، واقع العاصمة آنذاك ينسى به ألم الجرح العميق الذي خلّفه فقدان صديقه وحبيبته ؟ وكان يردّد في خلواته دائما : لست أدري هل حافظت على نفسي كاملة ؟ بل إنّني أحسّ بأنّها مثلومة . ثلمتان لا إمكان لجبرهما، تركا النّفس تدور في فلك مهتزّ .

ونهض الشّيخ علي لقضاء بعض الشّؤون ، وترك عبد اللّطيف مشغولا بمجريات الأحداث بين الصّديقين .

— 11 —

دخل عبد اللّطيف المكتبة ، متلهّفا ، لقراءة آخر مراسلة بين الصديقين ، وظفر بالرّسالة والردّ عليها وأمعن في قراءة ما كتب عبد القادر . جاء فيها :

« بنزرت في ...

إلى الأخ الوحيد الذي حسب أنّي نسيته ،

لا أدري ، أيّها الأخ الكريم ، كيف أتقدّم إليك الآن ، أبالاستغفار على نسيانك ، ردهة من الزّمن ، أم بالتأوّه لديك ، ممّا أصابني في كلّ هذه المدّة من أحداث تحزّ القلوب كما يُفْرَضُ العود وتَمْعسُ النّفوس كما يُعصر العنب . أيّها الصّديق الصّدوق ، هل لك أن تحيطني بما دار في قلبك من أوهام . وهل لك أن تبوح لي بكلّ ما فكّرته فيّ. لا أخطىء إذا أنا ظننت أنّك شديد السّخط عليّ ، يا أعدل النّاس في أمْرِ مَنْ مثلي أنا تاهوا في صحراء هذا الوجود القاحل ، وأصبحوا

مشدوهين بسرابه الخلّب . إنّ المرء خلق ليجري وراء تلك التألّقات الوامضة السّابحة في الظلام الحالك الذي يحفّ به من كل مكان ، ظانّا أنّه بغروره الممقوت واصل يوما إليها ، تمشّيا مع قوله عليه السّلام : « لو تعلّقت همّة ابن آدم بما وراء العرش لناله » . غير أنّ ذلك لم ينطبق، للأسف عليّ ، أنا ، في هذه الحياة الصّاخبة التي أحياها . آه ! يا عادل، لو قلت لك إنّني في تعب دائم من هذه الحياة لما صدقتني . ذلك أنّني كما تعلم ، خلقتْ حسّاسا ، رقيق الشّعور بينما تتطلّب الحياة قلبا صخريّا، لا تزعزع أركانه خيانة محبوب أو خسارة شيء مطلوب . وصدّقني إن قلت لك أنّني أعيش بدون إحساس بأنّي أعيش : الحزن عميق في قلبي . أحرقني الوجد بجوانحه النّارية ، وزعزع أركان قلبي. وسخر الدّهر من وجودي ، وابتسم القدر لخفقان فؤادي ، وهزىء الأحباب من تشاؤمي . أليست هذه حياة الخزي والعار ، لا يرضى بها قلب بشريّ حسّاس ؟

إنّني لسبت أطلب من الحياة أن تملأ سعادة ، وبهجة ، لأنّني آنذاك أطلب في الماء جذوة نار ، ولكنّ الذي ألتمس منها هو أن تخلط مع أتراحها أفراحا ، ولو قليلة ، تمحو ألوان الشّقاء الذي أكابده .

ما هذا الهراء ، يا نفسي ، ولمن تكتبه . وكيف يطلب منّي الخلّان أن أكتب لهم في هذه الظروف الحرجة التي تعبرها سفينة حياتي . هل أشكو لهم همومي وآلامي ، وصدمات الوجود ، وظلم الأقدار ، أم أتصنّع لهم المجاملة ، والمحبّة وأميل إلى هذر لا ينبع من أعماق قلبي؟ لست أدري ما يدور بخلدهم ، ولكنّني طافح ، مجنون ، مشدود أمام ضربات القدر وسخريّته .

كاتبني ، يا عادل العزيز ، وقل لي إنّك تصفح عن زلّتي ، إن كنت صافحا ، وسوف نتلاقى يوما بالحاضرة ، ونتحدّث طويلا ، لأنّني

حرمت بجفَائك· أعظم صديق ، يسعف في البأساء ، ويفرّج الكرب ويسعد في السرّاء . فيا لك من قلب رحيم حليم ، ويا لرسائلك التي هي بين يديّ الآن ، فشذاها يذكّرني بتلك الأيّام ، بل بتلك السّنين التي قضيناها معا ننعم بصداقة لا مثيل لها . هي ذكريات عذبة عقبتها المرارة، إذ ضرب الدّهر بيننا ، يا عادل ، وكشّر عن أنيابه ، وأوقع بين صديقين حميمين. ولكن هل لي أن تسعى معي على قهره ، فنسترجع صداقتنا الحالمة ، ونلتقي بعد مرّ الأيّام ومُرّها ؟ والأيّام لا تفرّق بين الأصدقاء، لأنّ الصّداقة روح ، والرّوح لا تقدر الأيّام على أن تنال منها شيئا . فإلى اللّقاء أيّها الصديق العزيز .   أخوك عبد القادر ».



ويظهر أنّ عادل ما أن قرأ هذه الرسالة حتى كتب هذه الجمل النّارية، بدون مقدّمة ، ولا مدخل .

« صديقي عبد القادر ،

لماذا بعد هذا الصّمت الطويل ، أبيت إلّا أن تبكيني ؟ لماذا أدميت قلبي ، وأجريت دموعي ؟ ألذنب عندك جنيته ، فأبيت إلّا أن تؤلمني بما أنا أكثر حساسيّة له ؟

ما هذه الآهة السّخينة التي لفحتني بها ، فأرعدت جسمي ، وزعزعت كياني ؟ ما هذه النفثة الحارّة التي أذابت دموعي الجامدة فأهرقتها ؟

آهٍ ! لقد مزّقت قلبي ، وعصرت فؤادي ، وأفضت دموعي ، وأقلقت بالي . أهذا جزائي الوحيد عندك ؟

لو رأيتني ، وأنا أبكي ، وأبكي ، وأبكي عندما قرأت : « الحزن عميق في قلبي . أحرقني الوجد بجوانحه النّارية ، وزعزع أركان قلبي، وسخر الدّهر من وجودي ، وابتسم القدر لخفقان فؤادي ، وهزىء الأحباب من تشاؤمي » لقلت هو مجنون .

لا إن مأساة الحياة ، متجسّمة كلّها ، في هذه الجمل . ومن لا يبكي أمام مآسي الحياة فلا قلب له ، ومن لا قلب له ، فالبشريّة بريئة منه .

آهٍ ! إنّك ساحر ، عرفت كيف تطفىء غضبي بدموعي ، وتغمر لومي بلوعتي ، وتهزم حدّتي بنشيجي . لقد سخطت وسخطت ويحقّ لي أن أسخط. ولقد مزّقت أوراقي، ونثرتها للرياح تفعل بها ما تشاء، اشتفاء من نفسي ، ونقمة عليك أنت يا صديقي . لقد عرفتك وعرفتني ،

وصادقتك ، فبنينا صداقتنا على دعائم متينة ، لا تزعزعها الرّياح العاتية، ولا تأكل منها الدّهور . بنيناها على العواطف الصّادقة وعلى كل ما لا يتطرّقه الفناء . بنيناها ، ونحن لا نطمع إلّا بما تطمع الرّوح من الرّوح. ثم عصفت الأقدار ، لا سامحها الله ، وضربت صداقتنا بسهم أدماها، فتألّمت ، وتألّمت حتى تطرّقها الشحوب ثم الهزال . وها هي اليوم باهتة ، جامدة ، تنتظر هزّة الحياة ، لتجري في عروقها الجافّة ، دماء نشوة الوجود .

إنّني أقف أمام قلبك الممزّق ، يا أخي ، لأسكب عليه دموعي ، وأكفّنه بآلامي ، لأنّ قلبي لا يقلّ عنه حظّا ، ولا قسمة .

إنّني أرثي لهذا الفؤاد الذي هصره الوجد ، وأترعه أسى وحزنا ، لأنّ فؤادي قد أبتلي بنفس البليّة .

إنّك برسالتك هذه ، قد أدميت جراحي التي قد ظننت أنّها التأمت، وأثرت كوامن أحزاني التي قبرتها في زاوية من قلبي ، بعيدة عن نور الحياة ، قصيّة عن دمدمة الأحزان . ذلك أنّي أمتّ شعوري ، ودفنت عواطفي لأصارع هذا الكون ، لا لأصرعه ، بل لأشتغل بمصارعته عن حقائقي وحقائقك ، وعن آلامي وآلامك .

ماذا أصابك حتّى أقلقتني في قبري هذا ، وأزعجتني إزعاجا تحرّكت بسببه أشلائي ؟

ماذا دهاك حتى قصدت القبور ، وأشعلت فيها النّار .

آهٍ ! هي اللّوعة تنزل وتصعد في صدري ، وتسعى لتمزيق فؤادي. هي الدّمعة تترقرق ساخنة ، بعد تسكاب غزير لتدمي مآقِيَّ .

لا أيّتها الأحزان ، أدخلي إلى قبرك ، وابتعدي عن نور الحياة ، إنّه يؤذيك ، وتلاشي أمام صخب العواطف إنّها تكاد تغمرك .

آهٍ ! يا صديقي ، هكذا أنت أضرمت نارا في فؤادي برسالتك ، وها أنا الآن أهمد كما تهمد النّار ، وأغفر لك كلّ شيء لأنّ رسالتك التي بثثتنيها أحزانك وأودعتنيها آلامك ، تدلّ على أنّك صديقي وكفى » .

أخوك عادل الذي يعزّك

وألحّت على عبد اللّطيف شواغل كثيرة ، ولمّا عاد إلى ملفّات جدّه، وجد ردّا لعبد القادر على رسالة عادل الأخيرة . وعبثا حاول أن يعثر على ردّ لعادل أو رسالة لعبد القادر ضائعة فانكبّ على الرّسالة الأخيرة فإذا هي تقول :

« بنزرت في ...

إلى أخي عادل الفريد ،

جاءت رسالتك ، فكانت بردا وسلاما على عواطفي المضطرمة ، وقال بعضهم النّار دواء للنّار . نعم أنت جازيت دموعي المنهمرة ، بدموعك المتساقطة ، أنت عبست أمام وجهي المقطّب . أنت شاركتني آلامي وأشجاني ، وأحببت أن تشاركني في ضرّائي ، فيا لك من صديق صدُوق .

كم من مرّة قلت في نفسي هل أرقص فرحا برسالتك التي تبيّن لي منها ، أنّ هناك صديقا يفكّر مثلما أفكّر في عوادي هذا الدّهر الهصور أم أندب حظّي لأنّ هناك صديقا شوّشت عليه راحته ، وذكّرته بآلامه المقبورة في عالم النّسيان . لعمري لست أدري .

هل تنظر إليّ بعين التّسامح والمغفرة يا عادل ؟ هل رأيت ما يمكن لرسائلي أن تنطوي عليه ؟ هل سمعت من خلال تلك السّطور تأوّهات وزفرات . هل تشخّصت عبد القادر بوجهه الضّاحك ، العابس أو العابر إن شئت ، في ذلك الدّيجور الموحش . لعمري لست أدري .

أنت نقمت عليّ يا عادل وأضرمت نار غضبك نحوي اضراما ، وحسبتني رميت بصداقتك في عالم النّسيان . ليس لي يا أخي إلاّ أن أوافقك على موقفك نحوي ، ولكن هل عرفت موقفي نحوك . لعمري لست أدري ...

يا عادل ، لماذا تظنّ بي سوءا لمراسلتك اليوم ، بعد الصّمت العميق؟ هل حسبت أنّ صداقتنا لا بدّ لها أن تنمحي ، أم حسبت أنّ حديثي عن آلامي ، ربّما يطفىء اضطرام غضبك ؟ كلاّ لعمر الحقّ وألف كلاّ وإنّما هي عواطف أصبحت اليوم همّي ، فلا تلمني إن نشرتها أمامك في رسالتي وإلاّ لِمَ خلقت الصّداقة يا ترى ؟

نسيت من الحياة كثيرا ، يا أخي ، نسيت الحبّ ، ونسيت الثّقة، ونسيت الرّفق ونسيت الحنان . كلّ ذلك لا لذنب اقترفته بل لأنّي خلقت مشؤوما على نفسي والنّاس يمقتون المشؤومين المتشائمين .

أخي ما أردت من رسالتك استعفاء من غضبك . لا والله وما أردت إثارة همومك وأشجانك ، لأنّي ما أعرف منها إلاّ القليل النّادر ، وهل لي أن أتقدّم إليك اليوم طالبا أن تغفر زلّتي وتسامحني على ما صدر منّي ؟

غير أني لا أنسى أنّ صداقتنا لا يمكن لها أن تتزعزع لمثل هذه الطوارىء التّافهة . وإنّي لأقدّر قلبا ، مرّت به عواصف مثلي فهو أكثر حساسيّة ، وتفهّما لقلبي .

أيّها القلب المكلوم ، كن دواء لقلبي المكلوم. أيّتها الرّوح المعذّبة كوني ترياقا لروحي المعذّبة ، لأنّنا أصبحنا في دهر باتت فيه النار أصلا للماء والظّلام أسّا للنور . اِنقلبت الحقائق يا عادل ، فأصبح الظّالم مظلوما، والمفكّر غبيّا أبله ، والغبيّ فلتة من فلتات الدّهر . وعلى المرء

أن يتلوّن بألوان الطّقس والزّمان ، وأن يماثل الحرباء في تغيّرها ، وألّا يطلب أيّ تصويب لأنّ الحياة أصبحت صمّاء لا تعي أنّاتنا وتذمّراتنا .

احسب كلامي هذا هذيان محموم ، أو هذر مجنون ، أو كلام ساخط على هذا الكون الظالم . وإنّما هي لفحات من جمر القيظ ربّما تخفّف من قلقي شيئا ما .

هناك جملة واحدة قرأتها ، وأعدت قراءتها مرارا ، ولو أمكن لي أن أكتبها بماء الذّهب لفعلت — ووالله لست بمبالغ — هي قولك : « إنّني حين أرثيك أرثي نفسي ، وحين أبكيك أبكيها » . هذه الجملة أثارت فيّ معنى ومعنى : لقد أصبح كلانا يحسّ بنفس المصاب وهذا ما يبعث فيّ الفرح وأيّ فرح . وهل هنا مجال للفرح ؟ ما أغرب نفس الإنسان يفرح للرّثاء وللبكاء . ذلك أنّ كلّ من حدّثته عن مصابي إلّا وضحك سخريّة منّي قائلا : إنّها أمراض الحبّ إنّها آهات اللّوعة ، إنّها أوهام فكر شاذّ ، لا يفتأ ، أن يرجع إلى الصّواب بمضي الزّمان ومرّ السنين . وأنت ، أنت ، يا عادلي ، عرفت موضع الدّاء منّي ، فوجدت نفسك الموقف عينه ، فرثيتني لأنّك تفطّنت إلى أنّ المصاب جلل يدعو للبكاء والنّحيب . فيا لك من صديق ، ويا لك من روح تنضح حنانا، وحبّا ، وعطفا . ثمّ إنّك أصبحت تحسّ بإحساسي ، فما أحزنني أحزنك وما أفرحني — وهيهات أنا من الفرح والبهجة ... ! — أفرحك . وما هذا لعمر الحقّ إلّا المثل الأعلى في معنى الصّداقة الخالصة » .

من وحيد، بعيد، منسيّ مهجور، متشائم، أخوك رغم الزّمان

عبد القادر

بَاب
سَيَّارة «حَبْسٍ جَدِيد»



— 1 —

إلتفّت العائلة ، في الليلة الموالية ، بالشّيخ علي ، لتستمع إلى ما حدث لعادل بعد يوم 9 أفريل 1938 ، وألحّت عليه ألّا يمضي في الحديث عن ماضيه قبل ذلك . فقال :

ــ ألم أقل لكم أنّني بعد أن أويت إلى فراشي ، وغرقت في النّوم تاركا « عَادِلْ » وحده في الغرفة ، إذا بي أسمع طرقات خفيفة، وصوتا يريد أن يكون رقيقا يناديني . ففزعت ، ونهضت إلى الباب أفتحه فـإذا بي أجد « عادِلْ » يتلوّى من مغص ألمّ به . فأسعفته سريعا بماء البسباس، فصحّ بسرعة ، ولكنّه لم يطلب النّوم ، وأجبرني على أن أبقى معه ليحدّثني عمّا حدث له من غرائب .

وهنا قاطع الجمع الملتفّ حول الشيخ علي وقالوا له :

ــ لا . نحن نريد أن تحدّثنا عن أخبار عادل بعد 9 أفريل .

فتردّد الشّيخ علي، وكأنّه يريد أن يحتجّ على الجماعة لأنّهم أرادوا فرض نسق قصصيّ لا يرضاه هو . ولكنّ عبد اللّطيف لم يفوّت الفرصة لمداعبة جدّه فقال :

ــ ألا تعرفون أن جدّنا العزيز قد سجّل القصّة على نسق معيّن ، وأنتم تريدون منه أن يبدل شريطا بشريط ، وأن يقوم بتركيب جديد، يحتاج إلى وقت ، وجهد ، وعناء . فقاطعه الشّيخ قائلا :

ــ ألا تستحي ، يا عبد اللّطيف ، وأنت أعرف بأنّ أخبار عادل لم أعلم بها في تسلسلها التّاريخي ، بل تعرّفت إليها في فترات متقطّعة ، وهي التي تفرض عليّ أن أساوقها . ومع هذا فإنّي سأقيم لكم الحجّة بأن جدّكم الشّيخ لا يزال ذهنه وقّادا ، قادرا على التأقلم ، والتصرّف في الأمور كما يعنّ له .

ثمّ نظرِ إلى الجمع نظرة فيها شيء من السّهوم وانطلق يقول :

ــ بقي عَادِلْ يقصّ عليّ قصّته الطويلة حتى انبلج الفجر . فأويت إلى فراشي من جديد ، وقلت في نفسي : في هذه المرّة ، واليوم كان الأحد ــ يوم العطلة الأسبوعية ــ سأكون من صفّ نؤومي الضّحى، وسأتمتّع بنومة طويلة ، خاصّة أنّني أعرف أن عَادِلْ لن يقوم باكرا، وهو الذي تعوّد منذ زمان على سهر اللّيل ، وقضاء جزء من النّهار في النّوم .

ولكن ما أن غرقت من جديد في هجود ظننته طويلا ــ والنّوم هو المكان الوحيد الذي فيه يظفر الإنسان بالأمن والطّمأنينة ، شريطة أن تطول إقامته في رحابه إلى حين ، بدون مشارفة الموت طبعا ــ حتّى أفقت على طرقات قويّة ، فقفزت من فراشي وفتحت باب الدّار ، وإذا بعسكريّ يبلغني أمرا عامّا ، يقضي بإلتحاق كلّ الضبّاط إلى مواقع عملهم كالعادة .

فقلت في نفسي : لقد تبيّن الصّبح لذي عينين ، والدّجاجة التي تقاقي في المساء لا تبيض في الصّباح . وعرّجت على الغرفة التي آوى إليها عادل ، فوجدته ، مستيقظا على أهبة الخروج . فقال لي :

ــ ألا تعلم أنّ الهلال الجديد ، ينفتح على اليسار ، والقديم نحو اليمين . أمّا هلالي أنا ، فينفتح دائما نحو اليمين . هو قديم أصابه البلى وفلك بروجه مقلوب ، يعجز أمهر المنجّمين عن معرفة طالعه .

ــ ما هذا الهراء ؟ لعلّ السّهر ، وقلّة النّوم أثّرا فيك . لماذا لا تنام هنا ، فما الذي ينتظرك في هذا اليوم .

ــ نعم سأنام إلى الظّهر في بيتنا ، وسأرقب الهلال في هذه اللّيلة إن طلع . وسأطلعك عمّا ستسفر عنه اللّيلة القادمة في ظلّ هلالها .

كانت السّماء مغشّاة بالسّحب في اللّيلة الفارطة ، فلا قمر ، ولا هلال، قديما كان أو جديدا ، مثلي أنا تماما ، غُفْلاً ، لأن العصر هو عصر هيّانْ بن بَيَّان ، عصر فلان وفلتان . ذلك أنّ مجتمع هذا العصر ، لا علامات له ، لا هو من الدّين ، ولا هو خارج عنه ، هو مقام على حركيّة لا هِوادة فيها ، ولكنّها مشدودة إلى الفراغ . هو مجتمع ، يهدهده السّير نحو تكافؤ الفرص ، والمساواة في ظروف العيش . ولكنّ ذلك هراء في هراء . هل تقدر ، يا عليّ ، على تصنيفي من بين طبائع من منّ الله عليهم بكمال الإنسانيّة ؟ هل نفسي غضبيّة كما يقول القدامى، فيكون همّي منافسة الأكفاء ، ومغالبة الأقران ، ومكاثرة العشيرة، وأنا كما تعلم بعيد عن هؤلاء بعد السّماء عن الأرض . وهل نفسي ملكيّة ــ وأنا حقيق بذلك لو لم يكن طالعي نحسا ــ فيكون همّي اليقين في العلوم ، وإدراك الحقائق ، والنّظر في العواقب وأنا كما تعرفني تائه في صحراء الوجود . وهل نفسي بهيميّة ، فيكون همّي طلب الرّاحة ، والانهماك في الشّهوة ، وأنا رغم حياة الفراغ واللّهو لا أعرف لراحة النّفس بابا ، ولا شبّاكا ، بل هو الضّجر ، والضّيق ، والتردّد ، وتمتمة الحياة . هذا عادل أمامك ، يا عليّ ، كان ينتظر من الدّنيا أن تكون ذلولا ، ومن الدّهر أن يحنيَ ظهره ، ويستكين ، وإذا بعادل أخيك، ونجيِّك ، يخفق في كلّ شيء ، وتقف الدّنيا سدّا دون أمانيه وأحلامه، ويعامله الدّهر كما يعامل العبيد . أين أنا من أحلام الصّبا ، وغرور الشّباب وطموحه . كلّ ذلك ذهب تذروه رياح الواقع العاتية ، وتبدّده ضغوط اليوميّ من الأحداث ، والسّخيف المبتذل من العيش . حتّى هموم الصّبا وأحزانه التي كنت أضيق بها ، هي الآن تتراءى لي في مثل الورود يناعة ، وكأزهار اللَّيمون نصاعة . ومع هذا، يظنّ النّاس أنّني من الذين ولعوا بالتّرفيه ، وانقادوا إلى مذهب اللذّة ، وكرّسوا وقتهم

للموضة والتّفاهة ، بينما أنا كاره لكلّ هذا ، ولكنّني غير معرض عنه لأنّني أردت أن أكون فردا من مجتمع هيّان بِنْ بَيَّان وفلان الفَلْتَانِي .
نعم حرّضني والدي على أن أكون واقعيّا ، وأن أحتكّ بالنّاس ، وأكون من أيّها النّاس ، تمهيدا لعصر النَسْنَاس . وحُقَّ لوالدي أن يقول في نفسه : لم أختر ابني بل هو الذي اختارني .

وبقيت أنظر إليه ، محاولا فهم مقاصده ، ولمّا لم أظفر بشيء ، وأنا في عجلة من أمري قلت له : لماذا تعقّد الأمور ؟ إذا أردت سنلتقي اللّيلة القادمة في بيتي .

سكت عادل ، وخرج مودّعا .

— 2 —

أسرعت إلى القشلة القريبة من البيت ، لأستفسر عن سبب هذه التّعبئة العامّة . فعلمت أنّه ألقيَ القبض في تلك اللّيلة ، بل في فجر العاشر من أفريل على الزّعيم الحبيب بورقيبة ، وعلى عدد كبير من الوطنيين ، وأنّ موجة من القمع هبّت على البلاد بأكملها ، وأن عسكر الباي منعوا من الخروج من ثكناتهم . وقلت في نفسي وأنا أذرع مجاز « الطُّبْجِيَّةْ »، جيئة وذهابا ، منتظرا وسيلة نقل للالتحاق بوزارة الحرب :

— نعم هكذا . هذا عسكر الباي ، عوض أن يخرج للدّفاع عن أبناء الوطن الذين تسحقهم زبانيّة الاستعمار ، من شرطة ، وجند ، يمنع من الظّهور ، فكأنّ الأمر لا يهمّه . أين هو الباي ؟ الباي ! ماذا تُخَرِّفُ إنّه هو الذي أمضى الأوامر لسحق أبناء الوطن ، زعماء ، ومناضلين ، بل إنّه حوّل سلطته إلى القائد العسكري الفرنسي ... ونحن نحني الظّهور في هذا المكان الذي كان قلعة من القلاع ، يدافع عن الوطن ويدفع المغير . وتجلب إليه أعظم المدافع وأشدّها قذفا . ولماذا أمضينا

الأشهر نتمرّن على المدافع ... إي نعم ، ولكن لنلتحق ، فيما بعد ، بالواجهة للدّفاع عن فرنسا ، كما فعل أصحابي الذين أجبروا مثلي في سنوات 1914ـ1918 على الدّخول في الجنديّة وأكلهم مدفع الألمان، وأنا ، لولا لطف الله ، وعنادي ، في ذلك الوقت ، لكان نصيبي ما حاق ، بمحمّد ابْنِ خَالتي ، والأزهر جارنا وسالم ابن عمّتي و... و... ولكن ما الفائدة ، وأنا أنظر إلى المستعمر ، كيف يذلّنا ، ويسحقنا. ولا قدرة لنا عليه . فكأنّنا أطفال أو نساء أو مجانين ... ضعفاء في مجتمع الجبروت ، والظّلم ، والحكم المطلق والاستعباد .

وفي ذلك الوقت جاءني عسكريّ ، ونبّهني إلى خروج سيّارة إلى وزارة الحرب ، فامتطيتها وأعلمني السّائق إلى أنّه تأخّر ، لأنّه لا بدّ من أخذ الإذن بمهمّة من السّلطة العسكريّة الفرنسيّة . فزدت تألّما ، وتأوّهت ، فنظر إليّ السّائق في تعجّب وسكتّ .

كان ذلك اليوم يوما مشهودا ، إذ خيّم على الأحياء جوّ من القمع والرّهبة لا يطاق . ولمّا وصلت إلى وزارة الحرب ، واتّجهت نحو مكتبي أعلمني الشّاوش أنّ كلّ رؤساء المصالح الفرنسيين موجودون هناك : رئيس الموظّفين ، ونائبه ، والكولونيل ، والقُبْطَان ونائبه ، وبعض الرّاقنين والرّاقنات .

لم أفُهْ بكلمة لأنّني أعرف أنّ هذا الشّاوش الّذي يدعى بِرَقْمِه فقط : 27 وباللّغة الفرنسية « فَنْتَسَاتْ » هو من أكبر عيون الكولونيل ، يدخل إلى مكتب رئيسه بدون استئذان ، وفي أيّ وقت ، ويعلمه بكلّ الأمور، غثّها وسمينها ، هامّها وسفسافها ، جدّيها وهزليّها . ولقد تفنّن في الوشاية حتى تكيّف جسمه عليها ، فاتّخذ لنفسه عنقا طويلا، وظهرا مقوّسا ، وقدمين مرنتين في الالتصاق للتحيّة المستمرة . أمّا الظّهر المقوّس مع استواء اليدين فللتحيّة . فيرتبط فنّ الوشاية و« الْقَوَادَهْ » مع

الانضباط الذي أصبح خنوعا ومذلّة . فَفَنْتَسَاتْ عندما يمشي في معابر الوزارة ، عبارة عن ثعبان منتضب ، يحتكّ بالجدران ، والأبواب وشقوقها ، وثقب أقفالها ، والنّوافذ وما يتراءى وراءها . ناهيك أن عينيه جحظتا لفرط ما عوّدها على رؤية ما لا تطيق ، وأنّ أذنيه تَفَلْطَحَتَا ، وتدلّتا ، وعظمتا ، والتصقتا بصدغيه من جرّاء إلصاقهما الدّائم بالجدران، وشقوق الأبواب والنّوافذ . وهكذا امتدّ عنقه بصورة فظيعة ، وتقوّس نحو الأمام ، حتّى أنّه يعمد دائما إلى وضع كفّه الغليظة فوقه ، ويُربِّتُ عليه بقوّة ، محدثا فرقعات متتالية ، كأنّها صفعات صارخًا في وجه العساكر الذين تحت إمرته ، أو معرّضا بمن يريد من الموظّفين تحدّيه : « أنَا فَنْتَسَاتْ » أفعل لكم كَيْتَ وَكَيْتَ . ويفوه بالكلام النّابي الذي يقشعرّ له البدن . وكنت تسمع منه — وهو يتحرّك ، جيئة وذهابا ، في المعبر أمام مكتب الكولونيل فرقعات أخرى ناتجة عن التحيّة العسكريّة باصطكاك قدمي حذائه إذ كان يتقنها إتقانا موحشا ، ويسرف فيها ، ولا تنقصه في الواقع إلاّ طَقْطَقَةُ الْكَرْبَاجِ في يده .

وكان يقف بعد خروج الموظّفين أمام باب الوزارة ، وفي حماها، ليشاكس النّساء المارّات من هناك الملتحفات وغير الملتحفات ، ويمطرهنّ بعبارات مأخوذة من الشّعر الشّعبي الماجن . ثمّ يصيح وكأنّه يصفّق بجناحين كالدّيك : أنَا هُنَا دائما هنا . يقولها بفرنسيّة باريسيّة تقلب الرّاء غينا : « جُو سُوِي تُوجُوغْ لاَ » .

وليس « فَنْتَسَاتْ « نسيج وحده ، بل هو ينتسب إلى فصيلة حرص الاستعمار على إيجادها وتفنّن في صنع فروع لها تتفاوت في المستوى. ولكنّ « فنتسات » هو في أسفل سلّم هذه الفصيلة ، عافانا الله وعافاكم من شرّها . وهي تزدهر في الأنظمة الفاسدة والكُلْيَانِيّة .

دخلت مكتبي ، وحاولت أن أعدّ التّقرير اليوميّ الذي أقدّمه للكُولُونيل لامضائه بعد مشاورة نائبه ، وهو التّقرير الذي يرسل إلى قشلة باردو ، وفيه تسجّل الأوامر اليوميّة ، والرّخص ، والعقوبات . ولكنّ اليوم كأن أحدا ، وهو يوم عطلة ، وليس هناك أيّ عمل من واجبي أن أقوم به . فبقيت أرتّب بعض الأوراق متحاشيا مقابلة الفرنسيّين ، لأنّهم كانوا على أعصابهم ، وهم ميّالون في مثل هذه الظروف إلى معرفة ما يدور بخلد كلّ تونسيّ . وبينما كانت الهواجس تَتَنَاوَشُنِي إذا بفَنْتَسَاتْ يأتي ويشعرني بأنّ الكولونيل يطلبني . فتحيّرت لأنّ الكولونيل لا يرى التّقرير إلّا قبل ساعة من الخروج ، وفهمت أنّ هناك أمرا طارئا ، وخطيرا استوجب مناداتي قبل الوقت .

دخلت من الباب الخلفي للمكتب ، وحيّيت الكولونيل فوجدته منكبّا على قراءة بعض الأوراق . وبقيت محيّيا ، جامدا في مكاني ، فلم يرفع رأسه ، ولا أشار لي بالاستراحة كالعادة والجلوس محرّم بالطّبع . ومضى وقت حسبته دهرا حتى قال بدون أن ينظر إليّ :

ــ صباح الخير .

فتقدّمت خطوات وأجبته بالمثل وقال :

ــ أين التّقرير ؟

ــ اليوم يوم عطلة .

ــ إيه ... ماذا يقال في الشارع ؟

ــ إنّني لم أخرج إلى الشّارع . ولقد رجعت البارحة ، متأخّرا كما تعلم . واليوم جئت رأسا من منزلي .

ـــ وعادل بات عندك البارحة ؟

ـــ كان مريضا ، ولم أرد أن تنزعج عائلته ممّا حصل له .

ـــ معقول ... (وابتسم) هي الصداقة الحقيقيّة ... تعرفون ، أنتم العرب ، الصّداقة ... أنا لا أعرف إلّا الوشاة ... لِي كَوَّادْ (ونطق كلمة قَوّادْ باللّهجة الفَرْنَكُو ـــ عربية) هم كثيرون ... أمّا العصاة فهم قلّة ، وهم الآن في السّجن أو تحت التّراب .

كنت أسمع ذلك الكلام ، وأنا أتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعني . وبدأ العرق يتصبّب عليّ ، والحنق يتملّكني ، والعبرة تخنقني ، وقلت ولماذا لا أردّ عليه ... بل أخنقه ... ولكن عند ذلك تراءى لي الأولاد أمامي، وقلت هؤلاء من يعولهم ... نعم هو الجبن لا محالة ... وقلت في نفسي : الشّجاعة ليست في التهوّر ، وردّ الفعل العشوائي . إنّما يجب أن يكون ردّ الفعل مدروسا ، وفيه تحقيق للهدف تماما مثل الخطّة العسكريّة ، خدعة ، ودهاء ، وإعداد العدّة ، واختيار ساعة الهجوم . تقولون لي إنه تبرير للجبن قد يكون ذلك . ولكنّ جدّكم ليس جبانا، وما قمت به فيما بعد ، ولو بعد سنوات ، يدلّ على أن الأمر غير ما يدور بخلد بعضكم (وابتسم) . ولكنّني في هذه المرّة قلت له بكل هدوء وبدون أن يظن أيّ ظنّ بي :

ـــ العرب مثل الفرنسيين فيهم الطيّب وفيهم الخبيث ، الصّالح والطالح ، والنبيل والوضيع .

ـــ تعجبني فيك شهامتك واهتمامك بعملك من دون تدخّل في شؤون الغير ... إذن يمكنك أن تنصرف فلست في حاجة إليك .

وحيّيته ، وخرجت وأنا أمسح عرق الغلبة ، المتصبّب عليّ ، متّجها، نحو مكتبي لأرتّب أوراقي ، وأنزل إلى الشّارع وأزور كالعادة مقهى

خَالْ عَلِي . مقهى تحت السّور . وهناك أتلقّى أخبار العاصمة ، والبلد، وألتقي بالأصدقاء .

ولكنّني ما أن رتّبت أوراقي ، وهممت بالخروج ، حتّى جاءني فَنْتَسَاتْ محيّيا في عجل ، وأعلمني أن الكولونيل يطلبني حالاّ . فصرفته، مشيرا إليه بأنّي رائح إليه ، وتأنّيت في الخروج من المكتب ، ضاربا أخماسي في أسداسي ، مستعرضا كلّ الاحتمالات مستحضرا ضروب الأجوبة لأشتات من الأسئلة التي من المتوقّع أن يوجّهها إليّ الكولونيل. فإن كان الأمر يتعلّق بعادل فلا بدّ من الدّفاع عنه بشتّى الوسائل ، أمّا إذا تحوّل الخطر إليّ فإن أحسن دفاع هو التّظاهر بالجهل ، والبساطة، وعدم تقدير الأمور حقّ قدرها و« التَّبَهْنِيسْ » و« التَّرَهْدِينْ » والتّحامق، والتّباله ، وهي أسلحة جرّبت فصحّت مع هؤلاء القوم المحتقرين للعرب الجبابرة ؛ المتسلّطين علينا ، وليس لي وأنا الضّعيف في حوزتهم أن أواجههم وحدي بالحقيقة بَلَهَ العداء . والطّائر الحرّ عندما يقع في الفخّ لا يتخبّط لأنّ ذلك يزيد في إحكام القبضة عليه ، ويضاف إلى عذابه عذاب آخر . ولمّا رأيت من الشبّاك — وهو بمثابة المرصد عندي — أنّ فنتسات متّجه مرّة أخرى إليّ خرجت من المكتب ببطء ، ودلفت إلى المعبر الطّويل ، ونزلت الدّرجات القليلة بأناة ، ثمّ مشيت بدون أن أسرع الخطى . وبدأت عند ذلك الهواجس ، تملأ نفسي ، والتطيّر يحوم عليّ خاصّة عندما التقيت في نصف المسافة مع نذير الشّؤم « فَنْتَسَاتْ » وهو يكثّر من تعبيس سحنته ليشعرني بأنّ الكولونيل قد عيل صبره . فنهرته نهر الكلاب ، ملوّحا بيدي في اتّجاهه ، وقد تزمزمت بي شفتاي ، تهيّؤا لزجره بالكلام أيضا ، فذاب من أمامي كالملح في لمح البصر . وفي طريقي لاحظت أنّ نائب الرئيس الفرنسي ، ورئيس قسم الموظّفين ، كانا يتحدّثان أمام مكتب أحدهما ، فانسحبا قبل أن

أصل إليهما متحاشيين لقائي . ففهمت أنّهما على علمٍ بما ينتظرني، ولا بدّ أنّهما كانا في مشاورة مع الكولونيل . ولما وصلت إلى باب مكتب الكولونيل ، وجدت فَنْتَسَاتْ يهمّ بفتحه ، فقلت له :

ــ هل رئيس قسم الموظفين والقبطان كانا عند الكولونيل ؟

فأجابني بنعم . وفتح الباب فوجدت الكولونيل واقفا وراء مكتبه ، يهمّ بالخروج وعاجلني قائلا :

ــ ما بالك أبطأت في المجيء ، وأنا على أهبة الخروج للالتقاء بالقائد الأعلى في أمر هام . البلاد في غليان أليس كذلك ؟ والدّستوريون قلبوها رأسا على قلب ... وعادل أليس هو من الدّستوريين . قل لي بدون أن تنحاز إلى صفّه ، بقطع النّظر عن الصّداقة التي تجمع بينكما ؟

فقلت له على الفور :

ــ نعم مُونْ كُولُونيل ، أنا وأنت وعادل كلّنا دستوريّون .

وقفز قفزة إلى الوراء كأنّه ملسوع ، ثم قال متضاحكا :

ــ كيف ؟ هذا غريب .

ــ معناه ، يا مون كولونيل ، أنّ الدّستوري وطنّي يحبّ بلاده ، كما أنّك تحبّ بلادك . ألا تحبّ فرنسا حبّا عظيما .

ــ بالطبع .

ــ إذن نحن نحبّ بلادنا . وأنتم علّمتمونا ذلك ، في المدرسة بما لقّنتمونا من أناشيد .

ــ لنكن جدّيين . اِعلم أنّني عيّنتك في مهمّة . انصرف إلى منزلك

الآن . وفي السّاعة العاشرة يأتيك كوميسار إلى منزلك فاذهب معه في سيّارته ، وهو سيفسّر لك المهمّة .»

ولم يتمّ كلامه حتّى خرج من المكتب ، وتركني واقفا لا أحير جوابا. خرجت من المكتب ، ووقفت أمام باب الوزارة . وبقيت هناك أنظر في ذلك الصّباح المشؤوم إلى المارّة ، وهم قلّة قليلة ، وأحاول أن أفهم سرّ هذه المهمّة . ولكنّني تيقّنت في آخر الأمر أنّ المسألة لا بدّ أن يكون فيها سجن . ولهذا لا بدّ من أن أتهيّأ لذلك ، وليس الأمر إلاّ وشاية ، لها علاقة بالأحداث التي هزّت البلاد .

والتفتّ على حين غفلة ، فوجدت « فَنْتَسَاتْ » يرقبني من بعيد ، ثمّ لمّا رآني ، وقد تنبّهت إلى ما يصنع ، قفز في اتّجاهي ، وحيّاني، صافّا قدمَيْ حذائه كالعادة ، وقائلا :

ـــ مُونْ أَجُودَانْ صَافَا (لا بأس بالفرنسيّة) أنا تحت الأوامر . هل من خدمة .

ـــ لا بأس إذا حدث شيء فأنا في المنزل .

ولم أجبه إجابة قاسيّة ، أو أوجّه له لكمة على سبيل المداعبة مثل العادة حتّى لا أشعره بأيّ شيء ، وأمكّنه من فرصة بثّ الإشاعات ، وإفساد الأجواء وهي متعفّنة .

— 3 —

نزلت الدّرج ببطء متفرّسا في الجالسين أمام المقهى ، لعلّني أظفر بمن أعرفه ، فيحدّثني عمّا جدّ في البلاد . ولكنّني لم أجد واحدا من المتردّدين في العادة على المقهى . فاتّجهت نحو باب سُوَيْقَهْ فلمحت أغلب الدّكاكين مغلقة . والنّاس في شغل من أمرهم ، يسرعون الخطى،

ويتحاشون التجمّع الممنوع منعا باتّا في ذلك الظرف الذي أعلنت فيه حالة الحصار ، وأصبح الأمر بيد السّلطة العسكرية ولما وصلت إلى مقهى تَحْتَ السّور ، لمحت من بعيد « خَالْ عَلِي » بقامته الطويلة ، واقفا كالعادة وراء « الْكُنْتُوَارْ » مطرقا برأسه ، وليس بالمقهى إلّا عدد قليل من الزّبائن . فأسرع « خَالْ عَلِي » نحوي وسأل عن حالي في خضمّ هذه الأحداث . فقلت له بكل هدوء :

ــ اسمع يا علي . في هذه اللّيلة سيحدث أمر ربّما يؤدّي بي إلى السّجن . تَلْفِنْ لِي غدا صباحا فإن لم تجدني، وعلمت أنّه أصابني مكروه فاتّصل بوالد زوجتي ، حتى يتولّى أمر العائلة . وأعلمته بجليّة الأمر مع التّكأيد على كتمانه . ومن هناك ركبت التُّرمْفَايْ ، ووصلت إلى منزلي ، وكتمت أمري . واغتنمت وجودي في تلك العشيّة للعناية بأولادي . فاصطحبتهم إلى حديقة« بَارْدُو » وأمضينا وقتا في المتحف وأنا أنظر إليهم وأقول في نفسي : هل سيكتب لهم أن يعرفوا اليتم كما عرفته . وأنست بهم في تلك العشيّة ، وتناولنا معا طعام العشاء وكأنّه طعام الوداع . ولكنّي كتمت الأمر بصورة جعلت زوجتي ووالدتي والأولاد ، لا يشعرون بأنّ اللّيلة ستكون حبلى بالأحداث . وفي السّاعة العاشرة طرق الباب . وعند ذلك أعلمتهم أنّني خارج في مهمّة ، وربّما لا يكون رجوعي إلا مع طلوع الصباح . وودّعت الجميع وخرجت . فلمحت سيّارة واقفة . وبسرعة نزل من الخلف رجل ، حيّاني ، وقدّم نفسه قائلا :

ــ الكُومِيسَارْ بِيَارْ ...

ولم ينتظر ردّي بل أشار لي بالرّكوب حذوه . فسألته عن المهمّة فقال :

ــ سأطلعك على التّفاصيل فيما بعد .

وانطلقت السيّارة والكوميسار صامت ، لا ينطق بكلمة . وكانت فرصة أتيحت لي لأتملّى أشجار الطّريق ، أشجار التّوت الوارفة التي يقال إنّ خير الدّين هو الذي أمر بزرعها . هذه الأشجار هي كخير الدين عظيمة ، وارفة ، تشعر بالجلال والرهبة في تلك الظّلمة المضاءة بفوانيس السيّارة ولكنّه لا يعبأ بثمارها الحلوة ، فهي تتناثر في الطريق ، ويدوسها كلّ من هبّ ودبّ من المارّة والحيوان . كذا كلّ عظيم ، في هذه البلاد ، ثمار أعماله لا تعرف الإكتراث والاعتراف من النّاس . فحتّى إذا ذكر ، فمن باب عطف أصدقائه عليه ، أو اعتراف بعض الذين لا تأثير لهم على الرّأي العام الذي يقوده في الغالب أنصاف الأمّيين والمتعلّمين الذين اِزْوَرُّوا عن كل ثقافة ، وكرّسوا جهودهم للكسب فقط، ولحبك الدّسائس والمؤامرات للإطاحة بكلّ منافس ، وتأليب النّاس عليه ، والشماتة به . نعم . الشّماتَةُ هذه الكلمة التي كم قال لي الكُولُونيل أنّها غير موجودة في القاموس الفرنسي ، ناهيك أنّه نادى في مكتبه الموظّف التّونسي المترجم بالوزارة ، وهو من أصحاب ديبلوم الصّادقية ، ممّن يعتدّ بنفسه في الترجمة ، ويُعتدّ به ، واعترف له بأنّه لا توجد كلمة مطابقة بالضّبط في الفرنسية . وكان ذلك انتصارا ، شعر به الكُولُونيل ، وأضافه لانتصارهم في « بَوَاتِي » واعتبرتُه هزيمة أحسست بها في داخل كياني . ودلّل مرّة أخرى على ما جمعه العرب من عيوب لا توجد عند الشّعوب الأخرى . وعاودت النّظر إلى شجر التّوت وقلت في نفسي : الشّجرة التي تحمل ثمارا ، لا ترمى بالحجارة ، كما يقال، ولكنّها في تونس عرضة لحجارة الفلتاء ، ومن ورائهم مما ذكرت ولم أذكر . وتذكرت أيضا أبا القاسم الشّابي والطّاهر الحداد ، وهؤلاء الزّعماء الذين زُجّ بهم في السّجن ، وسينساهم النّاس ، وكما يقال في تونس « بِهِيمْ وَقِدِمْ قَرْعَهْ » . هل يتغيّر النّاس في بلدنا وتتغيّر أخلاق نخبتهم في الاتّجاه المحمود ، ويكونون في مستوى مبدعيهم ،

وعباقرتهم ، متجاوبين مع حضارتهم وثقافتهم . ولكن كيف ؟ ومتى؟ وللحقيقة فإنّي شعرت في ذلك الوقت ، وأنا مقبل على محنة ، بذرّة من العظمة وقلت في نفسي : ولماذا لا أضحّي كغيري ، وأطرح عنّي الأنانيّة ، والانخذال والجبن . ثمّ يتراءى في ذهني الأولاد ، وأقول لو لم أتزوّج ، لكنت جرّبت مدى ما لي من إمكانات بطوليّة .

والتفت الشّيخ علي إلى الجمع الملتفّ حوله وقال لهم :

ـ أمّا أنتم فكنتم تكونون في حيّز العدم .

وكأنّهم أنتشلوا من حلم فلم يسعهم إلّا الضّحك . وواصل الشّيخ علي حديثه وقال :

ـ ووصلنا إلى « بَابْ سَعْدُونْ » فلم تتّجه السيّارة لا إلى طريق « التُّرْبَخَانَهْ » ولا إلى الشّارع المؤدّي إلى « بَابْ سَوِيقَهْ » بل سلكت الطريق المفضي إلى « باب سيدي عبد السلام » ثمّ إذا بها تيمّم شطر « العَوِينَهْ » . وعند ذلك قلت في نفسي : « العَوِينَهْ » فيها الثّكنة ، وفيها المطار ، ولا شك أنّ الوجهة ستكون المنطقة العسكريّة بالجنوب. وغريبة هي النّفس البشريّة ، فقد وضعت نفسي بسرعة في مصافّ الزّعماء . إيّاكم أيّها الأولاد من الغرور . وليست المهمّة إلّا خديعة من الكولونيل الذي كان لا يحتقرني فحسب عندما يناديني ، هو وأعضاده الفرنسيّون ، للتّفكّه ، والتندّر بل يكنّ لي العداء المكين إذ صحيح أنّني لا أتحرّج في كثير من المرات فأسلخه سلخا ، وأسلخ معه نظام الحماية الاستعماري بطريقتي في التّحامق وإظهار البراءة ، والعفويّة ، والتفنّن في ضروب الإغراب ، بلغة فرنسية رديئة أبالغ أحيانا في تشويهها مع أنّي، كما تعلمون ، لست من المحلّقين في أجوائها . وثقوا أن ليس هناك

وضع أشدّ حرجا ، وأثقل على النّفس من أن يكون المرء في احتراس دائم من صحبة عدوّ ، قدّر له أن يجمع بينهما ضرب من الألفة المفروضة. وأقول في نفسي : وها هو وجد الفرصة لينتقم منّي . ثم يرجع لي شَاهِد العَقْلِ ، وأكفّ عن وضع نفسي فوق قدرها ، وأتّجه إليها ساخرا : ومَن أنت حتّى يتوخّى الكولونيل معك الخدعة . أليس في قدرته أن يأذن بسجنك بدون مواربة ، ولا مخادعة . فممّن سيخاف أو يتحرّج ، وما هي الجهة التي ستردّ الفعل وتجعله يتضايق . ولم أفكّر في ذلك الوقت في عادل ، طالما أنّني مشغول بمصير العائلة أكثر من مصيري . وندمت في ذلك الوقت على الزّواج ، رغم أنّني تزوّجت كبيرا ، وظننت أنّني ضمنت مستقبل الأولاد، وخرجتُ من منطقة الخطر، وكان حرصي كبيرا على ألّا أجني عليهم كما جنى عليّ والدي المسكين الذي تركني أتخبّط في مشاكل لا طاقة لي بها .

ولكن لمّا وصلنا « الْعَوِينَهْ » أمعنت السيّارة في السير نحو المرسى، فقلت في نفسي : إنّ الأمر يتعلّق إذن بالبايات . ولكن أيّة ورطة هذه، وفي هذه الظروف بالذّات التي يضطهد فيها نظام الحماية الوطنيّين ، والوطنيّين فحسب ؟ وفي تلك اللّحظة ، وصلنا المرسى ، وتوقّفت السيارة أمام كُومِيسَارِيّةِ المكان وكان الباب مغلقا . نزل الكوميسار ، ورجاني أن أبقى في السيّارة ، وتقدّم من الباب وطرقه طرقات خفيفة، فانفتح ودخل هناك ثمّ رجع بعد لحظات ، ودعاني إلى النّزول من السيارة ومرافقته داخل الكوميساريّة وتقدّمني ، فعرفت أنّ الأمر لا يعنيني ، ولو كان غير ذلك لدفعني أمامه . دخلت الكوميساريّة فوجدتها ، مكتظّة بالشرطة ، بالزيّ وبدون زيّ ، تونسيّين وفرنسيّين . واتّجهنا رأسا إلى مكتب كوميسار قسم المرسى فقدّمني إليه ، وحيّاني بأدب ، ثم خاطب مرافقي قائلا :

ـــ الآن تمّت مهمّتك ، وبإمكانك أن تنصرف .

ثم التفت إليّ وقال :

ـــ أمكث هنا ، وسأوضّح لك الأمر .

وأثناء غيابه ، عطشت عطشا شديدا ، ولصق لساني بلهاتي ، ونشف الرّيق . والعطش ليس معه حياء . فخرجت من المكتب ، وطلبت من شرطيّ شربة ماء : فجاءني بشربيّة ، فنهلت منها ، كأنّني ذاك الصّادي الذي شقّ الصّحراء طولا وعرضا . وقلت له ما الأمر . قال : نحن منذ السّاعة الثّامنة هنا ولا نعرف لماذا . وفي ذلك الحين جاء الكوميسار، ونشر أمامه رسما وقال :

ـــ أنت معيّن من الباي ، في هذه المهمّة ، وصورتها أنّ بايا صغيرا، فتح بيته للقمار ، وأمّه عِلْيَةُ القَوم من فرنسيين ، وتونسيّين ، يهودا ومسلمين . ويظهر أنّ نساءهم شَكَوْا ذلك للباي ، فقرّر وضع حدّ لهذا الأمر . ولكنّ المهمّة ليست سهلة ، كما يتبادر للذّهن إذ ممنوع عليّ، وعلى أيّ شرطيّ دخول بيت من بيوت البايات إلّا بإذن من الباي أوّلا، وعن طريق ممثّل شخصيّ له ثانيا . وفي صورة الحال فأنت هو الذي يجب أن تدخل الأول لبيت هذا الباي ، ولغرفة القمار أيضا . ولكنّ الصّعوبة هو أن هذا الباي ملاكم معروف بعُنْجُهِيَّتِهِ ، كسّر وجوه العديد من الشّرطة ، ولم يتورّع منذ أشهر من أن يشبع كوميسارا ضربا وتهريسا، ممّا أفقده عينا ، ولم ينل الجاني من العقاب إلّا بضعة أيام في سجن مذهّبة بباردو ، وادّعى أنّه دافع عن نفسه ، وتعرّض للإهانة، وهو الباي الذي على فرنسا حمايته ، حسب بنود معاهدة باردو . ومهما كان الأمر فالقانون ليس من جانبنا إن فشلنا في مهمّتنا ولهذا فالضّربة الأولى موجّهة إليك ، وليس في وسعك أن تردّ الفعل أمّا الثّانية فهي

من نصيبي ، وممنوع عليّ أن أستعمل السلاح . وثق أنّ هذا الباي قادر على قتلي وقتلك ثم إتّهامنا بالاعتداء عليه ، وانتهاك حرمة بيته إذا نحن لم نتمكّن من القبض على المقامرين في حالة تلبّس بجريمتهم .

وعند ذلك تنفّست الصّعداء ، وقلت في نفسي الآن أصبح الأمر هيّنا، وسأعرف كيف أتصرّف مع هذا النّوع من البايات .

ولما دقّت السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل عيّن الكوميسار أربعة من الشّرطة مسلّحين بالبنادق ، يمشون وراءنا ، وستّة آخرين شاهرين المسدّسات ، يقتفون أثر الأربعة ، ومهمّتهم هي اقتحام بيت الباي الصّغير ، أمّا العدد الباقي من الشرطة ، فهم مكلّفون بتطويق القصر ، ومنع الداخل والخارج .

وعند ذلك قاطعه أحد أحفاده ، وقال :

ـــ لقد ذكّرتني ، يا جدّي العزيز ، بدون كِيخُوطَة . فلماذا هذه الاحتياطات كلّها ، وهذا الباي ليس له حرس في إمكانه أن يواجه البوليس .

ـــ لا إن تلك الظّروف صعبة ، والبلاد على بركان. ولهذا الباي صداقات مع الوطنيّين . وكانت الشّرطة تخشى من تسرّب الخبر من قصر الباي ، فيكون ذريعة للوطنيّين لبثّ الشّغب ، وتقريب البايات من الشّعب وتكون فرنسا في هذه الحال مخلّة بتعهّداتها ، وتواجه عند ذلك الوطنيّين والبايات معا . وعلى كلّ لم يكن القصر بعيدا عن الكوميساريّة فمشينا في الطريق ، ولا نأمة فيه ، نظرا إلى حالة الطّواري . ولكن ما أن اقتربنا من القصر حتّى سمعنا صفير القطار الآتي من العاصمة . فأشار الكوميسار للشّرطة بالاختفاء تحت القنطرة وقال لي : هذا آخر قطار وهو يحمل بعض المقامرين ، وهم من عِلْيَةِ القَوْم ، ولهم رخص

للتجوّل ليلا . وانتظرنا قليلا ، وإذا بثلاثة أنفار يظهرون في ذلك اللّيل البهيم ويدخلون القصر . فاقتفينا أثرهم في رفق وقال لي الكوميسار :

ــ عندما نطرق الباب سيظنّ الحارس أنّنا من المقامرين . أمر جيّد. فالحظّ معنا مُونْ أجُودَانْ .

وكان الأمر كما ذكر . وإذا بيهُودِي ، يفتح لنا الباب ، وكلّف بذلك لأنّه يعرف المقامرين واحدا واحدا . فصوّب الكوميسار نحوه المسدّس، وتلقّفه أعوان الشّرطة الآخرون ، وبقينا هناك لحظات حتّى تبيّن الكوميسار من الرّسم الذي بجيبه ، موقع غرفة القمار . وقال لي : الآن سأفتح الباب وأدفعك أمامي . ولم ألبث أن وجدت نفسي في قاعة واسعة، في وسطها طاولة كبيرة ، والكوميسار من ورائي يصرخ ومعه الشّرطة :

ــ بُولِيس . اِرْفَعُوا أيديكم . لا تتحرّكوا من أمكنتكم .

وقفز شرطيّ فوق الطاولة ، ليمنع أيّا كان من مسّ ما فوقها . وعند ذلك رأيت الباي الصّغير يتقدّم نحوي ، متبخترا كأنّه أسد متهيّىء للإجهاز على فريسته ، وفي فمه علكة يلوكها بِتقزّز ويقول :

ــ كيف تتجاسر على الدّخول إلى محلّي من غير إذن .

ــ إنّي مأذون من الباي .

ــ أرني الإذن .

ــ هو شفاهيّ . ولكن أنت باي مبجّل مكرّم لا تطال . وماذا سينالك من مكروه . لا شيء . فاترك الكوميسار وجماعته يتعرّفون إلى أسماء هذا الجمع وينتهي كلّ شيء . فممّ خوفك وأنت معروف بإقدامك ؟

وكان الكوميسار من ورائي يقول لي بكلّ لهفة :

ــ ما الأمر . وأنا لا أجيبه ، حتّى رأيت الباي الصّغير ينظر إليّ نظرة فيها شيء من العطف ويقول :

ــ هذا الهذر لا يؤثّر فيّ ولا يزعزعني . أنا لست ممّن يحرّكني الكلام الفارغ . غير أنّي أسمع عنك الخير الكثير ، وأعرف أنّك متّزن ولست بصاحب شرّ . وأغلب الظنّ أنّ الذي دفعك إلى هنا لا يريد بك خيرا . واعلم أنّه لو دخل ضابط آخر بهذه الصّورة ، لكسّرت له وجهه مثل غيره من الأوباش ، وبعثت به على الأقلّ إلى المستشفى . والآن افعلوا ما بدا لكم .

وانتحى الباي الصّغير ناحية . وعند ذلك ترجمت للكوميسار ما جرى فسرّ سرورا عظيما وقال :

ــ أشكركم شكرا جزيلا . لولا تصرّفكم اللّبق لحلّت بنا كارثة هذه الليلة .

وعند ذلك نظرت إلى مَنْ في الغرفة من المقامرين ، وهم رافعون أيديهم ، فلمحت من بينهم عَادِلْ حَاسِرَ الرّأس يتصبّب منه العرق . كما تبيّنت عدّة شخصيّات معروفة منهم معتمد العدليّة ، وهو فرنسيّ في رتبة وزير ، وسمعته يقول بلغته :

ــ هكذا الحياة حلو ومرّ . إنّها النّهاية . وكلام آخر لم أتبيّنه . كما رأيت ممثّلة يهوديّة اسمها سارّة قدّمها لي عادل في بعض المناسبات وله بها علاقة قويّة . وقلت في نفسي : لم أعرف طيلة حياتي ، ومع كثرة اطّلاعي على كلّ الأوساط في العاصمة أن اجتمع الفرنسيّون واليهود والمسلمون في وئام إلاّ حول طاولة القمار أو في معمعة اللذّة

والمجون . وحقيق بهم أن يجتمعوا في وئام في الحياة الجديّة حول المصالح فيأخذ كلّ ذي حقّ حقّه . ولكن أين العنب في عزّ الشّتاء في ليالي الزّمهرير .

وبقينا في بيت الباي إلى السّاعة الرابعة . وحاولت الكوميسار أن يغضّ الطّرف عن عادل ، فأجابني بأنّ ذلك مستحيل بل إن لي أمرا مشدّدا بالقبض عليه . ويظهر أنّ العمليّة أحكمت من أجله هو . ويبدو أنّ هناك صراعا بين الفريك مصطفى ، وبعض البارزين من حاشيّة الباي وهم الذين ألّبوا عليه الفرنسيّين المتّصلين بالقصر . وثق أنّني لو كان في إمكاني أن أقدّم لكم هذه الخدمة لما تردّدت . وأنت أصبحت صديقا لي ، ولكم فضل كبير في إخراجي من هذه الورطة ، وعلى كلّ فاحفظ ما قلته لكم سرّا بيننا .

وخرج معي مودّعا ، وأمر بسيّارة تقلّني إلى المنزل . ولمّا دخلت الدّار وجدت كلّ العائلة تترقّبني : الأولاد الصّغار وأمّهم ووالدتي . وعندما رأوني أخذوا في البكاء من فرط الفرح ، وطفقوا يقبّلونني ويعانقونني ، كأنّني غبت عنهم دهرا طويلا ، إذ حسبوا أنّني لن أرجع إليهم أبدا في تلك الظروف العصيبة التي أصبح فيها التّونسي أحطّ مقاما في نظر الاستعماريين من الحيوان ، بل يداس ويقتل ، ولا من يحرّك ساكنا في الدّنيا .

ولم يكن في وسعي أن أنام إلّا ساعات قليلة ، لأنّني مطالب بأن أنهي إلى الكولونيل حصيلة المهمّة التي دفعني إلى القيام بها ، لينتقم منّي ومن عادل . وهكذا ضرب عصفورين بحجر واحد بين يوم وليلة. والمرء يمتحن في المقامرة والسّفر . فعادل ستبدأ محنته الجديدة في السّجن بسبب المقامرة ، وأنا انتهت محنتي بعد سفرة قصيرة ومدبّر

محنتنا هو هذا الذي بيده القوّة ، ولقد قال أرسطو : « إنّ حفنة من قوّة أفضل من قنطار حقّ » .

— 4 —

ولما وصل إلى هذا الحدّ من سرد هذه الأحداث المثيرة ، قاطعه عبد اللّطيف قائلا :

ــ أنا لم أفهم كيف تقتّر علينا في سرد قصّة عادل ، أنت تعرف كلّ التفاصيل ، وتعرف مآله ، ولكنّك تحرص على أن تترك شريط الأحداث يسير كما سجّلته أنت في ذاكرتك . تقفز بنا ، من فترة لاحقة إلى فترة سابقة ، من شباب عادل إلى كهولته ، ومن مراهقته إلى صباه، عوضا عن ترتيب ذلك والبدء بالبداية والانتقال بصورة منطقيّة من فترة إلى فترة . أمّا أن تحدّثنا عن مراهقة عادل سنة 1919 أو 1920 ثم تنتقل رأسا إلى سنة 1938 ، ونبقى جاهلين لما وقع لصاحبنا في العشرينات والثّلاثينات فذاك ليس من الرّفق بنا في شيء .

أجابه الشّيخ علي مبتسما ، وقال :

ــ أتظنّ أنّ الزّمن خطّ مستقيم ، وأن ما تنظر إليه من النّاس والأشياء هو معبّر عن اللّحظة التي تراهم فيها . فما تقول في النّجوم التي نراها الآن مضيئة ، وهي قد انطفأت منذ ملايين السّنين ، وتغيّر حجمها من زمن انطفائها ، بينما نحن نراها اللّحظة وكأنها ماثلة أمامنا . وكذا عادل كان يعيش بيننا ، وكنت أراه في بعض الأحيان كلّ يوم ، ولكنّه في كلّ مرة أطّلع فيها على ماضيه يتغيّر في عيني ، ويتغيّر حجم الزّمن لا بمقدار المدّة الكائنة بين رؤيتين بل بوزن ما عرفته من حياته السّابقة سواء ما حكاها هو لي أو ما تلقّيتها من الغير . فيكون تعاملي معه غير الذي كان قبل ذلك . فأنا لا أروي لكم قصّة لست طرفا فيها استقيتها

من غيري فقط ، وفي إمكاني التصرّف فيها كما أشاء ، بل هي قصّة عشت أنا أغلب أطوارها ، وانطبعت في ذهني ، وأريد أن أحكيها كما جرت أحداثها . فأنا أتعامل مع الزّمن في سرد قصة عادل حسب مفاهيمه الثّلاث : في تزامنه ، وتتابعه ، وديمومته . أرأيت كيف أنّ جدّك حفظ أشياء كثيرة حتى الفلسفي منها ، وتريد أن تبزّني بما كرعته من علم ومعرفة في الجامعات . وأنا أعرف أن الزّمن ليس له قيمة في حدّ ذاته بل قيمته في قيمة اللّغة التي تربط بين الأشياء واللّغة إنّما أساسها الفكر .

وسكت عبد اللّطيف وكأنّه قد أفحم في هذه المرّة ، لأنه لم يتعوّد من جدّه أن يدخل هذه المتاهات الفلسفية . وانتظر الشّيخ ردّ الفعل، وعندما خيّم الصّمت ، وعرف أنّ الجمع ، في شوق لما حدث له ولعادل في اليوم الموالي لليلة المقامرين أردف قائلا :

ــ وفي الغد ، كنت في مكتبي في الوقت الإداري ، وإذا بالهاتف يرنّ ، وصوت الكولونيل يقول لي :

ــ آ ... مازلت حيّا . ظننت أنّك في المستشفى على الأقلّ ... لقد دبّرت حالك ... شيء حسن ... أمّا عادل فقد وقع في الفخّ ، وهو الآن في الحبس الجديد ... إنّه لن يفلت من العقاب في هذه المرّة. إيتِ حالاّ ...

ولم يترك لي الكولونيل حتّى إمكانيّة ردّ النّفس ، وانقطع الصّوت. وبعد ذلك بلحظات كلّمني « خَالْ عَلِي » واطمأنّ عندما وجدني في المكتب ، ووعدني بزيارتي في المنزل ، ليتعرّف إلى التّفاصيل . ولم أضع السّمّاعة حتى جاءني عسكري يعلمني أن الشاذلي السَّعْدَاني ، مفتّش الشّرطة يريد مقابلتي . فقلت ألم ينته هذا الشريط السّينمائي ، فنظر العسكريّ إليّ نظرة البقرة التي تنظر إلى القطار وهو يمرّ أمامها ، وقال

ليس صاحب سينما ، بل هو مفتش شرطة . فقلت أدخله . ولمّا استقرّ به الجلوس شرع في طرح الأسئلة عليّ ، فنظرت إليه شزرا ، وقلت له ما الذي جاء بك . وماذا تريد ، وليس لي ما أقوله لك ، وما عليك إلّا أن تأخذ الإذن من رئيسي . فقال :

ــ المسألة ليست رسميّة ، وإنّما أرسلني صديقك وابن بلدتك فُلاَنْ ليستفسر عن أمر بسيط ، وبكل ودّ ... فهو يريد أن يعرف هل أنّ المعتمد الفرنسي للعدليّة كان موجودا اللّيلة البارحة مع المقامرين أم لا .

فأكّدت له أنّه لم يكن موجودا البتّة . وبعده بساعة جاءني الكوميسار « دُوبُونْ » وهو الذي قام بعمليّة المداهمة ، وشكرني مرّة أخرى وقال :

ــ لقد أنقذتني مرّتين : المرّة الأولى عندما كفيتني شرّ ذاك الباي، فلم أمسّ بسوء . والمرّة الثانية لمّا أخرجتني من ورطة كانت تقضي على مستقبلي . فاطلب ما شئت ، وأنا على ذمّتك في أيّ وقت .

فخطرت في ذهني في تلك اللحظة فكرة متّجهة نحو التّخفيف على عادل فقلت له :

ــ خذ لي رخصة من معتمد العدليّة لأزور عادل في أيّ وقت مع توصية لمدير السّجن ليكون معه متسامحا ، ويتركني معه بدون تحديد وقت في مكتب من المكاتب . ثم أريد أن تضمّن في المحضر ، وأظنّه لم يختم بعد ، أن عادل كان حاضرا ، لصداقة تربطه بهذا الباي ، وأنّه لم يكن المتردّدين على هذا البيت ، ولا هو من المقامرين بل وجوده كان محض صدفة .

وعدني الكوميسار بأنّه سيعمل على الاستجابة إلى كلّ هذه الطلبات، وهي غير عسيرة المنال ، وأنّه سيكون مسرورا بالقيام بذلك . وقبل

مغادرة الوزارة عند الظّهر ، وبعد مقابلة الكولونيل الذي ضحك طويلا على ما وقع لي البارحة كانت الرّخصة أمامي فوق المكتب . ومن هناك توجّهت رأسا إلى السّجن المدني . ففتحت لي الأبواب : الباب الكبير وحرّاسه من عسكر الباي ، والأبواب الأخرى بمفعول تلك الرّخصة . واستقبلني مدير السّجن وهو فرنسي بكلّ ترحاب ، وتلاقيت مع عادل بدون رقيب . فأعلمني أنّه بعد أخذ أسمائهم ، جلبوا إلى كوميساريّة المرسىَ لإتمام تسجيل الهويّة . ثمّ سيقوا إلى « حَبْسْ إجْدِيدْ » . وفتح بابه لعادل لأوّل مرة في حياته . إلاّ صاحب البيت فالباي هو الذي يقرّر صورة عقابه . وحدّثني عادل بالتّفصيل كيف أنّه أطلّ من ثقب السيّارة الكبيرة ، وكيف لمح الحرّاس من عسكر الباي ، وكان عرف الحراسة أمام باب هذا السّجن عندما فرض عليه والده البقاء ، طيْلة ثلاثة أشهر في حرس الباي ، قبل تعيينه ضابطا ، شرفيّا ، معينا ، ليعرف عن كثب حياة الجنديّة ، ويتمرّن على السّلاح ، ويحذق ركوب الخيل . وكانت نيّة الفريك أن يحفظ ابنه من الإنهيار ، بعد محنته الأولى مع زينب ، وأن يمهّد لزواجه من ابنة خاله ليلى البكماء وأن يدفعه إلى معرفة الواقع والاحتكاك بالنّاس ، مهما كانت رتبهم .

وفي تلك الفترة ، زدت ارتباطا بعادل واعتنيت به عناية خاصّة . فتفنّن في ركوب الخيل وتدرّب على السّلاح ، وخضع للانضباط العسكريّ. ولكنّه مع هذا ـــ وهومِمّا لم يدر بخلد الفريك ـــ اطّلع عن كثب على ألوان من الفسوق والأخلاق المنحطّة ، والمكر ، والخديعة ، والسّفالة ما جعله في الأوّل في دهشة من أمر هذا المجتمع المعزول عن النّاس. ثمّ تعوّد أساليبه ، ولكنه لم يفارقه عجبه منه وإن إنساق في بعض الأحيان إلى ألاعيبه ، لهوًا وعبثا . ومهما كان الأمر فإنّه فارقه بسرعة ، ولم يتطبّع به .

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما لم أجد عادل في يومه الأوّل بالسّجن لا مهموما ولا منشغلا بحاله ومآله ، بل ألفيته في نشوة تامّة راضيا بقسمته ، مرتاحا إلى هذه الصّدفة التي مكّنته من أن يحيا أسعد أيّامه على حدّ زعمه . وكنت أوطّن النّفس قبل رؤيته على إيجاد الصّيغ الّتي تخفّف عنه المصاب ، وعلى البحث عن السّبل الكفيلة بإخراجه من هذه الورطة . وإذا به يفاجئني بهيئة هي إلى الأبطال المنتصرين أقْرب منها إلى الضّحايا المنهزمين ، ويحدّثني عن الحدث السّعيد ، عوضا عن المصاب الجلل . قال بعد أن حكى كيف وصل إلى « حَبْس إجْدِيدْ » :

ـــ لا أدري لماذا حشرت من دون الذين صاحبوني من الأعيان في السيّارة الكبيرة مع سائر المحبوسين في قاعة فيها ما يقرب من خمسين سجينا . واستقبلت منهم استقبال الأبطال لأنّهم وضعوني في عداد الذين شاركوا في حوادث 9 أفريل ، وكانوا يتقاطرون عليهم في اليومين الأخيرين . وسرعان ما ينقلون إلى السّجن العسكريّ . وكان زعيمهم، وهو ما استغربته ، يشبه بالضّبط النّاصر ابْن الطّاهر والنّاصر مازال صغيرا كما تعرف وكأنه أخوه تماما ، مع فارق السنّ واسمه أيضا النّاصر . وكان يخشاه كلّ من في القاعة . يجلس هو واثنان في مكان خاص وسائر المسجونين أمامه . وقال لي بعد أن رحّب بي وقبّلني ، وعانقني، كأنه يعرفني منذ زمان :

ـــ لا تجلس بين « الْكُدْسْ » مع « الهَمَنْتِشْ » اجلس بجانبي فأنت بطل تناضل من أجل الوطن .

ولم أقل له لا . وأنت تعرف يا عَلِي ، أنّني سجنت من أجل مواقفي في هذه الأيام . ولكنّ نظام الحماية كما عوّدنا كرّس أجهزته للنّيل من كلّ قيمة في هذه البلاد . فعوضا عن محاكمتي محاكمة سياسيّة ، حبك لي هذه الأحبولة لأظهر أمام النّاس كأنّني مجرم من مجرمي الحق العام.

وقد فهمت ذلك من بحث البوليس، وعند إخفائه أناسا أقلّ مكانة في المجتمع منّي . فلقد كان فلان وفلانة في قاعة القمار ، ولكنّهم اختفوا تحت جنح الظّلام ، ولم يبق إلّا نفر قليل ممّن ليست لهم مكانة عند النّاس ، ولا هم من المعروفين . أما أنا فقد تعمّد القوم إهانتي . ولكنّني، والحمد لله ، وجدت في السّجن أبناء الشّعب الذين فهموني ، واستقبلوني استقبال الأبطال . وأنا الآن مبجّل ، مكرّم بينهم . وأنت يا علي ، الأخ الصّدوق أوّل من زارني ، وأنا أمري بين يديك . فقلت له :

ــ اسمع يا عادل . هذا الوقت ليس وقت فلسفة ، ولا وقت الكلام الذي يلقى على عواهنه . أنت وقعت في الفخّ ، والطّائر الحرّ في مثل حالك لا يتخبّط . ولهذا فإنّي أطلب منك أن تعدني وعدا صادقا بأن لا تتحدّث عمّا وقع لك ، ولا تفضي بأيّ شيء لأحد . فابق مع هؤلاء المساجين من دون كبير ألفة ، ودارهم من دون أن تُمَارِيهُمْ ، واترك لي بضعة أيّام أدبّر فيها حالي ، من غير أن تعقّد الأمور بتصرّف من تصرّفاتك الغريبة في مثل هذه الأحوال وسأخلّصك من هذه الورطة . واعلم أنّك لن تجد من إدارة السّجن ما يقلقك ، فالتّعليمات صدرت من الرّؤساء لمراعاتك . وسأحكي لك التّفاصيل فيما بعد . حافظ على وقارك مع المساجين واحذر خاصّة من هذا النّاصر الذي ملت إليه لأسباب تعرفها أنت وأعرفها أنا .

وودّعته ، وخرجت وأنا قلق من هذا الوضع الذي لن يستفيد منه عادل ، بل سيدخله في متاهات جديدة ، لم تهيّئه تربيته ليخوضها بقوّة وبمناعة تامّة . وقبل أن أخرج حاولت أن أتعرّف إلى رئيس حرّاس الغرفة التي حشر فيها عادل ، فكان فرنسيّا من كُرْسِيكَا ، تفهّم جيّدا ما قلته له ، خاصّةأن مدير السّجن خاطبه في ذلك . ونبّهته إلى أنّ المساجين

وهم أغلبهم من أوساط شعبيّة لا بدّ أن يحاولوا استدراج عادل إلى محاكاتهم فيما تعوّدوه من سلوك ، وما ألفوه من حديث ، فليتدخّل هو بنفسه أو يأمر الحرّاس بألّا يسمحوا للمساجين بالإنزلاق فيما يضرّ بعادل .

— 5 —

بعد أن تخطّيت الأبواب بابا بابا ، والحرّاس حارسا بعد حارس ، ووصلت إلى الباب الْبَرَّانِي لمحت طوابير من النّاس واقفين أمام باب السّجن ، وأغلبهم من النّساء يحملون قفافا ، وينتظرون دورهم لتسليم مؤونة أقاربهم المسجونين هناك ، ويلتمسون أيضا زيارتهم ، إن كانت لهم رخص في ذلك . هم ينتظرون أن يفتح لهم باب السّجن ، وأيّ باب أشدّ كآبة منه ، بل هو ينشر حوله الانكسار ، والكرب والأسى، والوجوم . فيلفّ بها الحاضرين ، والحاضرات ، ويزرع فيهم شعورا بالدّونِيَّةِ ، يصعّد إلى أعينهم الدّمع ، ويضغط على حناجرهم فتخنقهم العبرة . وأيّ باب أشدّ حضورا بمفصّلاته ، ومزاليجه ، وأقفاله ، وأسكفته وعتبته ومصراعيه : كلّ جزئيّاته ، ودقائقه ، منشورة أمام هؤلاء الذين أعياهم الانتظار ، هم سجّلوها في أذهانهم ، ولاحظوا ما يطرأ عليها كلّ يوم من تغيير ، بفعل الشّمس والرّطوبة ، والأمطار ، حتى صوت مفصّلاته عندما يفتح أصبح معروفا عندهم . هو يفتح أيضا كباب مغارة علي بابا باسم خاصّ ووراءه أفئدة وأكباد هذه الجموع من البشر : كنوزها أودعتها غصبا عنها وراء هذا الباب الماثل أمامهم ، وظنّ الحافظون لهذه الكنوز ألّا شيء يحدث عندما أحكموا غلق الباب ليفتحوه بالطّلسم بعد الطّلسم .

أسرعت إلى منزلي لتناول فطور الغداء بسرعة . ومن هناك عرّجت على قصر « الْفرِيكْ مصطفى » . ولمّا دخلت الرّدهة لم أسمع ما كنت

أسمع في العادة من أصوات الخدم ، وما تحدثه حركتهم من ضجيج، بل كان الصّمت مخيّما على كلّ ركن من أركانه ، واستقبلني الطّاهر كاتب الفريك وعلى محيّاه شيء من الانبساط . فقلت له :

ــ أين الفريك .

ــ جئت لتحدّثه عن مآل عادل ودخوله السّجن . إنّه على علم بذلك. أرأيت ...

ــ اسمع يا طاهر ، ليس الوقت وقت شماتة ، بل الواجب يقتضي أن نخرج عادل من هذه الورطة .

ــ أنا غسلت يديّ عنه بالماء والصّابون منذ زمان . فهو عندي بمثابة الميّت ، وحتّى أبوه الفريك لا يرى فيه إلّا هذا الرّأي . إلّا أنت فقد أصبحت ملكيّا أكثر من الملك . هذا عادل تنصّل منه أهله ، ونبذه البايات ، وناوأه الفرنسيّون فلم يبق له من نصير إلّا أنت .

أعرضت عنه واتّجهت نحو المقعد حيث كان يجلس الفريك بعد طعام الغداء لشرب قهوته . فوجدته متّكئا ، فتحامل على نفسه للوقوف وقال لي :

ــ أرأيت يا علي ، كيف أوصلنا عادل إلى هذه الفضيحة ، وجعلني سخريّة بين النّاس . وبينما السّجون الآن يملؤها الوطنيّون الذين يكافحون ضدّ فرنسا يدخل ابني عادل السّجن من أجل القمار . وقد ربّيته تربيّة عالية ، وهيّأته لأعلى المناصب . سأتركه هذه المرّة فَأْرَ حَبْسٍ حتى يتّعظ ، ويرجع إلى الصّواب . ولكنّ الأمل في صلاحه تبدّد ، ولا يصلح العقار فيما أفسده الدّهر . فقلت له بعد أن سكت والحزن يملأ الغرفة التي شحّت أشعّة الشّمس عن دخولها في تلك الآونة :

ــ عادل لم يدخل السّجن من أجل القمار . إنّه لم يكن هناك إلاّ محض صدفة . كان يتردّد على هذا المكان ليأنس ببعض الأصدقاء ، وفي الواقع تمّ تدبير العمليّة لأنّ سلطة الحماية عاينته في مظاهرة 9 أفريل. وحدّثته عن كلّ ما جرى في ذلك اليوم ، وكيف وقف عادل وقفة الأبطال وكاد يهلك لولا لطف الله .

وحرّكت في نفس الفريك مصطفى نخوة الأجداد ، ووصفت له عادل وصفا ذكّره بما فعله جدّه الذي رافق سِنان باشا في حربه ضدّ الإسبان . وفي ذلك الوقت هبّت نسمة أزاحت شيئا من ستارة النّافذة فدخلت أشعّة الشّمس مضيئة رأس الفريك ، وتركّزت على أسارير وجهه، فصادفتها ، وقد تطلّقت ولمعت عيناه ، وبرز منهما شعاع فيه شيء من الأمل . واستوى في جلسته وقال :

ــ ولكن ليست هي الرّواية التي شاعت في قصر الباي وفي وزارة الحرب .

واغتنمت الفرصة لأحدّثه عن مشاركتي في العمليّة ، وأعلمته من دون أن أذكر أسماء المقامرين الذين لم يتمّ القبض عليهم بما أكّده لي الكوميسار ، من أن غريمه في قصر الباي ــ وهو السّاعي للإطاحة به لأخذ مكانه ــ هو الذي أوغر صدر الباي عليه ، ليحطّ من مكانته ، ويجهز عليه ، وأنّ الكولونيل رئيس البعثة العسكرية الفرنسية له ضلع في المؤامرة . عند ذلك وقف الفريك وفي وقفته هُنَيّةٌ من المقاومة :

ــ إذن المسألة فيها هذه الجوانب المعقّدة . فما رأيك والحالة هذه .

ــ أرى أن تهادن أعداءك في هذه الأيام ، ولا تشعرهم أنّك على علم بمناوراتهم ، بل تساندهم في بعض ما يطلبونه من مطالب لدى الباي، وتتصرّف وكأنّ كلمتك لا تردّ ، وأنّ لك أنصارا في مناطق النّفوذ

وخاصّة الفرنسيّين منهم . فذلك يقوّيك عند الباي في هذه الظروف التي اشتدّت فيها شوكة السّلطة الحامية . وحاول خاصّة إقناع الباي بأنّ عادل هو من عائلة البايات . أليست أمّه بَيَّة . واجعله ـــ بإثارة الحميّة فيه ـــ يسلّم بأنّه ليس من اللاّئق ترك عادل يشمت فيه أعداء البايات . ثمّ أليس من واجب السّلطة الحاميّة رعاية العائلة المالكة والذّود عنها . أمّا دوري أنا فيتمثّل في إقناع الكولونيل بوجهة النّظر هذه . وهو أن يقتنع الباي بأنّ عادل هو فرد من العائلة الملكيّة يجب أن يعامل عند العُقاب معاملة البايات . فيصدر عليه الباي حكمه بوضعه في غرفة بقصر باردو لمدّة، منعيّنة ، وبهذه الصّورة لا يمثل ابنك أمام محكمة الحقّ العام ، ولا تردّد الجرائد حيثيّات القضيّة ، ولا يترتّب عن ذلك فضيحة .

وعند ذلك صفّق الفريك بيديه تصفيقة الاستحسان ، وفركهما فركه وقال :

ـــ نعم الرّأي . فأنت ، يا علي ، من أمهر ما رأيت . من أين لك هذا التفكير ، وهذا الاطلاع على دقائق الأمور . أنت لك مستقبل زاهر، ستصير ضابطا كبيرا لأنّك تفهم ما أصبحنا نعجز نحن عن فهمه ، في هذا الزّمن الذي تعقّد فيه كلّ شيء ، وتغيّرت الأحوال ، وخرجت من أيدينا السّلطة .

ثمّ خرج من باب المعقد ونادى بصوت عادل :

ـــ يا طاهر ... يا طاهر ...

فجاء الطّاهر ، ونظر إليّ مستفسرا ، ولسان حاله يقول كما تعوّدت ذلك منه : آ ... نصبت لي مِنْدَاف (يعني فخّا) . قال له الفريك :

ـــ يا طاهر ... علي أخرجنا من الورطة . صاحبكم هذا نعم الصّاحب... لم تفكّر أنت فيما فكّر فيه سيِدِكْ عَلِي ... بل حمّمت قلبي، وزدتني حزنا على حزن ... أين قهوة علي ... كيف ألم تأمر له بقهوة ... سبحان الله ... معذرة يا ابني علي ... وجب أن ألوم نفسي... هات القهوة بسرعة وشيئا من الحلويّات .

واشتغل الفريك مصطفى بفتح نوافذ المقعد ، وخرج إلى الشّرفة ونادى علي قائلا :

ـــ ٱنظرَ إلى الجَابِيَّةِ كيف امتلأت السّنة بمياه الأمطار فقط . لم نحتج إلى تشغيل محرّكات الآبار . ألا ترى أنّ الأشجار أشدّ اخضرارا من العام الماضي . لماذا لا تأتي بالأولاد ، وكلّ العائلة وتقضون يوما كاملا بيننا . إنّني أتشرّف بك وأعزّك .

فأجبته على الفور :

ـــ يوم يخرج عادل من الورطة ، نقيم هنا حفلا عائليّا وآتي بالعائلة ... بارك الله فيك يا سيدي مصطفى ، وأقرّ عينك بعادل وأطال الله عمرك في الخير والهناء .

وتذكّر الفريك في ذلك الوقت قضيّة ابنه ، فتجهّم وجهه ، فجأة ودخل المقعد بينما حضرت القهوة والمرطّبات ، والطّاهر ينظر إليّ نظرات قاسيّة ، منتظرا الاختلاء بي ليقول لي ما تعوّدته منه وجلس الفريك وقال وهو مستعدّ للانسحاب إلى مقصورته لإمضاء قيلولته :

ـــ إذن كما اتّفقنا ... اشرب قهوتك متّئدا ، أمّا أنا فمحتاج إلى شيء من الرّاحة ... مع السلامة .

وخرج الفريك ، وتركني وجها لوجه مع الطّاهر الذي أغلق باب المقعد وقال :

ــ عرّفتك بهؤلاء فأصبحت سيّدي علي ... أنت سيدي ماذا فعلت حتّى سحرت الفريك .

ــ الحيلة في ترك الحيل ... أنا ، كما تعرفني ، لست خؤونا ، ولا غدّارا ، وإنّما قدّمت له الحلّ لإخراج صاحبنا من الورطة ، وهو أضعف الإيمان في شرعة الصّداقة . أما أنت فالحقد هو الذي يحرّكك، والغيظ هو الذي يأكل نفسك ، ويملأ صدرك ، ولهذا لن يحالفك التّوفيق في أعمالك . والآن اسمح لي بأن أقول لك مع السلامة . فالمكتب ينتظرني .

خرجت وتركته واقفا ، ينظر إلّي نظرة فيها استياء . ولكنّني ما أن تخطّيت عتبة المقعد واتّجهت نحو المدرج حتى نادتني زوجة الفريك مصطفى ، فرجعت أدراجي ، فرأيتها ، تختال في قفطان زاهي الألوان، وعلى وجهها ابتسامة وانشراح ظاهرين ووراءها ليلى زوجة عادل وهي تقول :

ــ يا سي علي لقد أدخلت علينا الفرحة ... الفريك حدّثني ــ قبل أن يدخل مقصورته ــ عن سعيك لتخليص عادل من الورطة ... أنت ولد حلال وسنذكر لك ما حيينا سعيك هذا .

وكانت ليلى من وراء زوجة الفريك تشير لي بيديها علامة على الاستحسان والفرح . وهنا قاطع الشّيخ علي أحد أحفاده قائلا :

ــ لم تحدّثنا عن زواج عادل بليلى البكماء وكيف تزوّجها .

ــ أجابه الشّيخ علي :

ــ لا تتعجّل فسيأتي الوقت الذي سنضطرّ للحديث عنها .

واسترسل الشّيخ علي في قصّته غير مبال بهذه المقاطعة التي كادت تشوّش عليه نسق الحديث وقال :

ـــ لم أشعر بنفسي محاطا بالتّبجيل والتّقدير مثلما شعرت به في ذلك اليوم ، فأنا من اليوم الأول الذي فتحت فيه عينيّ على هذه الدنيا ، لم أفتأ كادحا ، همّي تخطّي الصّعاب وإزالة العراقيل ، لا للتّفوّق والقيام بعمل فريد بل لأحصل على قوتي ، وقوت أولادي ، لا غاية لي في هذا المجتمع المجهض ، القاسي ، المتألّب على كلّ كريم شهم إلاّ أن أندمج في القطيع ، أنشد السّتر ، والعافية لا أرفع رأسي خوف أن يقطع . وإذا بي ، بين يوم وليلة ، أدفع دفعا لأكون في صدارة الأحداث مضطرّا إلى أن أحتكّ بما طفا في هذا المجتمع من قوى تتصارع كأنّها « طَنْجَرَةُ البَبُّوشْ » هذا الحلزون الذي يوضع في قدر ويرشّ عليه السّميذ ليأكله ، ويخرج ما في جوفه من خبائث ، ويصبح صالحا للأكل . تصوّر ذاك القدر وحلزونه ، وما يتطلّبه من عناء لإزالة الخليط من اللّعاب والذّرق . هو شبيه بطبقة الأعيان في ذلك الوقت ، الفاعلين في نظام الحماية . أمّا الذين رحمهم الله مثلي أنا ، واهتمّوا بشؤونهم ، وتمسّكوا بالأخلاق ، فهم مهمّشون ، مهدّدون على الدّوام من هذا البَبُّوش الذي لا يعرف إلاّ لفّهم في لعابه ، وتلويثهم بذرقه ، ومع هذا فالْبَبُّوش مسكين أحقّ بالرثاء من غيره لأنّه ما أن يأكل السّميذ بنهم ويخرج ما بجوفه من أوساخ ، حتّى تأكله النّار ، ثم يسلب ممّا في قوقعته ، ويرمى به غير مأسوف عليه . وأكداس الببّوش التي يعثر عليها المرء في هذا المجتمع كثيرة ، يجدها مكوّمة تحت الجدران ، وفي المقاهي ، على الرّصيف خاصة ، وفي أعز الأماكن في بعض الأحيان : في القصور والدّور الكبيرة ، تحت ستائر الحرير والمخمل . ألم يكن أهل هذه البلاد فيما قبل التّاريخ من آكلي الحلزون . ألم تقل لي هذا يا عبد اللّطيف.

لقد وجد الأثاريّون تحت طبقات هذه الارض آكواما من الحلزون ترجع إلى الفترة القفصيّة . لم يتغيّر شيء من هذه البلاد لأنّ أهلها، لم يريدوا تغيير ما بأنفسهم إلى ما هو أقوم وأحسن وأرضى .

وفهم عبد اللّطيف أنّ جدّه قد أصابه شيء من الإعياء ، مع ميل إلى الرغبة في ردّ النّفس ، فأسعفه قائلا :

ـــ والْبَبُّوش أنواع فيه الكبير ، والصّغير اللّحم والهزيل وأفشله هو « بَبُّوشْ بُو مَصَّهْ » فهو لا طائل من ورائه ولا لحم فيه . ولست أدري لماذا سمّي كذلك ، وهو لا يطاوع في المصّ البتّة .

وضحك الجميع ثم مضَوْا في التّعاليق كلّ مذهب حتى استرجع الشّيخ علي قواه ، وقال :

ـــ 6 ـــ

كنت في مقرّ الوزارة في وقت دخول الموظّفين ، ووقفت كالعادة في البهو الكبير أرقب من بعيد ما يحدث ولمّا خلت ردهات الوزارة، ومعابرها ، ودخل الموظّفون مكاتبهم ، وأوشك الكولونيل ونوّابه أن يأتوا ، دخلت مكتبي ، واشتغلت بإعداد التّقرير اليوميّ . وما أن أتممته بعد التحرّي واستشارة نوّاب المدير ، حتى دخلت مكتب هذا الأخير وأدّيت له التحيّة العسكريّة ، فرفع رأسه وقال :

ـــ إذن أنت في الموعد دائما ...

ـــ نعم ... مُونْ كُولونِيل .

وتحوّلت في تلك اللّحظة إلى يمينه ، لأضع أمامه التقرير ، ليمضيه، وهو على علم بتفاصيله . ولكنّ هذه الشكّلية ، بقيت قائمة منذ الاحتلال

لأنّ معاهدة باردو ، نصّت على وجود حرس الباي الذي لا يتجاوز السّتمائة جندي ، وضبّاطه أكثر بكثير من جنده ، إذا دخل في الحساب الضبّاط الشّرفيّون . أمّا نياشينه ، ومراسمه فهي أهمّ من الوظيفة العسكريّة. وما أن وضعت أمامه التقرير حتّى قال لي بحدّة بدون أن يرفع رأسه ، ليدخل الرّهبة في نفسي ، ولا يترك لي بابا من أبواب الجرأة عليه :

ــ ماذا تنظر ... تريد أن تلتقط بعض الأسرار .

ــ لا شيء ... مُونْ كُولُونِيلْ .

ودقّ جرس الهاتف فابتعدت عنه ، وإذا بمكالمة من قصر الباي ، فهمت أنّ موضعها يهمّ عادل ، لأنّه سرعان ما احتدّ في الكلام قائلا :

ــ هذا عادل تعتبرونه من البايات ... هو ليس منهم ... ويجب أن ينطبق عليه القانون مثل سائر « الأنْدِيجَانْ (أي التونسيّون سكّان البلاد الأصليّين والكلمة فيها تحقير) ... آ ... الباي يريد معاقبته بنفسه ... سأدرس الموضوع .

ووضع السمّاعة والتفت إليّ وقال :

ــ هذا عادل مُزْعِج (أَمَّرْدُورْ بالفرنسية) صاحبك لا يبرح وجهي ، ولم يخرج من مشاغلي في هذه الأيام ... يجب أن ننتهي من أمره سريعا ...

وبدأ يضحك لأنّه تذكّر عادل وطربوشه وباكِيتَتَهُ وقال :

ــ قِيل لي إنّ الشّرطي دحرج له طربوشه برجله كالكرة ، وأراد إطلاق النّار عليه ... كنّا ننتهي من أمره ... لا بدّ أنه داخله الرعب... وسكّان العاصمة جبناء ... أليس كذلك ... وتقول لي إنّه تركيّ ...

ماذا بقي له من تركيّته ... على كلّ فالمنظر كان مضحكا ... أليس كذلك .

وكنت أعرف أنّ هذا هو الوقت الذي أغتنمه لأمرّر ما أريد من الآراء. وأستند في كلّ ذلك إلى القصص أو الأمثال الشّعبيّة التّونسية التي يريد أن يتعرّف إليها وأحكيها كرموز لأنتزع منه القرار الذي أريده . وبالتّجربة رأيت أن لا فائدة في مساجلته في الموضوع الذي اختاره بالحجج التي تمرّس عليها وحذقها ، وأنا بعيد عنها بعد السّماء عن الأرض. أما عندما أساجله في الميدان الذي يجهله فإن حظوظ هزيمته تكون لديّ أوفر . قلت له :

ــ ألا تعرفون المثل الشعبيّ التونسيّ الذي يقول : هُمْ كَطَنْجَرَةِ الْبَبُّوشْ .

ــ لا ... لا أعرفه ... ومن أين لي أن أعرفه .

ــ عندما تضع كمّية من البَبُّوش في قدر واحد ، فإنّك تسمع طقطقة قوقعاته ... هذا يركب ذاك ... وذاك يصعد على ذلك ... فهي في صعود ونزول ... تخرج رؤوسها وتدخلها ... ولعابها منتشر ...

ــ ويرمز هذا إلى ماذا .

ــ إلى الصّراع من دون سبب ... إلى الخصام الذي لا ينتهي والضجّة التي ليس لها حدّ ... المجتمع التّونسي الآن هكذا ... كطنجرة البَبُّوش ... ثم أتعرفون ، يا مُون كولونيل ، أنّنا نأكل البَبُّوش مثل الطَّلْيَان... وتهيئته غريبة ... نضع له السّميذ ، وهو بمثابة المسهّل فتكون النتيجة تفريغ ما في جوفه (فِيدَانْجْ) وصبّ الواحد ذرقه (سَا مِيرْدْ بالفرنسية) على الآخر (وبدأ الضّحك يستبدّ بالكولونيل بكتكتة واضحة)



ويختلط اللّعاب بالذّرق ... ثمّ يأتي الغسل الأكبر (قَرَانْ لأفَاجْ) (تصبح كتكتة الكولونيل قهقهة) ويوضع على النّار ، وعند ذلك تنكمش كلّ بَبُّوشَة في قوقعتها ، ويوضع عليه المرق ... ونأكله ... أتعرفون كيف نأكله ... يا مُون كولونيل .

ـــ لا أعرف (وهو يضحك بكَرْكَرَةٍ عجيبة والدّمع بدأ ينزل من عينيه).

وشرعت أمثّل له باليد كيف نأكله :

ـــ نأخذ البَبُّوشَة ، ونحدث لها في وسط قوقعتها ثقبة بضربة سنّ، ثم نمتصّها ، حتى نخلخل ما فيها من لحم ، ونضع إصبعا نسدّ به الثقبة، ثم بمصّة أخرى قويّة ، من منفذ القوقعة ، متساوقة مع حركة إزالة الإصبع عن الثّقبة يكون اللّحم في الفم .

وذهب الضّحك بالكولونيل كلّ مذهب حتّى كاد يسقط من كرسيّه. وتركته يهدأ ، ويمسح عينيه من دموع الضّحك ، ويرجع إليه وعيُهُ بما يرمز إليه المثل الشعبيّ . وعندما رجع إلى سكونه ، ووقاره ، قال لي :

ـــ إيه ، وماذا تريد أن تقول تعليقا على هذا السّكاتْشْ الحلزوني .

قلت بدون مواربة :

ـــ أتريدون يا مُونْ كولونيل أن تكونوا في طنجرة البَبُّوش هذه . والخصومات قلّ أن تدوم . ولكنّ الخطأ يكون دائما محمولا على جانب واحد . واللذّة في الخصومة ـــ إن كانت فيها لذّة ـــ أن تؤول في آخر الأمر إلى التصالح . وأنتم ما دخلكم في كلّ هذا ، وكلّ الأطراف تتصالح فيما بينها في النّهاية . أمّا أنتم البعيدين عنها والمعتبر مهما كان الأمر أجنبيّا ، تبقى العدوّ الذي تحاك ضدّه المكائد ودوركم أنتم أن تكونوا مع هذه الأطراف في سلم دائمة . لقد قال شكسبير :

« احترس من الدّخول في خصومة من الخصومات . ولكن إن أنت وقعت في حبائلها فاسلك سلوك من يكون خصمه في حذر دائم منه. وأصخ بأذنك للجميع ، ولكن لا تلق بكلامك إلّا للقليل القليل ».

ــ وتعرف شكسبير أيضا ، جميل ...

ــ نعم ... مُونْ كولونيل ، كنت مثّلت وأنا شابّ دورا في مسرحيّة هَمْلِتْ .

ــ جميل ... فهمت ما تقصد ... وماذا تنصحني به حتى لا أكون في طنجرة البُّوش .

ــ أن تأخذ التّلفون ، وتكلّم معتمد العدليّة وتقول له أنّ الباي يريد معاقبة عادل بنفسه لأنّه يعتبره من عائلة البايات .

ولكن كيف يمكن تخليصه من العدالة إذا أحيلت قضيّته إلى المحكمة .

ــ لا إنّ معتمد العدليّة لم يفعل شيئا .

ــ ومن أين لك علم هذا .

ــ أنا على علم بأطوار القضيّة .

وأخذ الكولونيل الهاتف ، وطلب معتمد العدليّة ، وهو صاحبنا الذي سترته ، وكنت متيقّنا أنّ الكوميسار ، قام بالمهمّة على أحسن وجه . وكان الفرنسيّون إذا وعدوا وَفَوْا في أغلب الأحيان ، مثلما كان المسلمون بالضبط عندما كانوا متمسّكين بأخلاقهم الإسلاميّة . وبعد قليل كان كلّ شيء قد تمّ . وأذنني الكولونيل بأن آخذ سيّارة الخدمة، وأخرج عادل من السّجن المدني ، وأتوجّه به إلى غرفة في قصر باردو معدّة لسجن البايات .

ولمّا فتحت باب مكتب الكولونيل ، وجدت « فَنْتَسَاتْ » في هيئة من كان يتلصّص . فصحت به :

ـــ آ ... تتلصّص على الكولونيل ...

وأخذته بقوّة من يده ، ورمت الدّخول به إلى الكولونيل لأبيّن له أن هذا الرّهط من الناس إذا استعملوا في التلصّص فهم ينقلبون على صاحبهم . فطفق يتوسّل ويقول :

ـــ لا يا ... مُونْ أَجُودَانْ سمعتِ صخبا ، فظننت أنّ الكولونيل يناديني ...

ـــ الكولونيل يناديك كما تعوّدت أن ينادوك في البادية ... أليس له جرس مجعول لجلبك يا ملعون ... أتحسبني أبله . ابتعد مِنْ سِكّتِي ... وإلا مرستك بين أصابعي مرسا .

وناولته على ظهره لكمة تهدّ الجمال و« عُنْقِيَّةً » مدويّة على عنقه الطّويل ، وطلبت منه أن يخرج سيّارة الوزارة المعدّة للمهمّات . وكنت متيقّنا من أنّه سيستشير الكولونيل قبل الإذن بذلك . فغضضت الطّرف عن هذه ، وأوهمته أنّني لم أفطن إلى الحيلة التي ابتدعها ليقوم بواجب الوشاية . أمّا أنا فقد شعرت براحة تامّة ، وبسرور كبير ، لأنّني ربحت الجولة في ساعات قليلة .

واتّكأ الشّيخ علي ، وشعر براحة كأنّها تلك التي عرفها عندما خلّص صديقه من السّجن . ولكنّ أحد أحفاده الصّغار قطع عليه راحته وقال :

ـــ أي جدّي العزيز ... لماذا كنت قاسيا مثل هذه القسوة مع فَنْتَسَاتْ. ألم تبالغ في إهانته .

ـ اسمع يا ولدي الصّغير . الجنديّة والوشاية ضدّان لا يجتمعان . فالذي لا يقدر في الخدمة العسكريّة على أن يكون جنديّا بأتمّ معنى الكلمة يصير واشيا ، مهمنا حاول التفصّي من ذلك . واعلم أنّ الجنديّة انضباط ، وشهامة ، وأنفة ، وخصال حميدة ، منها الإقدام ، والإيثار والبذل . أمّا الوشاية ـ سواء في الجنديّة أو غيرها ـ فهي ما في النّفس من فجور مجسّم . أليس الشّيطان هو أكبر واشٍ . ألا يكفيه الإنسان أن كان في نفسه الوسواس الخنّاس ، حتى يجسّمه في الوشاة الذين لا همّ لهم إلّا إفساد ما بين النّاس . ألم يقل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه :

ألـــم تـــر أنّ وشاة الرّجـــال لا يتركون أديما صحيحا

ـ 7 ـ

فتح باب السّجن على مصراعيه للسيّارة ، واتّجهت رأسا إلى مكتب المدير ، فوجدته بصدد تلقّي أوامر معتمد العدليّة . ولكن في ذلك الوقت دخل حارس يجري ووقف محيّيا وقال :

ـ سيّدي المدير ... إن السّجين الجديد ابن الفريك مصطفى يثير الشّغب في غرفة المساجين الكبرى .

قام مدير السّجن من مكتبه ، وصحبني معه ليعرف جليّة الأمر . وفتح كوّة من باب الغرفة ، وإذا بنا نرى عادل وعلى رأسه طربوشه ، وبيديه باكيتته وهو يرقص على نغم أغنيّة ماجنة ، يردّدها المساجين في صخب كبير :

يَـــا رُمَّانَـــهْ يَـــا رِمِيمَنَـــهْ وسَبْعَ رِمِيمَنَاتْ فِي عِرِيجْنَـهْ

ويظهر أنّ مدير السّجن ، وهو فرنسي استطاب الأغنية ، ورقصات عادل الجيّدة ، وتجسيمه لكلماتها ، فلم يتدخّل حتّى تمّت أبيات ثلاثة من الأغنية . وكان يقوم أحد المساجين في كلّ بيت ويساوق عادل في رقصته . من الجزّار :

مِشِتْ رُمَّانَهْ تِشْرِي فِي اللَّحَمْ   قَالِ لْهَا الْجَزَّارْ هِزِّلِي قَدَمْ
هَزِّتْ لُو قَدْمِينْ وَعَطَاهَا اللَّحَمْ   وَقَالِ لْهَا يَا لِلاَّ تَاكُلْ بِالْهَنَا

إلى العَطّار :

مِشِتْ رُمَّانَهْ تِشْرِي فِي السَّوَاكْ   قَالِ لْهَا الْعَطَّارْ خَلِّينِي نَرَاكْ
وَرَتُّو وُجْهَهَا وَأَعْطَاهَا السَّوَاكْ   وَقَالِ لْهَا يَا لِلاَّ تَعَرِّسْ بِالْهَنَا

إلى المَعّاز :

مِشِتْ رُمَّانَهْ تِشْرِي فِي الْحَلِيبْ   قَالِ لْهَا الْمَعَّازْ هَزِّلِي نِصِيبْ
هَزِّتْ لَهُ شُوَيَّهْ وَأَعْطَاهَا الْحَلِيبْ   قَالِ لْهَا يَا لِلاَّ تُشْرُبْ بِالْهَنَا

ولما فتح باب الغرفة ، وظهر الحرّاس ومدير السّجن ، هدأ الجمع وكأنّ شيئا لم يكن . فنادى مدير السّجن عادل ونظر إليه نظرة فيها احتقار وقال :

ـــ لنا إذن بإخراجك من هنا .

وفهم المساجين أنّ عادل سيحال على المحكمة العسكرية فكانوا يردّدون الواحد بعد الآخر :

ـــ في الأمان يَا خُونَا عادل . بِشْ تَخَلِّي عَلِينَا بُقْعَهْ ... رَبِّ يَخَلِّصْ وَخْلِكْ ...

ولمّا اتّجهنا إلى مكتب المدير قلت لعادل :

ـــ لقد كنت توقّعت منك هذا ... وكنت نصحتك ألّا تنساق مع هؤلاء ... وأنت كعادتك لا تتحكّم في نفسك .

فأجاب :

ـــ والله هُمْ أُنَاسٌ طيّبون .

ـــ أرقصوك كما شاؤوا ... هم تشفّوا منك وضحكوا على ذقنك .

ووصلنا إلى مكتب المدير فدخلنا ، وجلسنا وإذا بالمدير يقول :

ـــ التّعليمات التي وصلتني هي كالآتي : « أسلّمكم ... مُونْ أُجُودَانْ عادل بمقتضى ورقة رسميّة وأعتبره من الآن تحت سلطة حرس الباي ... وتحت مسؤوليّتكم أنتم بالخصوص ... وعلى كلّ فالكولونيل في انتظاركم ليرتّب الأمر بصورة قانونيّة ، وعمليّة » .

ومن هناك ركبنا السيّارة ، وفتح لنا باب السّجن ، مرّة أخرى على مصراعيه ، ولكن ليفلت عادل من عالم كان يغيّر مجرى حياته ، ويضعه بكلّ عنف أمام واقع آخر للحياة : تنكشف فيه بدون تمويه ولا تضليل حقيقة الإنسان ، بوجهه المأسوي المليء أسًى وحزنا . إذ يختلط وراء أسوار هذا العالم ، المذنب بالبريء ، والضحيّة بالجلّاد ، ويصنع صنف من الأخوّة ، وتنسج صورة من الحياة ، لعلّهما أقرب إلى الإنسانيّة من العالم الخارجي . ولكنّ واقع الحياة المكشوف هذا ، لا يقدر أمثال عادل على الصّمود أمامه . بل هو سيدفعه إلى الانهيار ، وسيضعف ليصلب عود الآخرين .

ولمّا يمّمنا شطر وزارة الحرب كنت أظنّ أنّ عادل سيكون أحسن حالا ، وأنّه سينبسط للتطوّر المحمود الذي سارت عليه الأحداث. ولكنّه قطّب جبينه ، وأسند كتفيه إلى ظهر كرسيّ السيّارة في جلسة باشويّة

فيها خيلاء وتعال . ونصب باكِيتَتَهُ واقفة بين فخذيه ، ووضع يديه الواحدة على الأخرى فوق رأس البَاكِيتَة المفضّض ، وبقي صامتا برهة ثم قال :

ــ ما نراه لا يسكن أبدا فيما نقوله ونتصوّره . وهذه السيّارة التي تنهب الأرض تارة وتتوقّف أخرى لثقل حركة المرور ، قد لفّت الزّمان والمكان ، وأصبح ما نراه من نافذتها لا معنى له مثلما الذي أقوله في نفسي فهو لا معنى له أيضا . الرّؤية خرجت عن الزّمان والمكان ، وأصبح البَرّانِيّ خارجا عن نفسي وعن أيّ مكان وزمان .

قلت له ، وأنا لم أفهم في الواقع معنى تهويماته :

ــ الوقت ليس وقت فلسفة ، وعندما ستختلي بنفسك في غرفتك بقصر باردو في إمكانك أن تتفلسف كما تشاء .

ــ معنى ذلك أنّني سأكون حرّا . أتظنّ أنّني كنت حرّا ، قبل أن أدخل « حَبْسْ إجْدِيدْ » . لم أشعر قبل ذلك ، بأنّني حرّ ، بل إنّ العاصمة التي أتنقّل فيها ، من مكان إلى مكان ، كانت ، بالنسبة إليّ ، سجنا كبيرا . الحريّة من خلق وعينا ، مهما كان مصدرها ، وهي التي نسمو بمقتضاها ، ونعلو من جرّاها ، إن وعينا بها . أمّا إذا لم يتصوّرها فكرنا، ولم يضعها في حسابه ، فهي غير موجودة تماما . الحريّة ملك لنا إن وعيناها ، بينما السّجن هو المالك لنا . هي علاقة السيّد بالعبد . ولكنّ السيّد إذا كان غير واع بأنّه حرّ ، أو لا طاقة له بحريّته ، فما الفرق بينه وبين العبد : عبد العبوديّة لا العبادة . نحن عبيد ولسنا عبادا . فمتى نكون عبادا . الأجواء تتحكّم فينا ، وتوهمنا أنّنا نتحرّك بحريّة . ولكنّ الكائن الذي ينشد التّعالي والسّمو ، وفي الآن نفسه ، يشعر بأنّه محكوم بهذه الأجواء هو بين بين لا يعرف أين يتّجه. لا تطابق بين القيمة والواقع أبدا .

ـ منذ يومين وأنا مشغول بأمورك ، ومن جرّاء ذلك أصبحت مهدّدا في مصيري ، ومصير أولادي ، وأنا تتلاقفني السّلط المتنافرة في هذه البلاد : سلطة البايات ، وسلطة الفرنسيّين ، وسلطة الأعيان ، وأنا أعوم بينها ، وأحاول ألاّ أغرق ، لأنقذك ، وأنت تتفلسف ، ولست راضيا بالمجهود الذي أبذله . إنّ ما وقع لي منذ يومين يشيب منه الولدان ، وأنا لست لا من البايات ، ولا زعيما سياسيّا ، ولا ابنا من أبناء الأعيان، ولا مجاهدا ، أنا جنديّ لا يهمّني ، من أمركم شيئا . أطبّق ما أومر به مثل جنود الدّنيا كلّها . أمّا الذي يهمّني قبل كل شيء فهو مصير عائلتي .

وكنت أظنّ أنّه سيردّ الفعل بعد هذه الهجمة الشّرسة عليه . ولكنّه قال :

ـ ليس صحيحا . لو أنّ كلّ الذين لهم ذرّة من السّلطة في هذه البلاد يتصرّفون مثلك لأصبح المجتمع بخير ، ولما تدهورت أحوالنا إلى هذا الحدّ،وأصابنا العسف والظّلم بألوانه .

ثمّ سكت وبعد قليل نظر إليّ وقال :

ـ ألا ترى أنّني في هذين اليومين ما فتئت في عبور دائم . أعبر من مكان إلى آخر . أدخل بابا ، ثمّ أخرج منه ، والباب هو الباب ولكنّه في كلّ مرّة له معنى : باب الدخول ليس كباب الخروج . الإنسان قبل أن يكون ناطقا هو كائن عابر . هو كالموج يدوم لحظة كَرْكَرَتِهَا . هو عنيف مثلها . أين منه الخلود . لا خلود إلاّ في الأشياء التي تبقى شاهدة عليه . رِتَاجُ هذا السّجن كم شهد من سجين يدخل ثم يخرج. هو الوحيد الذي بقي خالدا ، أمّا الآخرون فهم عابرون ، زائلون ، كذبابة مَايُو ، وبَنَاتِ يَوْمٍ .

وعند ذلك رَدّدت بصوت عال، مرّات ومرّات : ذبابة مَايُو ثمّ قلت :

ــ و« عُصْبَانَةُ » مَايُو التي تسحر بها النّساء أزواجهنّ .

فقهقه عادل قهقهة طويلة ثمّ رجع إلى تجهّمه ، وكأنّه ندم عليها وقال :

ــ لست أدري لم قال الرّسول ﷺ : « اللّهمّ اِجعلنا ممّن يعبَر الدّنيا ولا يعبُرُها » . أي ممّن يختبرها ولا يموت سريعا .

وفي تلك اللّحظة وقفت السيّارة أمام الوزارة ، ونزلت ونزل عادل منها ، وقلت لِفَنْتَسَاتْ أوصله إلى مكتبي وابق معه حتى يستقبلني الكولونيل . فقال :

ــ والكولونيل .

فقلت له ناهرا إيّاه نهر الكلاب :

ــ هناك الحاجب المدنّي يمكن أن يقوم بالعمل خيرا منك .

وحيّاني في انكسار ، وصاحب عادل وأنا أنظر إليهما يجتازان المجاز، حتى وصلا المكتب ولمحت رأسيهما يظهران من بلّور الشبّاك المشرف على رواق يفضي إلى بهو كبير انتشرت فيه أحواض من الأزهار، والنّباتات الغريبة عن تربتنا ، والأشجار المتعارفة عندنا كالنّخل والسّرو والصّنوبر وغيرها . ولم ألبث أن دخلت مكتب الكولونيل وقلت له :

ــ مُونْ كولونيل ... أتممت المهمّة وعادل في مكتبي .

ــ أريد أن أراه .

وغمغمت بعض الكلام ثمّ قلت له :

ـــ الأحسن ألّا تراه اليوم .

ففهم قصدي وقال :

ـــ إذن ... هذا عادل معين أي ضابط (وابتسم) برتبة قبطان ... يُوزْبَاشِي ... آ ... هكذا . (وضحك) سجّل في التّقرير اليومي أنّه معاقب لمدّة ستحدّد فيما بعد .

ـــ وسبب العقاب .

ـــ آ ... (وفكّر لحظات) سلك سلوكا يتنافى مع رتبته ... ضعه في الغرفة المعدّة للبايات في قصر باردو ... احرص على أن يكون دائما أمام الغرفة جنديّ بسلاحه لحراسته ...

ـــ لا بدّ من تعيين أُومْبَاشِي (عَرِيف) يرتّب هذه الحراسة . الأُمْبَاشِي حَاجَ كُرُنْبَهْ مثلا ...

ـــ هذا الملحق بالفريك مصطفى ... كلّ شيء هنا مدعاة للضّحك ... أليس هو ذاك الأسود الذي يشبه رأسه الْكُرُنْبُ ...

ـــ هو نفسه .

ـــ إذن ليكن ذلك ... واعتبر أنّ قضيّة عادل انتهت بالنّسبة إليّ . وحذار إن رجعت أمامي مرّة أخرى فإنّي عند ذلك سأردّ الفعل بدون شفقة ولا رحمة .

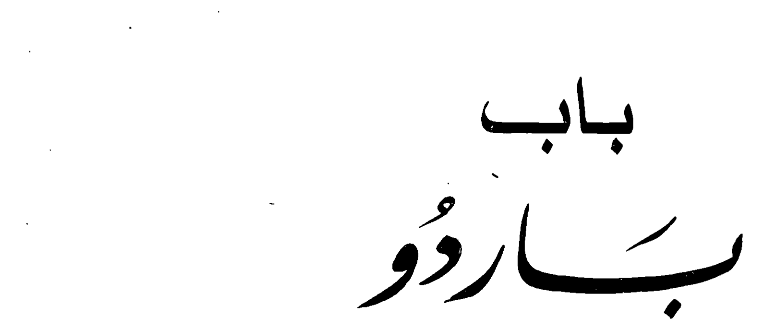
رجعت إلى مكتبي ، وصرفت فَنْتَسَاتْ ، وبقيت أنا وعادل . واستأذنته في أن أعدّ التقرير ، وأَتَلْفِنَ لثكنة باردو ، وللفريك مصطفى كلّ فيما يخصّه . وشرحت لعادل ما ينتظره مبيّنا أنّ ذلك يتماشى مع رتبته والعقاب مشرّف . وابتسم عندما تلفّظت بكلمة مشرّف ، ولم يقل

شيئا ، ولا بدّ أنّه كان مشغولا بأشياء ليس في إمكاني معرفتها ، لأنّ عادل يتميّز بغرابة ردود فعله في مثل هذه المواقف .

ولمّا انتهيت من كلّ هذه الأعمال ، وقدّمت التّقرير ، ليمضيه لكولونيل ، وسلّمته إلى مكتب الضّبط ليرسل إلى ثكنة باردو ، ويُلقى مام الضبّاط لتنفيذ ما احتواه من أوامر ، خرجت أنا وعادل ، وركبنا لسيّارة مرّة أخرى ، وجزنا بها نهج « قَاعْ الْمِزْوِدْ » اختصارا للطّريق اجتزنا « بَابْ الْعُلُوجْ» في اتّجاه « بَابْ سَعْدُونْ » ومررنا أمام « حَبْسْ جْدِيدْ » فرمق عادل بابه الكبير ، وجمجم كلاما لم أتبيّنه ، ولمّا وصلنا لى مستوى « الْحَنَايَا » تنحنح ثم سمعت منه كَرْكَرَة كأنّها صادرة عن مختنق ثم قال :

ــ دبّرت لي سجنا مذهّبا ... أتظنّ أنّني كنت طليقا ... أنا كنت في سجن مذهّب منذ نشأتي ... ومأساتي أنّني في كلّ مرّة أستسلم ... ألقي السّلاح ... أسلّم نفسي للعدوّ ... عدويّ هو الخنوع ... هو الذلّ ... هو الاستسلام ... الاستسلام للأمر الواقع ... أظنّك لم تفهم لماذا استطبت الحبس الجديد ... لأنّني فهمت أنّ أولائك الذين وجدتهم هناك لم يستسلموا للمجتمع ... ثاروا عليه ... قاوموه ... خرقوا قوانينه الخرقاء ... بطريقتهم ... بالإجرام أحيانا ... ولكن في أكثر الأحيان بثورتهم على الظّلم ... على العبوديّة ... أردت أن أتعلّم منهم هذا ... ولكنّني سأعمل على ألّا أستسلم في سجني المذهّب الذي ارتضيته لي ... سأبقى واقفا كالشّجرة ... شجرة ثمرتها الأسى والحزن لا محالة ... ولكنّها شجرة قائمة ... لا تتحرّك ... لا تتزعزع ... تبقى واقفة ... قائمة ... حتى بعد موتها :

ألا ترى الغرس لا تذوي كرائمـه إلّا على سوقها في سائر الأبد


باب

— 1 —

قال الشّيخ علي :

— تركت السيّارة « بَابْ سَعْدُونْ » وراءها ، وشقّت طريق باردو بين أشجار التّوت ، متجاوزة عربات التُّرْمْفَايْ التي يظهر منها النّاس كأنّهم أشباح ، تتراقص ، مختلفة الألوان والأحجام سواء أضاءتها الشّمس بأشعّة الغروب الباهتة ، أو تركتها ، تغلّفها ظلال تميل إلى تشويه أشكال الوجوه ، تحت الشّواشي أو الزّنانير ، أو العمائم ، أو الطّرابيش، أو القبّعات ، أو « الْكَلْبَاكَاتْ » أو الطّراطِيرِ ، أو العَرَّاقِيَّاتِ ، كأنّ المرء في فرجة مسرح الظلّ والْكَرَاكُوز .

وتقع العين من حين إلى آخر على « كَرِّيطَةٍ » أو « جَرْدِينَةٍ » أو « كَمْيُونَةٍ » آتية من سواني منّوبَهْ ، محمّلة بالخضر والغلال ، متّجهة نحو العاصمة ، لتزويد أهلها بما يلزمهم من قوت يومهم . وتضطرّ السيّارة آنًا إلى الوقوف وراء وسائل النّقل البطيئة فيتّضح عند ذلك هذا الخليط من النّاس سواء كانوا تونسيين أو أجانب على اختلاف لباسهم، وتعدّد هيآتاهم، من العامل البسيط بِبُلُوزَتِه وَزُنَّارِهِ، أو السّاحلي بِكَدْرُونِهِ، أو القروي بِحَرَامِهِ أو البَلْدِي بِجُبَّتِهِ وَبُرْنُسِهِ ، وألوان متعدّدة من العمائم « الزُّوبَتَّهْ » أو المطروز أو التَبْرُورِي أو المشَيَخِيَّة الزَّيتُونِيَّةِ ، أو المُتَفَرْنِجِ بطربوشه ، أو شاشِيَّتِهِ بِالْكُبِّيَتَهْ ، أو لابس « الْمَحْصُورَ » ، هذا عدا ما تلبسه الجاليات الأجنبية من لباس خاصّ بها ، وما تغطّي به رؤوسها من قُبَّعَات و« بِرِيَّاتٍ » ذات أشكال وألوان مختلفة .

ولما وصل عادل إلى « السَّانْتَارِي » تحرّك في مكانه ، وسوّى جلسته بعد أن كان متّكئا ، ملصقا جبينه ببلّور نافذة السيّارة ، وتنحنح وقال :

ـــ هذا باردو متنزّه الحفصيّين في أوّل أمره ، منذ القرن الرّابع عشر الميلادي ، لم يبق منه الاستعمار إلّا القليل . أين بابه الأصليّ ؟ هذا الذي ندخله الآن إنّما هو الذي بني بعد أن تهدّمت الأسوار ، وأزيلت المباني شيئا فشيئا ، بتؤدةٍ ورفق ، يلفّهما مَكْر سيِّء من الاستعمار ، وروح الإهمال ، والتّخريب والتدمير ، من التونسيّين بمختلف طبقاتهم وأصنافهم . المكر من الاستعمار عندما عزم بكلّ إصرار على تحطيم كلّ ما يشهد على أيّام عزّتنا ، ويدلّ على ثابت قيمنا . والإهمال ، والتّخريب ، والشّماتة من التونسيّين لمّا رضوا بذلك إشفاء لأغراض متباينة ، تبيّتها طبقة من المجتمع نحو طبقة أخرى ، وصنف من النّاس تجاه صنف آخر . أين الأسوار والأبراج التي كانت تحمي قصر باردو ودوره وحدائقه ؟ لم يبق منها إلّا القليل . وأين باب باردو وبرجه المثمّن الأضلاع وساعته الكبيرة ؟ وأين مجاز « الدَّمْس » المفضي من الباب نحو القصر إلى ممشى تصطفّ على يمينه الدّكاكين ؟ وأين ما حوله من مبان كان يسكنها الأمراء والوزراء . كلّ ذلك زال إلّا سجن « الزَّنْدَالَهْ » فإن الطغمة الحاكمة أبقته ليصبح حبسا للوطنيّين . وعوّض ما تهدّم بحديقة « غَنَّاء » . وادّعت مصلحة الأشغال العامة أنّها مبان منهارة كان عليها هدمها . فحتّى القبّة التي كانت تحفة من التّحف ، وكان على القوم ترميمها ، أخذتها معاول الهدم ، وصارت بقاياها وبقايا غيرها من العمران أكواما من الحجارة والتّراب ردمت بها البحيرة . ولكن أين جليزها ورخامها ؟ هكذا بلادنا كتب عليها من أوّل الخليقة أن تنقطع فيها سلسلة العمران ونسق السّند : فما أن يبنِيَ جيل مجدا من الأمجاد ، صيتا كان أو عمرانا ، حتى يأتيه جيل بعده من غير طبقته أو صنفه أو أمّته ، ويعمل على زعزعته ، ويتركه ينهار شيئا فشيئا إلى أن يندرس ، ويعفى ، شماتة ، وبغضا ، ودناءة ، ولؤما ، وغيظا مستحكما في النفّس ، وعنجهيّة لا تصدر إلّا عن حديثي النّعمة أو قريبي

العهد بالجاه ، أو العدوّ اللّدود . قلّ أن رأينا في هذه الرّبوع من يعترف لمن قبله بالرّيادة ، ويحافظ على المجد المؤثّل ، ويحرص على زكائه. وللاسف أنّنا نجد في صفوف من نتوسّم فيهم الذّكاء ، والعلم من يجيز ذلك باسم التقدّم أو الحداثة أو سنّة التّاريخ . بئس علمهم وفكرهم .

قال عبد اللّطيف لجدّه ممازجا :

ــ وأنت ماذا أجبته عن كلّ هذا وهو يقصد أمثالك .

فقاطعه الشّيخ علي بدون أن يترك له فسحة للكلام :

ــ لا أظنّه كان يقصدني بكلامه ، فهو أسمى أخلاقا ، وأعلى همّة، من أن يدور بخلده مثل هذا الأمر . فهو يعرف أنّ المجد ، والحسب، والنسب لم يستأثر به العدد القليل من الأسر المقيمة بالعاصمة فقط . فالمجد والشّهامة والقيم تجدها في المدن الكبار والعواصم المتوالية مثل المهدية والقيروان وفي القرى وحتّى بين البدو الأصيلين . والتفت إلى عبد اللّطيف وقال :

ــ أنا تعلّمت في حياتي ــ وخاصّة في تلك الفترة المليئة بالتقلّبات، والظّلم والعدوان ــ أن أنصت وأسجّل ، ولا أتكلّم إلا عند الحاجة . ماذا تريد منّي أن أقول لعادل وأنا أقوده في تلك الساعة ، في مهمّة رسميّة ، إلى السّجن . لم نكن في مجلس نتداول فيه الحديث ونتساجل.

وسكت عبد اللّطيف واشرأبّت أعناق الحاضرين في انتظار التعرّف إلى أطوار قصّة عادل .

قال الشّيخ علي :

ــ ولم نلبث أن وصلنا إلى البطحاء ووقفنا أمام « دُرُوجْ الصّيُودَهْ »

ونزل عادل واتّجه نحو المسجد المقابل للقصر على مسافة لا تعدو المائة متر ، فلفّ ببصره ، من اليمين إلى الشّمال ، الحديقة المخضرّة ، المزهرة، والمتحف العلويّ . فلم ير أحدا في ذلك الوقت . وكان المسؤول عن القصر في انتظارنا . فحيّانا وصعدنا الدّرج المحاط بأسود من رخام أبيض ، بعضها رابض والبعض الآخر نائم ، لنجد أنفسنا تحت « بُرْطَالٍ » يقوم على أعمدة من مرمر ، ذات تيجان لا تجانس بينها، وفوقها أقواس معلّاة . وسريعا ما أفضى بنا هذا الرّواق إلى « دَرِيبَهْ » واسعة بفضل أربعة أعمدة ، جذوعها ملوّنة ، وتيجانها وقواعدها من الرّخام الأبيض . وفوق هذه الأعمدة ، أقواس متوازية ، وسقف دمس، مزخرف « بِنَقْشْ حَدِيدَهْ » محلًّى بأروع ما جاد به الفنّ الأندلسيّ بتأثيراته المغربيّة والحسينيّة . والطّنف متكوّنة من مأطورات ، أقواس عقودها ثلاثيّة الفصوص . أمّا بواطن العقد ، فعلى رسم النّوار ، والدّمس نقش على نعت النّجوم والسّرو . ومن « الدَرِيبَهْ » دخلنا السقيفة المحلّاة جدرانها بالجليز الطّليانيّ ، الزّاهي الألوان ، وبها دكّانتان ، متكآها من خشب مضلّع . ولم نهتمّ كثيرا بالغرفتين الموجودتين « بِالدَرِيبَهْ » وهما بيت العسّة القديمة ، والمحكمة ، بل دلفنا إلى الفناء الفسيح الأرجاء برواقه الرّائق نظاما ، وتنسيقا ، وبلاطه الرّخامي ، الأبيض النّاصع ، وأعمدته المرمريّة ، بتيجانها ، الحلزونيّة ، وأقواسها الحادّة شيئا ما . وحثّنا الخطى يقودنا المسؤول عن القصر ، وولجنا فناء صغيرا ، فتحته كائنة بين بيت الباشا ، والْخَزْنَهْ ، ويسمّى « وُسْطْ الدّارْ الصّغير » شكله متوازي السّطوح ، يفضي بنا بواسطة مجاز دَمْسٍ على صورة مرفق إلى « وُسْطْ الدّار الثّاني » وهذا الفناء أصغر من الأوّل ، ولكنّه يتميّز برواق عوّضتِ أقواسه بساكف دائريّ تحت إفرِيزٍ ، خشبيّ ، مطليّ بالدّهن على أعمدة ، رقيقة ، فارعة ، جذوعها مضلّعة ، أمّا قواعد الأعمدة فهي منشوريّة الشّكل ، وتيجانها غير متجانسة . ولم نخط خطوات قليلة حتّى

وجدنا على يسارنا بابين لغرفتين اثنتين : ذاك هو حَبْسُ الْبَايَات . فالغرفة الأولى مؤثّثة أحسن تأثيث ، ومعدّة للنّوم ، والثّانية ــ وتسمّى «القَنَّارِيَّهْ» بنافذتها الكبيرة غير المشبّكة بالحديد ــ تطلّ على الحديقة ، وتسمح للسّجين بأن يتخطّاها ، ويسرح في ملك الله ، من دون أن يراه العسس إمّا بصورة نهائيّة ، وبلا رجعة إذا ما هدأت تجاهه نفوس من أوغروا صدر الباي عليه أو بالرّجوع إلى حبسه إن بقي هناك موقد للنّيران وراءه. ولمّا زرنا الغرفتين ووجد عادل الإقامة لائقة قال :

ــ إذن سأبقى هنا طويلا .

ــ اسمع ، يا عادل ، يمكن أن تبقى أسبوعين ، أو شهرا أو ثلاثة أشهر ، لسنا ندري . فأنت في الواقع محبوس ، لا يمكن لك الخروج من الباب الرّئيسي إذ سيكون أمام الباب المفضي إلى « وُسْطْ الدّارْ» الثّاني عسكريّ بسلاحه. ولكن يمكن لك أن تخرج من نافذة «القَنَّارِيَهْ» بشرط ألّا يراك أحد وألّا تزور قصركم وأهلكم . وسيكون بين يديك « الْحَاجْ كُرُنْبَهْ » وهو الذي سيرافقك من حين إلى آخر إلى الحمّام المقابل ، ويسهر على شؤونك ، وكذلك الخادمة « شِيخَهْ » التي ستتكفّل بكلّ ما يتعلّق بلباسك وطعامك ، فهي الصّلة بينك وبين أهلك .

ــ ولكنّها بكماء .

ــ هكــــــــــذا التّعليمــــــــــــات .

وفي تلك اللّحظة جاء « الْحَاجْ كُرُنْبَهْ » وأعلمني أن العسكريّ يسأل عن التّعليمات . وعند ذلك ودّعت عادل وقلت له :

ــ لا حاجة لي في أن أوصيك بالحذر الشّديد . وعلى كلّ ، فسأتردّد

عليك يوميّا . وسأكون معك حريصا على أن تخرج من هذا السّجن المذهّب في أقرب وقت ممكن .

ونظر إلّي عادل نظرة تنمّ ، على حزن عميق ، وتقدّم إلّي وعانقني والعبرة تخنقه ، وهو يربّت على كتفي برفق وتودّد . ولما فارقته كانت دمعة واحدة تترقرق في عينه اليمنى ، وظننت أنّه رفع يده ليمسحها ، ولكنّه وضع كفَّه على طربوشه ليزيله ، ويزيل العرق المتصبّب من رأسه إلى جبينه .

— 2 —

جلس عادل أمام شبّاك ٱلْقَنَّارِيَّهْ ينظر منه إلى الحديقة ، ولمح من بين الأشجار جدران «الزَّنْدَالَهْ» في غروب شمس ألقت أشعّتها الباهتة، في ذلك اليوم المليء بالأحداث ، على هذا المبنى القديم ، وتبيّن أعلى السّور ، ولم يفته أن يتذكّر أنّ هناك نصبت المشنقة . فتراءى له «بَاشْ شَاطِرْ» بلباسه الأحمر عندما كان يحضر المواسم أمام الباي ويقول كلمات بالتّركيّة لا يفهمها أهل البلاد . كان يضحك من «بَاشْ شَاطِرْ» منذ صغره ، وفي كلّ مرّة ، ولكنّه في هذه المرّة ، لم يساوره إلّا الحزن والأسى وراحت الهواجس تتلاقفه حتّى انتشله صراخ مزعج، لم يألفه ، فأصغى فإذا زعقة تأتي من الحديقة كأنّها نعيق يقول :

— فَاقُوا .... فَاقُوا .... بِالطَّقْطَاقُو ....

ثمّ بعد هدأة لا تطول ، يعود الصّوت صارخا :

— دُوسيَّاتْ معيّنات ....

يتلو ذلك لغط لا يبين ....

وأطلّ عادل من النّافذة ، فوجد شخصا قصير القامة ، يدخل «بَابْ بَارْدُو» ماسكا «طَاسَهْ» كبيرة تتدلّى من سلك ، وهي من تلك العلب

التي حوت ـــ في أيّام عزّها ـــ سمكا أو تنّا أو غيرها من المصبّرات ، قبل رميها في الزّبالة ، ليلتقطها هذا الرّهط من الناس . لقد زال دهنها ، وأكلها الصّدأ من كلّ جانب ، ولم يبق من لمعانها القديم ، إلا بقع تتلألأ ، جاهدة ، عندما ترميها الشّمس المحتضرة بشعاع بائس عليل . وعلى رأسه أطلال طربوش ، زالت قولبته ، وتكسّرت حروفه ، وبقيت فيه من «الكُبّيتَه» السّوداء بضعة خيوط لزجة، مالت إلى اللّون القسطلي، حماها من السّقوط صمغ قوامه العرق والغبار وندى العشب عندما يتوسّده صاحبنا . لقد تلاءم معه الطّربوش تلاؤما ، لا يشكّ في أنّه لبوسه ، فكأنّه صنع له خصّيصا . فلا يتطرّق لرائيه أيّ شكّ في أنّه عرف رأسا غير هذا الرّأس ، واحتضن شعرا غير هذا الشعر الملبّد ، المسنون ، ولا يذهبنّ به الظنّ إلى أنّ رجلا من علية القوم ، رعاه في يوم من الأيّام وأمرّ الفرشاة عدّة مرّات ، وجعل له قالبا ، يملأ فراغه عندما يفارق الرّأس حفاظا عليه ، وخوفا من زوال ألقه وتغيّر شكله الأسطوانيّ .

وفي ذلك الوقت دخل «الحاج كرنبه» في زيّه العسكريّ ، و حيّا عادل وقال له :

ـــ لاتنزعج يا سيّدي من هذا الرّجل . هو الحَشَايِشِيّ يسكن هذه الحديقة منذ زمان ، ويأكل من فضلات الجند ، يضعها خليطا في «طَاسَه» . لا همّ له في هذه الأيّام إلاّ الصراخ بهذه الكلمات . لقد تأثّر بما يحدث من أحداث في هذه الفترة . كان غنيّا في أوّل حياته ، غريبا حلّ بالعاصمة ، في شبابه ، ولكنّ المصائب تساورته بعد ذلك ، فضاع ماله ، وجاهه ، وعقله أيضا .فسكن الحديقة ، ورضي بفضلات الجند ، وغاب عن واقع الحياة بفقدان عقله ، وبالإدمان على الكحول الصّالحة للشرب وغير الصّالحة .

ولمح عادل الحشايشي ، وهو يهمّ بالجلوس على مقعد حجريّ ، ثم رآه ينظر إليه وهو أمام النّافذة ويرفع يديه فسُمع «لِلسَّطْلَه» رنين، وعاد الصّراخ من جديد :

ــ فَاقُوا ..؟.. فَاقُوا .... بِالطَّقْطَاقُو ....
ــ دُوسِيَّاتْ معيّنات ....
مع غمغمة ، ولغط كلام غير مفهوم .

نظر عادل إلى سترة « الحَشَايِشِي » فوجدها أوسع منه ، وأطول يحسبها الرّائي معطفا ، ولكنّه تهلهل وبلي وظهرت من الكتف والجوانب البطانة البيضاء . ولم يبن من السّروال إلا أسفله المطويّ طيّات عديدة لطوله ، إلى حدّ يعسر الجزم بأنّه يلبس حذاء أو بلغة ، أو قبقابا ، أو أيّ شيء آخر .

وتأثّر عادل من ذلك المنظر ، وتشاءم منه ، وقال«للحاج كُرنبه» : أرأيت مصير النّابهين في هذه البلاد ... لا خيار لهم إلّا في المقاومة والكفاح حتّى الموت أو الهجرة أو ضياع العقل . وتذكّر أنّ «الحاج كرنبه» لا يفهم من هذه الأمور شيئا وأنه من ذلك الصّنف الذي في إمكانه أن يعمّر ، ويعيش سعيدا : ينعم بالشّهوتين ، ويقوم بما يطلب منه ، إنْ خيرا أو شرّا ، في وفاء وأمانة لسيّده ، لا مكان لديه لوخز الضّمير ، وتوبيخه ، ولا للقيم والمثل ووزنها ، هو عيش العبيد ، وحياة التّقليد . هو النّمط الذي شاع ، وعمّ في المجتمع . لكنّ علاقة «الحاج كرنبه» بسيّده واضحة ، لا غبار عليها ، أمّا علاقة سائر النّاس في المجتمع بأسيادهم ففيها الالتباس ، يظنّون أنّهم أحرار ولكنّهم عبيد ، لا يهمّهم ــ ولو تستّروا بالدّين وبالقيم ــ إلّا أن يحيوا اللّحظة ، معتقدين أنّ الحاضر ، سيكون هو المستقبل ، مقيمين كلّ ذلك على أساس الموجود اليوم ، محتقرين الماضي ، ورافضين له ، في قرارة أنفسهم ، خانعين أمام أسياد متعدّدين .

لمعت في ذهنه أحداث السّبت فقال في نفسه :
ــ إلّا هذه القلّة القليلة التي رضيت بالموت في سبيل الحريّة ، وخيّرت

السّجن على حياة العبوديّة . وتمنّى لو كان في هذه «الزَّندَالَهْ» التي هي أمامه ، على هذا السّجن المذهّب ، سجن المهزلة ، ولعن السّاعة التي وجد فيها بقصر ذاك الباي الصّغير ، وندم على الصّدفة الّتي جعلت علي، يخلّصه من الشّرطي . ثمّ قال بصوت عال :

ــ إنّه الجبن تعلّمناه من هذا المجتمع ... تعلّمته من ...

وعند ذلك قال له «الحاج كُرنْبَه» :

ــ سِيدِي عادل يَحِبْ الجِبنْ ... هذه «شيخَهْ» مقبلة بالعشاء ، وستقدّم لك الجبن مثل العادة أعرف أنّك تحبه كثيرا .

فضحك عادل ضحكة عالية ، والتفت إلى باب الغرفة ، فلمح ثقبة صغيرة جدّا ، ينبعث منها ضوء المَجَازِ . فقال ما هذه يا «حاج كرنبه» ... أنا أعرف أنّ المسجون هنا يتلصّص عليه القوم ... احرص على ألّا يدخل أحد المَجَاز إلّا أنت ..

ــ كِن مطمئنّا سِيدِي مصطفى .

وفي تلك اللحظة جاءت الخادمة «شِيخَه» بصينيّة العشاء ، ووضعتها على المائدة ، وأشارت بيديها إلى أنّها هيّأت له كسكسيّا بالعصبان . فرفع الغطاء وقال لها مثل العادة ، وهي لا تسمعه :

ــ عصبان شِيخَةَ ملفوف على حِكَمٍ .

ثمّ سألها بالإشارة لماذا لم تأت سيّدتها ليلى لزيارته . فأفهمته أنّها مريضة . ولكنّ لسان حالها يقول إنّها غاضبة عليه . فألحّ عليها بالإشارة تلو الإشارة ليعرف السّبب الحقيقيّ حتّى فهم منها أنّ زوجته غاضبة حقيقة ، وأنّها لن تأتي إليه ، ولو بقي طول الدّهر .

وما إن تبيّن هذا الأمر حتى دخلت الغرفة ، وأشرت إلى «الحاج كرنبه» وشِيخَهْ بالخروج . وسألت عادل :

ـــ كيف ستمضي وقتك إذن .
ـــ في المطالعة ، وفي الحمّام ، والهربة بين الفينة والأخرى .
وضحك ضحكة فيها مرارة . فقلت له :
ـــ أنا أنصحك أن تكتب سيرتك وأن تستخلص العبرة لتخرج من هنا شخصا آخر ، قد طلّق التردّد والتّذبذب إلى الأبد .
ـــ الحياة أعقد ممّا تتصوّر ... ولكن هي فكرة طيّبة أن أشغل نفسي بالكتابة ...

وغرق في سهوم لم يدم طويلا ثمّ قال :
ـــ وهل أنا قادر على الكتابة... أتظنّ أنّ ذلك أمر يسير . فأنا لست شاعرا ، ولا أديبا ، ولا كاتبا ، ولو كنت أحدهم لوجدت توازني ... ولكنّني دعيّ على الإبداع من سوء حظّي .
ـــ لا ... لا تقل هذا ... جرّب ... وها أنا جئتك بدفتر ومحبرة ، «وَبْلُومَهْ» (ريشة) .
ـــ طيّب ... سأجرّب .

وخرجت ولقيت «الحاج كرنبه» جالسا على كرسيّ فقلت له :
ـــ اسمع أنت مسؤول عن عادل ... يجب أن تعرف ما يفعل ... من ثقبة الغرفة ، ومن ثقبة «القَنَّارِيَّة» ... راقبه ليلا نهارا ... أنا أخشى على حياته منه ... أتفهم يا زُكَرَهْ مُشَمَّعَه ... وإذا هو خرج من نافذة «القَنَّارِيَّهْ» فاتبعه . واحرص على ألّا يدخل أحد ، من «وُسْط الدَّارْ» !... إعْطِ التَّعليمات لكلّ عسكريّ يحرسه ... ويمكن لك أن تُتَلْفِنَ لي من «بيتْ العَسَّهْ» في مدخل القصر ... أسمعت ... أنت الآن لا تأتمر إلّا بأوامري ... حتّى الفريك مصطفى فهو أجنبيّ عنك في هذه الفترة !.. وإذا خالفت أوامري فالسّجن نصيبك ... أسمعت ...
ـــ نعم مُونْ أجُودَانْ ...

وهكذا توصّلت ، بقوّة لم أعهدها في نفسي من قبل ، أن أرعى حقّ الصّداقة ، وأتلافى مصيرا ، كان يترقّب عادل ، فيه المصائب والمحن . ولكنّني سأتمكّن من أن أطلّع على ماضي عادل ، وعلى كلّ التّفاصيل التي أوصلته إلى هذه الحال ، سواء عن طريق ما سيكتبه من مذكّرات أو ما سيخبرني به «الحاج كرنبه» أو ما سينعقد بيني وبينه من لقاءات فيها الحديث الطّويل والنّجوى المثيرة .

استرسل الشّيخ علي في الحديث عن عادل وقال :
ــ تعوّدت أن أعرّج في الصّباح على قصر باردو ، متفقّدا أحوال عادل ، قبل أن أركب التُّرنفاي ، ملتحقا بوزارة الحرب ، وكذلك في العشيّة عند الرّجوع من مكتبي . ولم يمرّ يوم واحد حتّى تبيّنت أن عادل حدّد نشاطه بصورة تطمئنني إذ هو قال لي بصراحة :

ــ لا تحتر في أمرك فأنا لن أعقّد مهمّتك ... سيكون وقتي موزّعا بين الحمام والأكل والكتابة ورؤية سارّة ، والنّوم بطبيعة الحال ... سأشبع به كما لم أشبع به من قبل ... أنا لا أريد أن يعرف أصدقائي أنّي هنا ... لقد قلت «للحاج كرنبه» أن يقول للنّاس أنّني مسافر ... بالطّبع فإنّ الأعداء وباثّو الإشاعات ، سينشرون في خصوصي ما يريدون من أخبار ... على كلّ فالنّاس الآن مشغولون كلّهم بما حدث يوم 9 أفريل ، وما تبعه من إرهاب وسحق للمقاومة وتعقّب للوطنيين . وكل أمنيّتي هو ألّا يطول هذا الحبس المزيّف ... كلّ شيء مزيّف ... مصطنع في حياتي ... حتّى الحبس ... هي حياة الزّيف ... يا علي ... كتبت عليّ ، رغم أنّني حاولت أن أهرب منها ... وأن ألقي بنفسي في واقع النّاس ... ولكن ما حيلتي ... الأقدار هي التّي تزجّ بي فيما لا أتوقّعه ولا أرضاه ...

وكنت أتعمّد ألّا أتعمّق معه في الحديث ، ولا أثير بصحبته قضايا ، تزيد في حيرته وتردّده ، وأشجّعه على الاستماع إلى «الحاج كرنبه» و «الخادمة شيخه» . فالأوّل يملأ أذنيه بما يجري في قصر والده ، وشيخه تشغله بايماءاتها التي يفهمها لتعوّده بها . ثم عرفت من «الحاج كرنبه» أنّها تشغله أيضا بأشياء أخرى .

وعند ذلك قاطعه عبد اللطيف وقال له وماهي هذه الأشياء الأخرى .
ـــ أنت تعرفها ، وقد أطلعتك عليها بالتدقيق ، ولا فائدة من ذكرها الآن . سيأتي السّياق الذّي سأختاره لها حتّى تكون ألطف في آذان هؤلاء الشبّان وأكثر عبرة لهم .

ثمّ ضحك . وهو في الواقع لن يتورّع عند الحاجة ، من التّصريح بما يعنّ له واجدا دائما المبرّر لكلّ ما يقوله . ثمّ واصل حديثه قائلا :
ـــ ومن الأيّام الأولى قال لي عادل :
ـــ أتعرف ، يا علي ، إنّني أصبت في هذه الأيّام بالعلّة الكلبيّة ... الشّره أخذ كلّ كياني ... ما أن آكل طعاما ، حتّى تفتح لي أبواب الشّهيّة من جديد . وهذه شيخهْ أصبحت تتفنّن في تهيئة أطايب المأكولات التّونسيّة . تتقنها ، وتنتقي أحبّها إلّي . من «بُورِليس مَكَتِّفْ» ولحمة محمّرة والطّواجن ... يا علي ... والبنادق والرَّفْيُولُو و «الْمَرْقَهْ الْحُلُوَّه» والمَسْفُوف والمُصْلِي بألوانه : حُوتٌ ولحم ودجاج ... وطاجين المَلْصُوقة ، وطاجين الرِّيشْ ... وَرَكَائِبْ العَزُوزَة ، والشُّرْبَة وما أدراك ما الشُّرْبة ... والحلويّات والمرطّبات من قَمَاعَاتْ وَصُطُوشَاتْ ، وَقَصَبْ وَالطُّورْطَةْ المالحة والحُلُوَّهْ ، وحلوة المَغَارِفْ ، وبرِيكَةَ الحليب وما إليهما ، من معجون ، وعسل ، وخبز مشويّ ، وبسكويت تهفّتُ جِرَاءَ بطني . ولا ما أتعلّل به قبل الغداء من شراب الغلال ، وما يتبعها من مرطّبات وحلويّات . ولا العجالة من فواكه ومكَسّرات قبل إدراك الغداء تصدّني عن الإقبال بنهم ، وشهيّة ، على صنوف الطّعام المعدّة عند

الظّهر . ولا صنوف المقبّلات التي تتصدّر طعام العشاء قبل ساعات ، تمنعني من الغَرْفِ من أطايب الأكل الدّسم . يقول القدامى الشهيّة أفضل التّوابل ، ولكن أيّ توابل هذه مع العلّة الكلبيّة . لقد كدت أفقد الذّوق . فحتّى في اللّيل لا أفتأ أتقشّش «وَأُتَفْتِفُ» من هذا الطّعام الباقي أو ذاك . فحتّى كِسْرة الخبز المتبقيّة لا تفلت منّي . وأنواع الشّكلاطة جرّبتها كلّها ... وفي اللّيل يأخذني السّعار . إن أنا اقتصدت في أكلة العشاء . وفي الفجر ... كثيرا ما أدفع بالعسكري الذي يحرسني ، لِفَطَائِرِي بِاردوْ فيأتيني بما يشبع عائلة بأكملها ... والواقع أن العسكري يأكل معي نصيبا ... ما أحلى الفطائر في الفجر وبالعسل وهي مازالت تحرق اليدين ... و«الصُّحلب» كذلك ... ولكن للأسف لا أجده دائما هنا في باردو ... صحيح ... الشّتاء قد ولّى ... وليس من المعقول أن أطلب الصُّحْلُبَ في الصّيف ... حتّى الهرقمة فقد اشتهيتها ... لقد تذكّرت قصّة الفلاّح الذي يعمل ، طول النّهار ، مستعينا بثوره . ففي ليلة من اللّيالي سهر مع أصحابه ، ورجع إلى بيته ، والظّلمة مستحكمة ، اللّهم إلاّ بعض شعاع من قمر وإن لم يكتمل . وألحّ عليه الجوع ، ولعلّها آثار تعاطي التّكروري ، وما تبعه حفرت بطنه سعارا ، ولم يشأ إيقاظ أمّه لتدلّه على مكان العشاء . ولمح إناء في ركن من أركان الغرفة ، فرفع عنه الغطاء فإذا ما فيه مكوّم أحسن تكويم . وسرعان ما جذبه إليه ، يلقم ما حواه بجفاء وشدّة نهم حتّى أتى عليه . وفي الصّباح سألته أمّه قائلة :

ــ لماذا لم تَتَعَشَّ يَا ولدي .

ــ لقد تعشّيْتُ يا أمّي وكان طعاما لذيذا ... سلمت يداك ...

ــ كيف تَعَشّيْتَ وهذا كُسْكُسِيُّكَ بُخُضَرِهِ وفُولِه لم يمسسه أحد .

وتبيّن له ولأمّه أنّه تعشّى حصّة الثّور من النّخالة وما إليها . أنا ، يا علي ، لا أعرف من أيّ طبقة أنا . فلست من طبقة أولائك الذين

لهم من أصناف الطّعام أكثر ممّا لهم من الشّهيّة لأكلها . ولا أنا من طبقة من لهم شهيّة أكبر ممّا لديهم من أصناف الطّعام . أنا طبقة بأمّ رأسها نسيج وحده. إنّ أنانيّتي تظهر في أبشع مظهر بهذا النّهم ، بهذه الشّراهة ، بهذا النّهام ، بهذاالقشم .

واستغربت منه هذه الكلمات التي لا أعرفها فقلت له :

ـــ كفى تَفَيْهُقًا وتشدّقا.

ـــ وأيّ عمل أقوم به الآن غير المطالعة ، والبحث عن أسباب علّتي . هذه كتب القدامى من العرب وغيرهم من الشّعوب الأخرى لم تترك شيئا بدون تدقيق . فيا ليتني كنت كالحرباء أقتات من الهواء . أصحيح ، أنّ الحرباء هي كما ذكرت ؟

ـــ أنا أعرف أنّ الحرباء تتلوّن فيا ليتك كنت مثلها ، وكفيت نفسك وكفيتني هذا العناء .

ـــ إنّني أشعر أنّ في بطني هوّة لا تشبع من الطّعام . ألا ترى أنّ شريطة تسكنني...؟ نعم شريطة ، هذه الدّودة اللاّصقة بالأمعاء التّي تلتقط كلّ ما آكله . أم استحكمت بي آفة عصبيّة . وعلى كلّ فإنّي أفضّل أن أقضي من التّخمة خير من أن أموت جوعا . وأيّ عيش أفضل من تقضيته بين الأكل والنّوم . كلّ ليلة أقول في نفسي لو يقتنصني الموت وأنا نائم . أليس النّوم توأم الموت ؟ ولكنّه مكان لا أمن فيه . فهو لا يسعف بما تسعف به المنيّة من طمأنينة . هو مرض مزمن ، دفين استطابه الانسان، وأدمن عليه فلا يشفيه منه إلاّ الموت . مع أنّه كثيرا ما تنتابه أثناءه حمّى الحلم ، فيعكّر عليه صفو كدره ، ويشوّش عليه راحة نصبه .

وقاطعته وقلت له :

ـــ خاصة إذا أكلت كُسْكُسِيًّا بالعُصْبَانِ ، وأثقلته بِالرَّائِبِ ... ألا ترى ، يا عادل ، أنّك تحفر قبرك بأسنانك ، بأكلك هذا . ثمّ إنّ النّوم لا

يعين على إنجاز أيّ شيء ... لِمَ لَمْ تكتب في هذه الأيّام ولو حرفا واحدا ... أنت حقيقة على شفا هوّة ، ومكانها في غير بطنك ... أنا أنصحك بأن تصوم من الغد وأن تعتدل في الأكلَ والنّوم ... أكتب مذكّراتك يا رجل ، وسترى أنّك ستبتعد شيئا فشيئا عن شفا الهوّة ... إنّ نجاتك في أن تتلهّى بشيء ، يرجع إليك توازنك ... عدني ، يا عادل ، بحقّ الصّداقة والعشرة أن تصوم ، وتبدأ الكتابة من الغد .

وصمت برهة وقال :
ـــ أعدك بذلك ... ولكنّني سأتعب كثيرا ... تريدني أن أصبح حرباء أقتات من الهواء .

وخرجت لأسأل «الحاج كرنبه» عمّا التقطه من أخبار عادل . فوجدته متّكئا على سرير من أسرّة الميدان في أقصى المجاز ، يشرب كأسا من الشّاي . فأخفاه ، ووقف لتحيّتي فقلت له :
ـــ ماذا عندك من أخبار .
ـــ لا شيء .

وألححت عليه أن يطلعني عمّا يفعل عادل من الصّباح إلى أن ينام ليلا . فأجابني بكلّ بساطة :

ـــ لا شيء يذكر . غير أنّ سيدي عادل يأكل كثيرا في هذه الأيام . فهو دائما ، جوعان ، و«شيخهْ» لا تنفكّ تزوّده في كلّ وقت بأطايب المأكولات ... (وضحك ضحكة بلهاء) ... وأنا في الواقع يا مُونْ أجُودَانْ يصلني الخير الكثير منه ... وأنا قنوع ... وسيدي عادل أصبح كالصّبيّ ... تذكّرت كيف أنّه كان، وهو صغير ، يركب دائما «شيخهْ» التي تكبره بخمس سنوات ، وتركض به كما يفعل الحصان تماما . لقد عاد يركبها من جديد ... إنه يضع السّتائر ويظلّم الغرفة ... وأتعب كثيرا لأرى ما يفعل. ولكنّني أعرف أنّه ركب «شيخهْ» عندما أسمعها

تصيح : «أنَّ بْ بَ...بٌ» فأضع عيني فوق الثّقبة فأجد «شيخهْ» وفوقها عادل تتحرّك مثلما كانت تتحرّك معه وهو صبي ... مسكين سيدي عادل ... أصبح عقله كعقل الصّبيّ ... لم يبق له إلّا أن يطلب منّي ما كان يطلبه في صباه : أن يركب أكتافي ، ورقبتي ، ويطوّق عنقي برجليه ، ويأمرني بالرّكض مثل الحصان ... ولكنّه كبر وكبرت أنا ، ولن أقدر على حمله .

وكنت أسمعه ، وأنا أتعجّب من غفلة الرّجل ، فتركته ورجعت إلى عادل وقلت له :

ـــ ما هذه الحكاية ... هل تقضي وقتك في ركوب «شيخهْ» الآن .

فضحك عادل وقال :

ـــ لقد أدركني شبق غالب ... وليس في قدرتي أن أدفع غائلة الشّهوة... لقد أصبت أيضا بالعلّة الكلبيّة الشّبقيّة .. من غرائب الأمور أنّ «شيخهْ» البكماء ليست مثل الأوادم . فعلاوة على خرسها الذي شاطرت فيه البهائم ، شاركتها كذلك في وضع العمليّة الجنسيّة ... فلا يستقيم الأمر عند استلقائها ... أليس هذا بغريب ... وأنا أجزم أنّها لم تسبقها في هذا أيّة امرأة من أوّل الخليقة اللّهم ما كان من أمر «لِيلَتْ» كما روته الكتب المقدّسة القديمة التي تقول : إنّ الرّبّ خلق بعد آدم «لِيلْتْ» وهي المرأة الأولى مثلما خلق آدم . ولكنّ «لِيلْتْ» خلقت من حمإٍ مسنون بينما آدم من التّراب الخالص . ولم يستقم الأمر بين آدم «وليلْتْ» لأنّه عندما يريد أن يضاجعها كانت تتأذّى من وضع الاستلقاء الذي يطلبه منها . وتقول له : لماذا أجبر على أن أرقد تحتك . أنا أيضا خلقت مثلك من تراب وأنا وأنت سواء . ولم تظهر حوّاء إلّا بعد «لِيلْتْ» وبقيت هذه الأخيرة تعتبر في الأساطير الأشوريّة ، والبابليّة ، المرأة الشّيطان ، وروح اللّيل ، من العبرية ليل أي الظّلمة ، وليلاكّ في ملحمة

قُلْقَامِشْ . وكانت حسب الأساطير ، هي السبب فيما حاق بالمرأة والرجل الأوّلين من أخطار ، هما وسلالتهما ثمّ ألا تقول العرب عن نشوة المدام وبدء السّكر، ليلى الخمر ، وأمّ ليلى ، كناية عن الخمر السّوداء. فليلى هي السّكر وبالطبع الهوى والضّياع . وليس من الصّدف أن كان قيس المجنون ضحيّة لليلى ، إذ كانت نشوته وسكره ثمّ ضياعه وهلاكه . هي امرأة الغواية ، المهلكة إذن . كليلاي أنا هذه الخرساء التّي أتحفني بها أهلي .

فقاطعته مستغربا منه ما هو مقبل عليه من مطالعات وأفكار سوداء وقلت له :

ــ هل حقيقة ما ذكرته عن «شيخهْ»

فحلف بالأيمان المغلّطة أنّ الأمر كذلك ... وأنّه استطاب الوضع لأنّه انحدر إلى دركات هي إلى البهيميّة أقرب ، وبها ألصق ، وزاد قائلا :

ــ ألا تعرف أنّ إتيان المرأة وظهرها إلى السّماء كان جراما عند العرب ، وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول . وفي الحديث أنّ أهل الكتاب لا يأتون النّساء إلا على حَرْفٍ أي على جانب . ويقولون إنّ المرأة في غلمتها في هذا الوضع تُوغِفُ إيغَافَ الكلب ، ولم يعرفوا أنّ القطط أشدّ وطأة في هذا الباب من الكلاب . يا علي ... هذه قطط بَارْدُو تقضّ مضجعي في اللّيل . إنّ الواحد منها يأتي إلى شبّاك الغرفة لأكل ما تبقّى من الطّعام ، و لكنّ رأسه في مثل كبر رأسين من القطط العاديّة ... هو يتحدّاني ، ويريد أن يدخل عنوة بوقاحة العيّارين وقطّاع الطّرق ... يودّ لو يداهمني في البيت ، ويفتكّ من بين يديّ قطعة اللّحم أو الدّجاج ، إلّا أنّ كبر رأسه يمنعه من تخطّي حديد النّافذة ... ويحدجني بنظرة فيها الحقد

والكراهيّة، يرتدّ إلى الوراء مختالا كالأسد الـهصور... وهـو وصحبه يشنّونها حربا شعواء على الإناث من جنسهم... عواؤهم عندما يشتدّ يشعر بأنّ غلمتهم أشدّ من غلمة الكلاب... ولكنّه في الأوّل عواء لطيف، موقّع، يدلّ على أن القطّ يحذق المغازلة، والمناجاة، واللّطف غير أنّه رِنْدٌ في غلمته... ويقولون قطط باردو « الشَّرّ والخَلاَعَه » الخلاعة في معنى النُّزهة ، والترفُّه ، والشرّ في معنى الجوع . ولكن أيْن الشَّرّ وهي تغرف من فضلات «صُبَّة» العسكر ، عدا ما تسطو عليه بالخطف والاختلاس والإغارة . أمّا الخلاعة فالأحرى أن تعني المعنى الفصيح لا العامي . صدّقني إن قلت لك أنّني لم أر أشدّ خلاعة من هذه القطط ، وأغلبها شبقا ... هي أيضا بها العلّة الكلبيّة بوجهيها : النَّهم والشَّبق . سأصير قطُّوسا من قَطَاطِسِ بَارِدُو .

وقاطعته بعنف وقلت له :

ـــ ما هذا الهذيان ... هل أصبحت ضليلا ، وما عهدي بك هكذا . أم أنت تضالل . ثمّ إنّك لست متنكّسا ، ضعيفا ، حتّى تنساق إلى مثل هذا السّلوك .

ولم يسعفني بالجواب عن أسئلتي ، بل مضى مندفعا في حديثه يقول :

ـــ أتظنّ أنّ الأمر تبدّل عندي . فما الفرق بين «شيخه» و«ليلى» . الخرس يجمع بينهما ، وهما في انسجام تام : تفهم الواحدة ما تسرّ الأخرى ، وتتقاسمان الأعباء فيما يخصّني . وهي أيضا لا أسمع منها إلا : أبّ... بَبْ... أبّ ...بَبْ... «مثل شيخهْ» . وكلّ النّساء واحدة في الظّلمة ... ثمّ ما الفرق بين خفض النّساء في بعض البلدان ، حتى لا تكون غلمتهن شديدة ، صارخة ، وبين طلاق المرأة عند بعض الأقوام

إذا هي أوغفت فوق المطلوب ... وغاية ما في الأمر أن يقولوا لها :عليك بالسّكينة . أمّا الرّجل فله أن يصرخ بما شاء، ويستنجد حتّى بالأولياء والصّالحين ... وأغرب من هذا أن وصل الأمر بعبوديّة الرّجل للمرأة في حالات كثيرة إلى أن يحبّذ أن يلمّ بها وهي نائمة . إنّني أعيش في عالم أخرس . تمثيليّة أدوارها بدون كلام . تمثيليّة تمثّل بي وبغيري ... وأنا لا أشكو لأنّ الالآم المبرّحة خرساء ... صامتة ... والشّهوة كلّما عظمت كانت خرساء ... صامتة ... وكيف يتأتّى كسرها ، والتّغلّب عليها ، وهي مثل الصّحراء الفسيحة ، العارية من كلّ شيء ... كهذا الشّعب الأخرس الآن ، بعد سجن من كانوا يفصحون عنه . وكهذه الصّحافة المضروبة بالصّمت التي لا يرجع إليها نطقها إلّا بالحرّيّة ، وكهذه الدّولة التّي هي ليست إلّا تجسيما ، لصمت الشّعب ، بالقوانين والأوامر العليّة المستلبة لفكره ، ومبادراته الموضوعة رهن مشيئة هذه الطّغمة الحاكمة من المستعمرين وغيرهم . لم يبق إلّا الدّمع لغة للألم الصّامت ، وهذه الشّهيّة الخرساء تعويضا للعجز والتّعطّل ... وكم كان العثمانيّون على صواب ــ إن كان ذلك من الصّواب في شيء ــ عندما قرنوا بين الموت والخرس إذ كانوا يوكلون قتل ضحاياهم إلى ثالوث من الخرس كثالثة الأثافي ، يفاجىء الضّحيّة باللّيل برباط متين ... بالعروة الوثقى ... وضحك ضحكات فيها سخريّة مرّة ، فقلت له :

ــ يا عادل ، إني أخاف عليك من هذا الهراء ... ليلى ابنة خالك الجميلة الأنيقة ، الناطقة بخرسها ... إنّها تفصح عمّا تريد بالإشارات أحسن من كثيرات وهبهنّ الله النّطق ... هي قمّة في المدنيّة لم تصل إلى ما وصلت إليه واحدة من نسائنا ، علما ، ومعرفة ، واتّزان عقل ... وأكثر من هذا فهي تحبّك ، ولكنّها تخاف عليك ولا ترضى لك هذا التّيه ... إرجع إلى الصّواب ... يا رجل ...

فقاطعني وقال :

ــ ولماذا لا تزورني ، بل هي ترسل إليّ «شيخه» هذه المرأة البهيمة لتذلّني ... وتريد منّي أن أكون سويّا ... كيف لا أفقد توازني ... وأفعل في نفسي ما يفعله الغريم لغريمه ... أنت تعرف يا علي أنّك أنت إلاّ أنّك أنا ... أنت كما يقول الإفرنج «ألْتَارْ إيقُو» بالنّسبة إليّ ... ولكنّك وجدت توازنك وعرفت كيف تسير في هذا العالم الأخرس ، لأنك لم تنؤ بما أنوء به سلبيّا من ثقل التّاريخ ، ولا تجرجر مثلي أخطاء أسرتك ، ولا شبه هذا المجد المشبوه ... أنت تصنع حياتك من منطلق الحريّة ... وسلامة الطّينة والنّفس ... أمّا أنا فأصنعه من منطلق الإنتماء إلى مجد ضائع ، وعجز مشين إزاء الواقع الذي لفظني ، وقد حسبت أنّه سيحتضنني ، والحال أنّني وطّنت نفسي على أن أكون صادقا معه . فحتّى ليلى هذه التي تقول إنّها ، جميلة وأنيقة ، وقمّة في المدنيّة ، علاوة على الخرس الذي أصيبت به على إثر صدمة ألمّت بها عند مرض والدها أصبحت تمتلك شحنة كهربائية ثابتة تنعدم لها كلّ الآلات الّتي تلمسها. فهي لا تنفكّ تستحمّ لأنّها بذلك ينخفض الكهرباء فيها . أمّا إذا شعرت بصداع حادّ في رأسها فإنّ ذلك يدلّ على أنّها مشحونة كهربائيّا، وعلى قاب قوسين أو أدنى من التّسبّب في كارثة .

وتوقّف عن الكلام برهة ، وهو يلهث ، وكأنّه كان يجري ثمّ قال : أنا أشعر أنّني أدخل حياتي القهقرى .

ثم سكت فقلت له :

ــ اسمعني الآن جيّدا ... أنت هو إلاّ أنّك أنا . هذا صحيح ... لكنّني أنا عسكري بأتمّ معنى الكلمة ، وموكول إلي حراستك ورعايتك . ولهذا فمن الواجب عليك ــ سواء من منطلق الأخوّة والصّداقة أو من منطق وضعك كسجين ــ ولو في سجن مذهّب ــ أن تقوم بالضّبط بما سأمليه عليك الآن . أن تصوم من الغد ... وأن تبدأ الكتابة أيضا ، كما

قلت لك قبل ساعة ، وأنت قادر على ذلك ... وسأعطي تعليماتي إلى العسكريّ ، حتّى لا تدخل «شيخه» إلى الغرفة والقَنّارِيَّة . فتكتفي بتسليم الطّعام وغيره إلى «الحاجَ كُرُنْبه» ... لن تدخل هذه المرأة غرفتك من الآن فصاعدا . هذا قراري ولا رجعة فيه ... وثق أنّ ليلى ستزورك غدا ... ثمّ قل لي : ألا تلتقي بسارّة الممثّلة في الحديقة مساء كلّ يوم، وتبقى معها الساعات الطّوال ... ألا تكفيك مؤونة هذا العبث مع «شيخه» .

ــ اسمع ... علي ... قصّتي مع سارة يطول الحديث فيها . أما الآن فأنا متعب وأحتاج إلى الراحة ، وإلى التفكير في قراراتك هذه ، فأنا إنْ منحتك ثقتي فلي مآخذ عليك . ولا بدّ أن أصارحك بها ، وقد صنعت بيتا ، وأقول صنعت لأنّي كما تعلم لست شاعرا ، ولا أعترف بنفسي شاعرا ، وصغته كالآتي :

إِنْ أَكُنْ فِي ٱلْمَلاَمَةِ غَيْرَ حُرٍّ * كَانَ مَدْحِي إِذَنْ بِدُونِ ثَنَاء .

وودّعته ، وخرجت وأعطيت تعليمات صارمة «للحاج كرنبه» مهدّدا إيّاه بالحبس ، وبإبعاده عن عادل ــ وهذا بالنّسبة إليه أشقّ عليه من السّجن ــ وبتأخيره من رتبة أمباشي إلى جنديّ بسيط . وهو الذي خدم الفريك مصطفى صغيرا . وحجّ وهو طفل في الحادية عشرة من سنّه مع زوجة الفريك وسمع بأذنيه ما شاء الله من «الخُنَّار» وشاهد بعينيه غرائب الأمور والأحداث ، وشارك العائلة في أفراحها وأتراحها . وهو وفيّ أمين : فكأن ليس به سمع ولا بصر ولا نطق . وليس يدري المرء أهو مغفّل أم متغافل ، أحمق أم متحامق . ولكنّ الثّابت أنّه خدوم ، يتّبع التّعليمات بحذافيرها ، ويتفانى في عمله أيّ تفان .

ــ 4 ــ

وفي اللّيلة الموالية ، واصل الشّيخ علي حديثه عن عادل ، والعائلة في شوق إلى بقيّة القصّة وقال :

ـــ وفي اليوم الموالي ، بعد أن تناولت طعام الغداء ، توجّهت إلى قصر الفريك مصطفى لأقابل ليلى زوجة عادل ، بعد أن كنت في الصّباح قد تَلْفَنْتُ إلى «مُرَبِّيَتِهَا» التّي اتّفقت مع «لِلاَّتِهَا» على هذه السّاعة . وجدت «المربيّة» تنتظرني في «الدرِيبَهْ» ولمّا تخطّيناها ، ودلفنا إلى «وُسْط الدّار» الكبير ، لمحت جناحا ، مستقلاّ بعلوّ (طابق أوّل) لم أدخله في السّابق ، وكنت أعرف أنّه جعل دارا ثانية للضّيوف . ولمّا تزوّج عادل استقلّ هناك بعيدا عن سائر المباني الأخرى . كانت «المربيّه» تسير أمامي بخطى رفيقة ، لا تسمع ، بينما أنا بحذائي العسكريّ ، كنت أضرب رخام الفناء ، ضربات موقّعة ، خفّفت من غلوائها ، و لكنّها ، رغم ذلك ، كانت ترنّ رنينا في ذلك الصّمت المخيّم . وتنبّهت إلى أنّ الفريك مصطفى تعوّد في هذه الساعة أن ينسحب إلى مقصورته لقضاء القيلولة . وكان على أهل القصر أن يحافظوا ، مهما كانت التّكاليف على الهدوء ، ولا يقوموا بأيّ عمل يحدث ضجّة أو صوتا مزعجا . وتبيّنت أنّ عدّة نوافذ فتحت برفق ، وأبواب انفرجت لتظهر منها أعين ملاح ، وسوالف مغرية ، وفي بعض الأحيان برزت وجوه ملامحها أقلّ جمالا ، وأبسط زينة .

وفي ذلك الوقت خرجت «شيخه» كالثّعلب من غرفة ، تومىء بإشارات لم أول لها أيّ اهتمام ، بل لوّحت بيدي نحوها تلويحة ، فيها الإقصاء والإشمئزاز . فذابت من أمامي كما يذوب الملح يرمى في قدر تغلي . ومن «البرطال» صعدنا مدرجا من الأردواز بدورات متعدّدة . ولمّا وصلنا إلى الطّابق الأول ظهرت لنا قاعة طويلة مغطّاة بأقباء صغيرة ذات زوايا بارزة ، ومقسومة في وسطها بأعمدة من كذّال . وكانت هذه القاعة مؤثّثة أحسن أثاث ، مرتّبة ترتيبا فيه ذوق وفنّ ، مملوءة بالتّحف الثّمينة ، المعلّقة بالجدران ، أو الموضوعة على المناضد أو الأفاريز ، من سيوف ، وخناجر ، ومدافع مصغّرة ، ونياشين ، وعرائس ،

وأنياب فيلة ، ودمى من عاج ، ولوحات زيتيّة ، رسمت عليها صور شخصيّات أو مناظر طبيعيّة ، خلاّبة ، ورسوم مطرّزة بالحرير ، والعدس و«الكُونْتِيل» . وما أن ألقيت نظرة خاطفة على القاعة انشرح لها قلبي ، حتّى لمحت أمام باب المقصورة ، في أقصى الغرفة ، ليلى زوجة عادل ، حسبتها لوحة بريشة رسّام بارع، أو قمرا وضّاء، يخرج من بين السّحب، فيملأ الدّنيا نورا ، وجمالا . لقد رفّ قلبي رفّة ، وكدت أن أقف لأتأمّل هذه الغانية الفاتنة التي خسفت لطلعتها كلّ التّحف الموجودة في القاعة . ولكنّني ملكت نفسي ، وتقدّمت إليها مقبّلا يدها ، منحنيا تائقا ــ لولا الظّرف ــ إلى أن أسجد أمام هذه العلجيّة التّي يزلّ الطّرف عنها . وأوّل ما لاحظته هو أنّها تتحاشى أن يظهر عليها الخرس ، إذ اكتفت بالابتسام ، ودخلت المقصورة ، فتبعتها أنا و«المربّيه» . فوجدت نفسي في غرفة فسيحة الأرجاء ، وعرفت أنّها ليست مقصورة بل «فنّارية» تطل على السَّانِيَة من خلال شبّاك «بالزَّلاَبِيَةِ» واسع يمكّن المرء من التّمتّع بمنظر الجابيّة ، والنّاعورة ، والأشجار ، والأزهار .

لقد خصّصت ليلى هذه القاعة للمطالعة ، والرّسم والتّطريز . وفي ركن منها بيانو فورتي يدلّ على أنها تهوى الموسيقى ذوقا وممارسة . ولم تكن ليلى من البكم الصّمّ بل هي تسمع ، وتقرأ ، وتكتب بالفرنسيّة خاصّة ، ولكنّها أصيبت وهي طفلة صغيرة بالخرس عندما مرض والدها ، وهو من البايات وأشرف على الموت . ذلك أنّها حسّاسة ، لم تقو على الصّمود أمام تدهور وضع العائلة المالكة ، وضربات الزّمان التي كان المادّي ، وحطّا من قيمتهم أمام الشّعب. ورغم مساعي والدها لشفائها، بعد أن تعافى فإنّ كلّ ذلك باء بالفشل، فقنعت ليلى بالخرس ،
، بعد أن تعافى فإنّ كلّ ذلك باء بالفشل ، فقنعت ليلى بالخرس ،
ورضيته لها قسمة . ولكنّ عزيمتها الفولاذيّة مكّنتها من أن تثقّف نفسها ثقافة واسعة ، وتنصرف إلى الفنّ : رَسما ، وموسيقى ، وتطريزا .

قالت «المربّيه» وهي ترجمان ليلى ، تعرف خباياها وأسرارها :
ـ تقول لك للآتي أهلا وسهلا ... وتشكرك على وقفتك الحازمة إزاء زوجها عادل لإنقاذه من الورطة التّي وقع فيها ... ولكنّها مستاءة لما آل إليه أمره رغم كلّ المساعي ... فهو يستحقّ وضعا أحسن من هذا ، ولكنّ تدهور الأمور في هذا البلد ، أساءت إلى كلّ طبقات النّاس ... وأبعدت عادل عن وسطه ، وجعلته ، مذبذبا ، لا يعرف كيف يسير ، ولا إلى أين يتّجه .

ـ أنا متشرّف باستقبالك لي ، ومسرور بذلك ... وأنّ الذّي يجمع بيني ، و بين عادل ، صداقة ، متينة وودّ لا ينقطع ... وأنا أعرف ، كما تعرفين ، أنّه يمرّ بأزمة لا بدّ أن تتضافر جهودنا لتخطّيها . جهودك أنت ، يا سيدتي ، فأنت بثقافتك ، وتأثيرك عليه ، وحبّه لك ، وإعجابه بك ، قادرة على ترجيح الكفّة : كفّة التعقّل والاعتدال .

وأخذت القلم وكتبت بالفرنسية :
ـ هل تعتقد أنّه يحبّني ، وأنّه لا يحبّ امرأة أخرى كما يشاع .
ـ أنا أجزم لك بأنّه يحبّك ... وبأنّه ينتظرك في قصر باردو .
فكتبت :
ـ قالت لي شيخه إنّه لم يسأل عنّي ... ولم يبعث لي حتّى السّلام معها ، ولم يطلب منها أن تبلّغني شوقه لي ...
ـ «شيخه» ... أصبحت في هذه الأيّام لا تدخل إلى غرفته . فهي تسلّم الطّعام ، والثّياب ، وما يلزمه للحاج «كرنبه» فقط ... وأنا أجزم لك أنّه ينتظرك ، وفي شوق إليك .
وكتبت :
ـ هكذا ... إذن سأزوره عشيّة اليوم في حدود الخامسة ... أشعره بذلك .

وسررت بهذه النّتيجة . ولكنّني تبيّنت السّبب الذّي من أجله لم يجد عادل في جمال ليلى ما يشدّه طويلا . إن أسارير وجهها الجميل جامدة جمودا لا يحرّك في النّفس شيئا ، بل إن برودة تتسرّب ، شيئا فشيئا ، إلى النّاظر إليها ، تزيدها زمّة بشفتيها الرّقيقتين ، مسحة ، فيها قسوة من رجّح كفّة العقل ، والتّفكير ، على العاطفة ، والحماس ، وآثر التّأمّل ، وضرب الأخماس في الأسداس ، على المرح ، والضّحك ، وتبادل إحساس بإحساس .

وفي الغد ، علمت أنّ ليلى جاءته في «كَرُّوسَه» عشيّة ذلك اليوم . وقفت «الكَرُّوسَه» أمام «دُرُوج الصُّيُودة» ونزلت منها زوجة عادل ، وهي ملتحفة في سِفْسَارِي كاشفة عن رأسها ووجهها . وتلقّاها المسؤول عن القصر بالتّرحاب . وأمرت بعد ربع ساعة بصرف«الكَرُّوسَه» والإتيان بالعشاء ، ولم ترجع إلى بيتها إلاّ أثناء السّهرة . ولمّا سألت «الحاج كرنبه» عن أخبار عادل ضحك ضحكته البلهاء وقال :

ــ يا مُونْ أجُودَانْ ... لقد سمعت بأذني لِلّهْ ليلى تصيح مثل «شيخه» أَبّبْ ..بَبْ...بَبْ... مرّات عديدة ، ولكنّني لم أر شيئا إذا الظلام شديد .

ــ هل ترى الضّوء من الثّقبة الآن .

فانحنى وقال :

ــ لا مُونْ أجُودَانْ ... لا بدّ أن سيدي عادل نائم ... ولا بدّ أنّه أنزل السّتائر ...

ولم يفطن «الحاج كرنبه» أنّ عادل سدّ الثّقبة أو هو تغافل عن ذلك . فلم أرد البحث في الأمر لأنّني وجدت طريقة أخرى لعلاجه . ولم أعرف إلى يومنا هذا ، هل أنّ «الحاج كرنبه» مغفّل أو متغافل ؟

ولما دخلت غرفة عادل ، وجدته يشرف من «القَنَّارِيَهْ» على الحديقة . وصادف أن صعق الحشايشي في ذلك الوقت بملء شدقيه :

ــ فَاقُوا ... فَاقُوا ... بِالطَّقْطَاقُو ... دُوسِيَّاتْ مُعيّنات ...

فالتفت عادل إليّ وضحك وقال :

ــ في هذا الفجر ذهبت إلى الحمّام ... وأحكم الطّيّاب تمسيدي وتكميدي ... إنّني أحسّ بنفسي خفيفا ... ولكنّ الجوع يحفر الآن بطني ... يقطع أمعائي ... وتصعد إلى فمي شبه مرارة ... لم أفتأ أكزّ على أسناني ... ولم أقدر على كتابة حرف واحد .

ــ ستظهر نتيجة صومك بعد يومين ... تماد في ذلك ... أمّا الآن فحدّثني عن ليلى .

ــ ابتسم ابتسامة الإرتياح وقال .

ــ ماذا قلت لليلى . لقد كان لقاؤنا من أمتع ما عرفنا منذ أن تزوّجنا . ٱنظر إلى هذه الورقة وما كتبته فيها ... إنها لم تكتب لي ولو حرفا واحدا منذ زمان .

أخذت الورقة وقرأتها ، فكان خطّا من أجمل ما رأيت وكلاما هو النّجوى ... والشّعر معا . فهنّأته ، وحثثته على التّمادي في الصّوم ، مهما كانت الآلام التّي ستلمّ به ، وأوصيته خيرا بليلى ، وبنفسه أيضا ، وببدء الكتابة من الغد حتّى ينشغل عن الكتابة بها . ولمّا هممت بتوديعه استوقفني ،وأخذني من يدي ، وجذبني إلى النّافذة وأومأ قائلا :

ــ أنظر . أريت ذلك الشيخ ذا اللّحية البيضاء ، رأسه كأنّه رأس حَوَارِيٍّ .

ــ إنّه بابا عبدالله ، يدعو إلى إسلام شديد ، صلب ... شغله أن يجوب شوارع العاصمة ، وهو لا ينفكّ لابسا جبّة ، صيفا وشتاء ، بدون قميص ، وفي يد سبحة وفي الأخرى قفّة مملوءة بالكتب الصفراء ، والحروز ، ودلائل الخيرات ، ونوادر أبي نواس ، وراس الغول ، وغير ذلك من الكتب التّي تباع على الطّريق . وهو يدعو المارّة ، ومن يعتني بالاستماع إليه ، بعربيّة ، سليمة ، غنائيّة ، مؤثّرة ، لا تخلو من حماس للإسلام والمسلمين .

ـــ يدعو للإسلام في بلد الإسلام ... اسمع يا علي ... لقد وجدته في الفجر في الحمّام ... دخلت «مَطْهَرَةً» ولم أحدث جلبة ، وإذا بي أسمع في «المطهرة» المجاورة حديثا غريبا بين الطَّيَّابِ وبينه ... لقد ظنّا أن لا أحد هناك ، وحسبا أنّني مازلت في قبضة طيّابِي ... يقول الطّياب لبابا عبد الله «إنّ الكُوميسار بَيَارْ» يحثّك على أن ترابط حول «الزَّنْدَالَهْ» ... لأنّ هناك خبرا يشير إلى أنّ الدّستوريين المسجونين هنا ، سيحاولون الهرب بطريقة شيطانيّة ... ويأمرك كذلك ، وأنت مرابط في الحديقة ، بتتبّع حركات عادل ... ولو أنّه يشكّ في أنّ له صلة بالدّستوريين ... وعلى كلّ فسارّة تأتيه كلّ ليلة ، وتحاول أن تعرف كوامن نفسه ، وما يخبّئه من أسرار ، لأنّه كان على اتّصال بهم قبل حوادث 9 أفريل ... أمّا أنا فقد خَنَسْتُ حتّى خرجا الاثنان من المطهرة المجاورة ، وبقيت مدّة طويلة في مكاني إلى أن تبيّنت أنّهما لم يفطنا إلى وجودي هناك ... ولمّا التقينا في المقصورة ، حاول تجاهلي تماما ، ثمّ لمّا أراد الصّلاة دعاني إليها فأبيت ... وقلت في نفسي لا أصلّي وراء قوّاد ... ولكنّه انهال عليّ نصحا مبيّنا لي فضل الصّلاة ... حتّى ضاق صاحب الحمّام به ذرعا ، وأعلمه أنّني ابن الفريك مصطفى ، وأنّني لست في حاجة لنصحه ... والغريب أنه استمرّ في تجاهلي ...

ـــ حتّى لا ينكشف أمره ... هو لا يرتاح إلّا إلى عامّة النّاس ... أما المتعلّمون ، فإنه يخاف منهم ومن اكتشافهم لجهله بالإسلام ...

ـــ وسارّة ... يا علي ... هذه التّي أحبّها ، هي عين من عيون البوليس ... أنا أعرف أنّ لها علاقة مع خالي الصغير.. وأحاولها دائما أن تقطع معه ، لترتبط بي ارتباطا دائما ... لقد انكشفت لي الأمور ... وانهار كلّ شيء في فجر يوم واحد ... كقصور من الورق ... كلّ شيء مزيّف ... حتّى حبّي كان زيفا ... إنّها المقادير لا حول ولا قوّة لنا عليها ولله درّ كعب بن زهير إذ قال :

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لأَعْجَبَنِي سَعْيُ الْفَتَى وَهْوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسْعَى ٱلْفَتَى لأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا فَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَٱلْهَمُّ مُنْتَشِرُ
وَٱلْمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ لاَ تَنْتَهِي ٱلْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِي ٱلأَثَرُ

وقال أحد الأحفاد للشيخ علي :

ـــ لم تحدّثنا عن حبّ عادل لسارّة .

ـــ سنبدأ في سهرة أخرى قراءة ما كتبه عادل في مذكّراته ، وفيها تفاصيل عجيبة لهذا الحب الصّادق من طرف ، الخبّ من الطّرف الثّاني .

قال الشيخ علي لأحفاده :

ولمّا زرت عادل من الغد وجدته متحاملا عليّ ... غاضبا ... فقلت له :

ـــ ماذا حدث بينك وبين ليلى ... هل زال بينكما الصّفاء بسرعة .

ـــ لا كلّ شيء على أحسن ما يرام مع ليلى ... إنّنا بقينا معا ساعات طوالا ... لم تفارقني إلّا في منتصف اللّيل ... حتّى أنّ الفريك مصطفى اهتمّ بنفسه بغيابها ، وبعث من يسأل «الحاج كرنبه» عنها فطمأنه .

ـــ إذن ما هو الدّاعي لهذا الغضب ...

ـــ تنصحني بالصّوم ، وتحثّني على الكتابة ... لم أكتب ولو حرفا واحدا ... ألا تعرف أنّ الجوع كافر بالله ... وهل مع الجوع كبرياء ، وشعور بالحريّة ، وحبّ وفلسفة ، وصداقة ... الجوع واكتمال الإنسانيّة ضدّان لا يجتمعان ... العبوديّة هي صديقة الجوعان ... فهي المتحكّمة فيه ، القائدة له ... أن أصوم وأتعبّد فذاك ... أن أصوم وأتزهّد في الدّنيا فلا إنتاج ، ولا خلق ، فأمر معقول ، أمّا أن أصوم ، وأكتب فمطلب عسير ... أنت تخلط بين الصّيام ونظام للتّغذية فيه شيء من الحمية وتنظيم القوت ... ثمّ أنا لست مريضا حتّى أتوخّى الحمية ... الحمية

هي دواء للمريض ، أمّا أنا ، فالأنسب لي ، للخروج من هذه العلّة الكلبيّة التّي بدأت أتغلّب عليها ، أن أنظّم تغذيتي ، وأقتصد في الأكل ، وألّا أحسّ بالجوع لأنّ الإحساس بالجوع ، لا يصرف الإنسان عن صغائر الأمور ، ولا يدفعه إلى التّحليق في أجواء يحكمها سامي القيم ، وعالي المثل بل التّغذية السّليمة ، المقتصدة ، هي التّي تشحذ الذّهن بصورة غريبة ، وتؤثّر تأثيرا عجيبا على المخيّلة ... دعني من فلسفة أولائك الزّهاد الذّين يدخلون في لعبة الحكّام بدون أن يشعروا ويحثّون النّاس على الإستسلام ، الفقر ، والرّضا بالقليل ، تاركين للآخرين الخيرات ، والشّبع ، والبطنة ... قال الرّسول : الْجُوعُ بِئسَ الضَّجِيع ...

ــ أنت طبيب نفسك ... المهمّ هو أن تخرج من نهمك هذا ، وتبدأ الكتابة .

وكان عبد اللّطيف ينتظر إشارة جدّه ليبدأ قراءة مذكّرات عادل ، ولكنّ أحد الأحفاد قال :

ــ أيْ جدّي العزيز ... كيف نبدأ قراءة المذكّرات ، ونحن لم نعرف مصير عادل ... هل خرج من سجنه ؟ كيف ؟ ومتى ؟ وماذا حدث له بعد ذلك ، وما خطبه مع سارّة ، وما أمر بابا عبد الله .

قال الشّيخ علي :

ــ سيأتي ذلك في إبّانه . وأشار لعبد اللطيف بالبدء فر قراءة المذكّرات ، وقال له بصوت عال حسما لكلّ مقاطعة :

ــ إقرأ .

فقرأ :

«فتحت عيني على الحياة ، والموت يناغيني . ودرجت على أعتابها ، والحلم يداعب أجفاني وعن الأوصاب ومرّ العيش يلهيني . وسلكت دروبها ، والهوام آخذ بي في وعيي ولا وعيي ، يطوّح بي وما أن يفرحني حتّى يشقيني . وخضت أمواجها ، والهلوسة عاصفة بي ، تبعدني عن

رغبتي تارة وأخرى منها تدنيني . أمّا الواقع ، فقد جرفني إلى أرباضه ، لينقر رحى نفسي ، ويتركها تدور في فراغ الوجود . لا ملاك يهدهد إيقاعات نجواها ، ولا ملهم يسعى إلى إخراجها من بلواها ، فلا الرّغبة قادتني إلى النّفاذ إلى جوهر كياني ، ولا اللّذة أترعت كأس سعادتي وأبعدت المرّ ، وكانت في المذاق أحلاها . ولا المتعة أدامت للحواس نشوة تمنّيت أن تصبح بعد انقضائها أبقاها .

الهوّة عميقة في نفسي ، في داخلي ، ولكنّني أشرف بعيني على شفاها . أنظر إليها ، وأنا بين الفعل وردّ الفعل . وأتملاّها ، وأنا سابح ، بين الهلوسة ، وسداد الفكر . وأرمقها ، وأنا أراوح بين اللّذة والواقع . هذا الذّي أحسبه ممكنا ، فيتحوّل بين اللّحظة واللّحظة إلى محال ، يضع أمامي كلّ الموانع ، يدفعني إلى التّأمّل ، ويرميني من جديد في أحضان اللّذة ، مقاومة للواقع المنقوص . وملئا للفراغ المحسوس . ثمّ هربا من انتصار الموت وإفلاتا من توقّف الزّمان . وإذا باللّذة تكشف لي عن كنهها الزّائف ، وقدرتها عند اكتمالها على الزّج بي في حالة غير عضويّة . هو الإحساس بالتّحلّل المفضي إلى الشّعور بأنّي لست سيّد اللّذة ، بل عبد لها مرتبط بالآخر ، محكوم عليّ أن أتسامح معه ، أن أحني رأسي أمامه وما أن أفتح عيني حتّى أجدني في خضمّ الواقع من جديد .

مأساتي أنّني آمنت بأنّ القيمة كامنة فيما نرغبه ، ونشتهيه . وأنّ الصّداقة هي الحافظة من الخطإ والتّيه . وأنّ المجتمع هو المصوّب للأخطاء ، والمؤمّن من الضّلال والضّياع ، ولكنّ الحصيلة هي الذّبذبة بعينها . فلا الإيمان بالحرّيّة سما بي إلى أعلى الدّرجات ، وفتح لي باب القيم على مصراعيه . ولا الحبّ ألقاني في رحابها . ولا قادني الجمال إلى هيكلها . ولا دلّني الحقّ إلى محرابها . كلّها تصطدم بالتعصّب

والانغلاق ، والتّطرّف والمبالغة ، والهوى والجنون . وكلّها تزيّفها المصالح الشّخصيّة ، و الجماعيّة ، ويهيمن عليها الواقع في أوضح معالمه السّلبيّة .

ويصيبني القرف ، وأركن إلى الحزن في غياب الرّغبة وأقول : ولكنّ هذه القيم هي واقع أيضا ، ليس لي أن أنكرها ، وأتنكّر لها . هي النّظام الذي يدفع الإنسان إلى أن يبقى إنسانا ، ولا يقوده إلى الجحيم . هي تسري في النّفس مجرى الحياة ، هي الدّفق الذي يجري في شرايين الجسم ، ولكنّه عزيز المنال ، لأنّه يتلوّن بأكثر من لون ، ويخون أكثر من توقّع في ظلّ ممارسة ، لم يحالفها التّوفيق .

وأفيق من غفوتي ، ذليلا ، منكسرا ، والصّيحة في نفسي تدمدم عالية ، صادعة بأن لا مجال لتطابق القيمة مع الواقع . فالوجود الحيّ محرّك القيمة ،هو خادعها ، وخوّانها ، ومع هذا فالذّات لا يمكن أن توصف إلّا بمصطلحات القيمة ، والكائن مهما كان ، ليس غريبا عنها ، إلّا إذا أصبح جسدا خاويا ، تصفّر فيه رياح الزّيف ، طلبا للمحال ، ونشدانا لوحدة الذّات مع الأشياء .

ويتغشّاني ضباب يغمر نفسي أيّاما وأيّاما ، ثمّ ينقشع ، فتتراءى لي القيم متعدّدة ، متباينة ، تواجه عالم نفسي ، عالم الناس ، في سعيهم اليوميّ ، في عيشهم ، في جريهم وراء خبزهم طلبا للقمة العيش ، في تنظيم اقتصادهم . وتسحرني القيم الوجدانيّة ، وقمّتها الحبّ ، وأظلّ فيها سابحا ، تهدهدني القيم الفكريّة ، والعلميّة ، والجماليّة ، حتّى أجد نفسي ، فوق العالم في سماء ما ماثلتها سماء : القيم الأخلاقيّة نسيجها ، والرّوحانيّة لحمتها . فتختلط عندي الأمور ، وتتشعّب المسالك ، وما أن أفيق حتّى أشعر بأنّ الأحداث قد تجاوزتني ، وكدت أن أصبح نسيا ، منسيّا .

ثمّ أشعر بالخطر ، وأتحامل على نفسي ، وأنحي عليها باللاّئمة ، لأنّها فسحت للقيمة مجالا أوسع ممّا يجب ، ونسيت الكائن ، وعوّضته بها . وتيقّنت أنّ مأساة الإنسان في نسيان الكائن عندما تصبح الفكرة البروميتيّة خلاقة للقيم بينما القيم لا تُخلق بل توجد صدفة في غمرة الحياة ، في دفق دأب الإنسان ، وسعيه المضني نحو اكتمال الذّات .

ولمّا أعياني البحث ، واختلطت عليّ السّبل ، اعتزلت النّاس ، ورضيت بمكان في السّانية بعيدا عن الأنظار ، أتملّى فيه الطبيعة ، وأرتاح إلى نسيم العشيّة ونوّارها ، وأسبح تارة في الخيال وتارة أخرى في إشتاء مخدّر ، حتّى أحسست في عشيّة من العشايا ، راق نسيمها واعتلّ هواؤها بنقطة تنزل على أمّ رأسي : هي نقطة ماء ، أو دويبة صغيرة ، أو سلحة طائر . إنّها ليست هذا كلّه ، بل هي نقطة بداية الاعتلال ، انغرست في رأسي ، ونفذت إلى دماغي ، وأدخلت فكري في منطقة لم أعرفها ، من قبل ، تخرج عمّا قاسيته من الاحتكاك بالواقع أو الإنصراف إلى التخيّل أو التّعلّق بالرّمز . وأخذت النّقطة تحفر دماغي ، ويضيق بي المكان الذي أبحث عنه ، وكأنّه تجمّع في هذه النقطة ، حتّى اعتللت وأصبحت الرّجفة تأخذني بين الفينة والفينة ، وتدفعني تارة في حلم الوهم، وأخرى في بحران من الإستيهامات ، وأحسّ بنفسي وكأنّني مأخوذ بما في الكون من ماء ، ونار ، وأرض ، وسماء . أنا ذرّة بين كلّ هذا : أشعر بالنّار تتسرّب إلى قدميّ ، تصعد إلى جسمي ، تأكل كياني ، ثمّ يتخلّل البرد عظامي ، وتنتشر الرّطوبة في مفاصلي ، ويغمرني الماء وأراني أغرق وأغرق حتّى تتلاقفني الأرض والسّماء ، وأحاول أن أضع أناي في إيقاع متناغم مع الأشياء . ولكنّه يظلّ دائما ، متعارضا معها ، متّجها نحو نقطة مركزيّة ، لا تجزئة فيها برغم تأرجحها المستمرّ . وأقول هذه النقطة التّي حفرت دماغي هي المنشودة فيها نجاتي ، وفيها مفتاح صحوتي ، ولكنّني أصطدم بهذا الذي أعجز عن

وصفه وبالمعنى الخفيّ للوجود الذي يدفع الكائن إلى التّناغم مع الأشياء . فأرجع إلى نقطة البداية ، وأبحث عن الخيط الذّي يقودني إلى اكتمال ذاتي ، إلى الظّفر بالأين في انسجامه مع إيقاع الحياة . ولكن أين الأين من إيقاع الحياة ؟ هو كالكهرباء ، كخيوط الكهرباء ، إن ظفرنا بربطها بطاقة الحياة ، بهذا الأين فذاك ، وإلّا تكون الدّارة قصيرة ، ويكون انقطاع الإيقاع . أوّاه لقد أعياني البحث في داخلي عن هذا الإيقاع النّفساني الفيزيولوجي ، عن هذا المكان الذي أردته ليّنا ، مريحا، سواء في غضون ملامس الواقع، أو في مطاوي تهويمات الخيال، أو في مضانّ إشارات الرّمز . ولم أفطن إلّا وأنا على حافّة الهوّة : هوّة الضّياع ، والذّبذبة ، لا هوّة الخلق والإبداع ، هوّة الجنون والإشراف على الموت ، لا هوّة النّجاة والإقلاع .

وطلبت الجنون فلم أجده ، وحاولت تجربة الموت فلم أفلح ، واستطبت العلّة فلم يطاوعني جسدي . فشعرت بالعجز أمام الجنون ، أمام الموت ، أمام العلّة ، ولم أجدني شجاعا ذا قدرة ، ليثا هصورا ، نسرا محلّقا ، إلّا أمام طاولة القمار . أمام هذه الهوّة التّي لا طائل من ورائها . أمام نهايتي الفاشلة في صورة لهو ، لا خلق من ورائه ، ولا إبداع ، ولا نفع ولا انتفاع : الخسران المبين » .

وتحرك الشيخ علي في مكانه ، ونظر إلى أحفاده ، فوجد العديد منهم قد داعب أجفانه النّعاس فقال :
ــ عندما قرأ عليّ عادل هذه الصّفحات قلت له : يا عادل ... هذه حصيلة قراءاتك ، وإن كانت تقبل كتفلسف لفترة من حياتك ، ولكنّ الذي نريده هو الأحداث ، هو قصّتك مع النّاس ، ومع الأشياء .
فأجابني :
ــ أولم تعجبك هذه الصفحات . إنّني أحسست بأنّني شفيت عند

استيفائها . لقد قرأتها على ليلى فأعجبت بها ، ولو أنّها لا تتجاوب كثيرا مع ما يكتب بالعربيّة . لقد حثّتني على المواصلة .
ـــ أترك يا عادل هذا النّمط من الكتابة ... فأنا رغم استمتاعي بما كتبت ، لم أفهم شيئا كثيرا ممّا حبّرت ... أنت تشير إلى مفاهيم فلسفيّة لا عهد لي بها ... هات ليْ الأحداثَ كما هي.

وأقنعته بعد تلدّد بوجهة نظري . وفي ذلك الوقت سمعنا ضجّة في الحديقة ، فاتّجهنا إلى النّافذة ، فوجدنا قرب الشّجرة المقابلة كوكبة من الشّرطة ، وسيّارة إسعاف ، ولمحنا بابا عبد الله وهو مرميّ على الأرض لا حراك به ، ودمه يسيل على لحيته ، والحشايشي يتخبّط في أيدي الشّرطة صارخا بكلام غير مفهوم . وقال عادل :
ـــ آنظر كيف عضّ بابا عبد الله على لسانه كأنّه مشنوق ... لقدَ شنق بدون محاكمة ... استغلال نفاقه كان أجدى من موته .

وبعد أيّام وجد بعض العملة «الحشايشي» ميّتا تحت شجرة من أشجار الحديقة ، وحوله مجموعة كبيرة من قوارير الخمر . وعلّق عادل في سخريّة مرّة :
ـــ سكرة لعلّها هوّنت عليه سكرات الموت ... وأظنّ أنّه ليس هناك «طَقْطَاقُو» أشدّ من الموت وهو الذّي تفطّن له وصرخ في وجهه «فَاقُوا بِالطَّقْطَاقُو » فلم ينفعه شيء .

في تلك اللّيلة اعتلّ الشّيخ علي ، وأضطرّ إلى الدّخول إلى المصحّة لإجراء بعض الفحوص . وتقاطر أولاده وأحفاده وأصدقاؤه على غرفته يعودونه . وكان ضحوكا ، غير عابىء بقرب الأجل . بل كان حريصا على معرفة حزن أولاده وأحفاده عليه ، بطرح أسئلة فيها التّندّر ، والملحة وكان يقول لهم :
ـــ لا حاجة لكم ببقائي فبقيّة مذكّرات عادل عند عبد اللطيف ، يقرؤها

لكم متى تشاؤون . حتّى اللّيلة في إمكانكم أن تلتقوا في بيت أحدكم وتستوفوها .

ويقول بعد اللطيف مترجما عن لداته :

ــ وما قيمة سرد حياة عادل بدونك ... أنت الدّم في شرايينها والهواء في أنفاسها ... وبك تطول القصّة ... القصّة لا تنتهي ... كحياتك طويلة إن شاء الله .

فينبسط الشّيخ علي ، ويسرّ في نفسه أنّه ما تزال له ، في هذه الدّنيا ، مهمّة يقوم بها إزاء أحفاده : أن يقصّ لهم الدّهر من زاويته ، ويبقي شيئا منه في ذاكرتهم ، أن يكون حيّا ولو في خليّة من خلايا ذهنهم .

وبعد أيّام خرج الشيخ علي من المصحّة ، ورجع عبد اللطيف إلى مذكّرات عادل وقرأ :

«لم أذكر من صباي إلّا ما حدّثني عنه والدي يوم أن شارفت الموت ، وسرحت في جنانه . ثمّ تخطّتني سهامه يائسا منّي . وألقاني في طفولة هي حديقة غنّاء في ذهني ، ملتفّة الأشجار ، ثمارها يانعة ، ونخلها وارف ، روضة خضراء ، أزهارها زاهية الألوان ، وماؤها دافق ، فراشها ريّق ، ونحلها دؤوب داو ، جنّة أجوس بين خمائلها ، وأتسلّل بين أكنافها وستورها ، وأنتشي بخرير مياهها ، وزقزقة عصافيرها ، ورفيف أشجارها . أتملّى فيها جمال الطّبيعة ، ويلفّني بها سحر صبايا القصر ونسائه . فهي دار أنس ، وفتنة ، وفرح ، وكمال ، وابتهاج ، وسرور .

هي كلّ هذا ، ما فيها من حقيقة ، وما يضفيه عليها الخيال ، لتكون جنّة تخفي ما بالنّفس من هواجس ، وتسكت ما بها من مخاوف ، وتنسي الجزع من تصوّرات : الجنّ مسرح لها ، والغول فيها البطل السّائد و«سَلاَّل القُلُوب» الجلاّد بشبحه المخيّم .

ثمّ يُلقى بي أوّل ما يُلقى بالكتّاب في هذا الجامع الّذي كنت أراه من «الكَرُّوسَة» عند ما ندخل بَابْ باردو . وهو عاري الجدران في بياض ناصع ، بصومعته المربّعة ، وهيئته البسيطة . كان يبدو لي ضئيلا أمام قصر باردو ، لكن عندما قرّر والدي ــ وأنا لم أتجاوز الرّابعة من عمري ــ أن أحفظ القرآن الكريم ، وأخذني من يدي بعد أن نزل من «الكَرُّوسَه» ، ظهر لي بابه كبيرا ، بمصراعين اثنين ليس بهما زينة كبيرة ، لا مسامير ولا حلقة . وتعجّبت من ذلك . لا يحتاج إلى أن يطرقه أحد هو مفتوح دائما . لا خوف عليه من السُّرَّاقِ والأجانب . من يسكن الجامع إذن . قالوا لي : إنّه بيت رَبِّي ، ورَبِّي يخاف منه النّاس جميعا . ولهذا لا حاجة له بِعَسَّاسٍ . النّاس كلّهم يحرسون الجامع إذن ، وفيه يصلّون ويقرؤون القرآن . وقلت في نفسي : والباي ألا يخاف منه النّاس ، ويقولون له سيدنا ، ووالدي أيضا وينادونه سيدي ، ولكن لماذا هم محاطون بالحرّاس دائما . وأنا من النّاس سأقرأ معهم القرآن وأصلي . ولكنّ والدي قال لي : أنت مازلت صغيرا لا تجب عليك الصّلاة ، ولكن في وسعك أن تحفظ القرآن . لم أفهم معنى هذا التّمييز : لا أصلّي وأحفظ القرآن . هل بدأ رَبِّي في معاقبتي من الصّغر . وأحسست من أوّل يوم أشرفت فيه على عالم الكبار ، أن هناك فرقا بين عالم الصّغار ، وعالم الكبار . وشعرت بالظّلم . فلماذا لا أصلّي لله أنا أيضا .

ولمّا تخطّيت عتبة الجامع ونظرت إلى فوق لمحت قوسا حادّا نصف دائري من الكذّال ، يحوطه إطار من خزف القلاّلين . حدجته فتراءى لي كالسّيف فوق رأسي شبيه بسيف كبير معلّق فوق باب مَقْصُورَةِ والدي . وقلت في نفسي : ذاك سيف والدي ، وهذا سيف رَبِّي . ولم أزل أشعر بذلك كل يوم أدخل فيه الجامع : خوف ورهبة من الله الذي يَحْرِقُ بِالنَّارِ . ولكن أين النار . أمّا السّيف فهو هذا . وصعدنا درجا عظيما . ينتهي متعرّجا إلى دريبة سقفها قبو ويُفضي إلى صحن الجامع

المبلّط بالرّخام الملوّن ، والمحاط ببرطال دائري . كان باب الدريبة مثل بيت الصلاة عظيما ، أعلاه الرخامي ، مزخرف زخرفة متنوّعة .

ما إن ظهر والدي ، وأنا بجانبه بُرغُوثَةٌ صغيرة ، حتى جاءنا رجل على رأسه عمامة ، يلبس جُبَّةٌ ، لحْيَتُهُ بيضاء ، خفيفة ، وَسَلَّمَ على والدي سلاما حارّا . كانت في وجهه بشاشة ولين ، وانحنى ليقبّلني فشممت رائحة عطر قويّة هي نفسها التي صدمت أنفي يوم أن خرج القرّاء بجدّتي مُسَجَّاةً على نَعْشٍ . لم أرها منذ ذلك اليوم ، ونسيت ملامح وجهها ، ولم تبق في ذاكرتي إلاّ قامتها الطويلة ، ويدها النّاعمة التي تضعها على رأسي ، وتنزل بها إلى وجهي تتلمّس بها أنفي ووجنتيّ وفمي . ولم أعرف أنها فقدت بصرها إلاّ عندما حدّثوني بذلك وأنا شاب .

لم أدخل بيت الصّلاة أبدا إلاّ لمّا كبرت ، واضطررت إلى الصلاة مع الباي وحاشيته عندما يأتي إلى باردو في الأعياد والمواسم . هي صلاة القِيَّادِ ــ كما نقول ــ جُمْعَهْ وأعْيَادْ . أمّا في ذلك اليوم الذي ولجت فيه الجامع ، فإني حشرت ــ بعد أن سلمني والدي إلى المؤدّب ــ بين أطفال أكبر منّي سنّا ، في غرفة كبيرة على يمين الدّاخل . أجلسني المؤدّب بجانبه ، ولعلّه احتار لصغر سنّي كيف سيحفظني القرآن . وبقيت أيّاما بجانبه أنصت إلى لَغَطِ الأولاد وأرى كيف تفتح أفواههم، وتغلق ، وتتحرّك أيديهم بالْقَرْصِ واللّكم فيما بينهم ، في غفلة من المؤدّب ، وكنت أشاهد بنفسي ، عن قرب كيف تهوي العصا على أقدام الأطفال عندما يحكم شدّها بالفَلْقَه ، كانت كلّ ضربة تُدَوِّي في نفسي فيتصبّب عليّ العرق نازلا من تحت طربوشي . ومن حسن حظّي أنني لا أبقى هناك إلاّ في حصّة الصباح . إذ يأتيني «الحَاجْ كُرُنْبَهْ» ويخلّصني من حبس رجليّ فوق الحصير ، وما أن أدخل «دريبَة» الجامع حتّى أركب عنق «الحاج» وأدحرج رجليّ على صدره عتقا لهما ممّا كبّلهما طيلة ساعات طويلة .

وفي يوم من الأيّام قرّر المؤدب أن يضعني أمامه ، وأن يعطيني لوحة في يديّ ، كُتبت فيها آيتان من سورة الفاتحة ، وأمرني أن أحفظهما بدون أن أميّز بين الحرف وأخيه ، حتى بدأت حصّة التّهجية ، وتعليم حروف الهجاء . والحصّة يُشرف عليها أحد التّلامذة الكبار . بينما المؤدّب يَتناعس ، بين استنشاقة وأخرى طويلة مصوّتة يتنفّسها من قُبْضة بين إصبعين لِسَعُوطِ النَّفَّةِ ، غرفها من حُقَّةٍ كان يخرجها من تحت ركبته ويتحفها بنقرات رفيقة على غطائها ، فتنفتح له ، بعد أن فرش على ركبته منديلا لُطِّخ بألوان من المخاط والنّخامات الرّطبة واليابسة المائلة إلى الحمرة ، والخضرة ، والصّفرة . وكنت لا تسمع إلاّ أَلِيفْ لاَ شَيْ عَلِيهْ إلْبَا وَحْدَا مِنْ سَفَلْ الخ ... في ترنيمة واحدة ، ونَوَدَانٍ مستمرّ مغاير لنودان اليهود فيه تدلدل شبيه برقّاص الساعة لكن من الأمام إلى الخلف فلا يسار ولا يمين إلا في المدائح والأذكار . وتقطع رتابة هذا الإيقاع عَطْسَةٌ مدويّة يطلقها سيدي «ٱلْمِدِّبْ» ويتبعها كرير خارج من أعماق صدره نتيجة التهاب قصبيّ مزمن .

ومضت ثلاثة أشهر على ذلك وأنا أستقبل عند عودتي بالزّغاريد ، والثّناء ، والتّنويه ، خاصّة لمّا توصّلت إلى حفظ الفاتحة بأكملها ، وأجبر على إعادتها أمام كلّ زائر وزائرة ، حتّى أصبحت أتوارى عن الأنظار ، إذا قصد بيتنا قاصد.وفي يوم من الأيام طلب منّي في الكتّاب أن أمحو لوحتي بنفسي في «مَحْبَسٍ» كبير مملوءٍ ماء أصل إليه بعد أن أعلو كرسيّا صغيرا . فكنت أمسك قطعة الصّلصال وأمرّرها على اللّوحة بقوّة فتختلط الحروف المكتوبة بقلم من قصب مغموس في حبر من الصّمغ مع الصّلصال والماء ، وتصبح اللّوحة ممحاة ، ولكنّ محتواها علق بالذّاكرة سواء باللّين أو بشدّة العصا . ولم أك قادرا على الكتابة اللّهم إلاّ ما أخطه بعسر في رأس اللّوحة ولا يتعدّى جملة باسِم الله الرحمن الرّحيم التي كنت أحترس من محوها حتّى لا تعاد مرّة أخرى وكنت أرفع صوتي

في أوّل الحصّة متّجها نحو المؤدّب قائلا : إينَعَمْ سِيدِي آشْ نِيَّهْ رَأْسْ لُوحَتِي ، بعد أن أسرد عليه آخر آية حفظتها البارحة فيملي عليّ أحد التّلامذة الكبار الآيات التي سأحفظها يومها فيكتبها لي .

واندمجت في النّظام السّائد في الكتّاب ، وسئمت الجلوس أمام «ٱلْمِدِّبْ» فتأخّرت صفّا ، فلم يحرّك ساكنا ، ثم بعد يوم صفّا آخر ، حتى توسّطت الأطفال ، وبقي طربوشي بارزا ينبىء عن وجودي . وتعلمت كيف أحفظ الآيات بسرعة ، وكيف أتناعس وزاء لوحتي ، وأبقى في خمود مريح ، تهدهده أصوات القارئين . ومن حسن حظّي أنّ عصا المؤدب لا تقرب ساحتي ، بل هي تصيب دائما من حولي ، وعرفت السّبب عند ما لاحظت أنّ العصا لا تتحرّك بعنف إلّا صوب الأطفال الذين لا يمرّون أمام «المِدِّبْ» كلّ يوم أربعاء ، ولا يضعون في يده نصيبا من النقود مثل سائر الأولاد. ويكونون هم المعرّضون في آخر النهار للاستظهار أكثر من غيرهم ، ويكون حسابهم عسيرا ، ينتج عنه شدّ الأقدام إلى الفلقة ، وأكل ما تيسّر من الضربات على حسب عدد الأسابيع الجدبة . أما أنا فحتّى إذا تلعثمت فإنّ سيدي ٱلْمِدِّبْ سرعان ما يسعفني بالكلمة، وحتّى بالآية ، ويتحفني بـ«صَحِّيتْ» ولا ينسى أن يقول لي ، وأنا أغادر الكتّاب في ذلك الوقت : سَلِّمْ عَلَى سِيدِي مصطفى ومع سَلاَمَةِرَبِّي . ولم يفتني أن لاحظت أن الحاج كُرُنْبَهْ لا ينسى أن يقف كلّ أربعاء على مرآى من سِيدِي ٱلْمِدِّبْ فيخفّ إليه هذا الأخير ، ويمدّ يده مصافحا ثم يرجع إلى مكانه فرحا مسرورا، بعد أن تبيّن بإمعان ما حصل في قبضته .

وكنت أغادر الكتّاب عند الظهر لأتناول الغداء في بيتنا ، وأرجع في حصّة العشيّة بينما جُلُّ الأولاد يبقون في الكتّاب ، وقد أحضروا معهم مايتعلّلون به . فأحببت أن أكون معهم ، حبّا في الإطلاع ، وتحرّرا

من سلطان العائلة ، واقترحت على والدتي أن أماري لداتي في نظام عيشهم . فلم تمانع واعتبرتْ ذلك نضجا ، واكتمال شخصيّة . وهكذا أصبح الحاج كرنبة يأتي كلّ يوم عند الزّوال بطبق كبير فيه من المآكل الشهيّة ما تتحلّب له الأفواه . واستطبت ذلك لأنّني كنت أدعو بعض الأصحاب الذين كثر بالطبع عددهم من يوم إلى آخر ، فيشاركونني في الأكل . وكان سيدي المدِّب يمرّ ، أثناء حصّة الأكل ، أمام الأطفال ويتفقّدهم ، أو بالأحرى يتفقّد ما يأكلون ، ويذوق الطّعام، فيُثْني على الطّبخ المتقن ، أو هو يمرّ مرّ الكرام ، أمام من لا يستحقّون التوقف عندهم ، وذنبهم أنّهم يكتفون بالخبز والزّيتون . أما طبقي فكان جديرا بكلّ تبجيل ، حقيقا بكل عناية ولهذا فقد كان مؤدّبي يخصّص له جزءا كبيرا من وقته الثّمين . ولا يسع أصحابي المتحلّقين حول الطبق إلا أن يوسّعوا من الحلقة ، ويفسحوا «لِسِيدْنَا» مكانا يليق بمقامه . فكان لا يكتفي بأن يذوق ، وما حيلته والطعام لذيذ وألوانه يعجز جيبه على أن ينالها . فيصبح عند ذلك ذوّاقا ، بصيرا بالطعام ، عارفا بأصنافه ، مقترحا ، لوجبة الغد ، لونا اشتاقه منذ زمان ، وعجز عن إعداده ضيق الحال . وكان يسأل عمّن أتقن الطبخ فأقول له بكلّ عفويّة : هي «شِيخَةْ» يا «سِيدِي ٱلْمِدِّبْ» . فيجيب : «شِيخَةْ» والله بِٱلْحَقْ . ويستأثر بأوفر نصيب ، ممّا يوجب عليّ أن ألحّ على والدتي في كلّ مرّة بالزّيادة . فكانت تضحك وتقول : سِيدِي ٱلْمِدِّبْ مُرُوقِي ، وتأمر شِيخَةْ بإكثار أنواع الطّعام وقبول اقتراحاتي . وأصبحت عنايتي بالطّبق أكثر من حرصي على حفظ القرآن . خاصّة وأنّ رعاية ٱلْمِدِّبْ لي تضاعفت، والتفاف أصحابي حولي تزايد يوما بعد يوم . فتراني عند الدّخول إلى الكتّاب أختال في صحن الجامع ، فتشرئبّ إليّ الأعناق ، ويفسح لي المكان الذي أرتضيته لنفسي في ذلك اليوم .

وفي كلّ عشيّة كنت أرى في صحن الجامع جموعا من الأولاد تتحلّق حول بائع الحمّص والكاكويّة والفول والحلوى و«القَرَانِيتْ» ، فلا أكاد أقترب حتّى ينتشلني «الحاج كرنبه» من بين الأولاد ويقول لي : هذا ممنوع ، سِيدِي مصطفى يعتقد أنها مجلبة للأمراض . ولم أكن مقتنعا بذلك وأنا أرى أصحابي الذين يقبلون على أكل هذه الممنوعات أقوى منّي ، وأكثر حيويّة ونشاطا . وعندما يتأخّر«الحاج كرنبه» في بعض الأحيان أجدني أنا ، وعددا كبيرا من الأولاد واقفين أمام «الْبَرْوِيطَه» لا حول لنا ولا قوّة . ذلك أنّ أيدينا كانت صفرا من النقود . فكنت أحسّ إحساسا مبهما بالدّون ، لا يمحوه الطبق عند الظهر . خاصّة إذا اقترب منّي أحد الأولاد الخبثاء ، وطلب منّي أن أشتري شيئا من الحمّص أو الكاكويّة . فأصارحه بالحقيقة ، فيقول لي بلهجة فيها الاستفزاز : أنت مثلنا «بَلَيِّطْ» . وتطوّر هذا الإحساس من يوم لآخر ، حتّى أصبح شعورا بالظلم ، وانعدام العدل . ولم أكن لأحسّ بذلك عندما أشاهد بعينيّ الظلم ، يتسلّط على سائر الأولاد يوميّا ، واعتبرت ذلك شيئا عاديّا ، حتّى العنف والضْرب بالعصا كان عندي من طبيعة الأشياء ، لأنّه كان جزاء كلّ من لا يحفظ . فهمت فيما بعد أنّ العدالة في مجتمع الكبار لا تختلف عن العدالة في الكتّاب جوهرا وممارسة .

وكان «الحاج كرنبه» يستعين أحيانا بأكبر الأولاد سنّا ، ليرافقني في آخر العشيّة إلى منزلنا عندما يكون مشغولا مع والدي . فاغتنمت فرصة ملازمته لوالدي في مناسبة من المناسبات الكبرى التي يتحوّل فيها والدي إلى المرسى بالكرّوسة ويكون «الحاج كرنبه» من جملة الدّيكور واختلست من درج لوالدتي قطعة نقديّة لا أعرف قيمتها ، وأبقيتها عندي طيلة اليوم ، وأنا مشغول بها أكثر من اشتغالي بالحفظ حتّى أطلق المؤدّب في العشيّة سراحنا . فاتّجهت رأسا إلى بائع «الكاكويّة» وقدّمت له القطعة النقديّة فاستكثرها ، و تيقّن أنّني سرقتها . فأخذها منّي ،

وذهب إلى «ٱلْمِدِّبْ» واستشاره في الأمر ، وأنا أنظر إليه من بعيد . فعاد البائع وأعطاني من الحلوى و«القُلُوب» و«الكَاكَوِيَّة» و«الحمِّص ٱلْمُكَرَّك» ما عجزت يديّ عن احتوائه . والتفّ حولي عند ذلك أولاد الكتّاب ، فأخذت أوزّع عليهم ما عندي ، و خاصّة منهم أولائك الذين كانوا يقنعون مثلي بالفرجة. وأكلت بسرعة ما أمكن أكله ، وأعطيت لعبد الله أكبر الأولاد المرافق لي نصيبا ممّا اشتريت ورغم ذلك بقي في حوزتي قرطاس لم أتخلّص منه إلى لحظة وصولي أمام المنزل . ولمّا اطمأنّ مرافقي إلى أنّني دخلت الدّار ، وواصل طريقه ، وتأكّدت من ابتعاده عن باب القصر ، خرجت منّ جديد ، وأخفيت القرطاس الباقي تحت حجر . وليس لي من غرض في ذلك إلّا أن أعطيه إلى ابن البستاني الذي يشاطرني ألعابي ، ويحقّق لي رغباتي ، وهو يتمتّع بحريّة أكبر ، ويخضع لمراقبة أيسر . ولمّا دخلت الدّار ، وقبّلت والدتي فطنت إلى أنّ رائحة تفوح من فمي غير عاديّة . فشمّتني وقالت :

ـــ هل أكلت «حُمْصْ مُكَرِّكْ أو كَاكَوِيَّهْ» .

ولم تتم كلامها حتّى انتصب عبد الله واقفا أمامنا ، وناول والدتي القرطاس ، وناشدها ألا تعاقبني وخرج . واعترفت بذنبي ، وكان عقابي أن داعب خيشومي وشفتيّ قرن من الفلفل الشَّايِح «الحَارّ» الذي تركني أرقص من الألم وأصيح : تائب ... تائب ... واعتبرت ذلك العقاب حرقا بالنار ، لأنّ احمرار أنفي وفمي يدلّ على أنّهما كويا كيّا بنار باردة ولكنّها نار .

واعتقدت من ذلك الوقت أنّ المجتمع مبنيّ على الظّلم ، لأنّ ، ما شاهدته يوميّا من اعتداء «ٱلْمِدِّبْ» بدون مبرّر على من لا ذنب لهم من الأولاد إلّا لأنّهم فقراء ، وتسامحه مع ذوي النّعمة التي هي ليست من العدالة في شيء ، ووجود أطفال يأكلون أحسن المآكل وآخرين يكتفون

بالخبز والزّيتون إن وجدوهما ، وطمع المؤدّب في طعام البعض الموسرين من التلامذة ، وانبساطه معهم ، واحتقاره للفقراء منهم ، واضطهاده لهم ، وقدرة البعض على شراء «الكاكويّة» والحمّص والحلوى، واكتفاء البعض الآخر بالفرجة ، وكتم الغيظ ، ومحاولة تصويب ذلك بنشر شيء من العدالة ، ولكن تكون العاقبة عقابا ، كلّ ذلك كان يعتمل في نفسي ، في غموض لا محالة ، ولكنّه شعور عارم بأن لا عدالة بين البشر ، وأنّ من يقرىء القرآن ، ويحفظه للأولاد بالعصا لا يخاف الله . والغريب أنّ الأطفال وأولياءهم يرون ذلك أمرا عاديّا .

وزادني شعورا بالظّلم أنّني لا أفهم شيئا ممّا أحفظه ، ولم أعرف في ذلك الوقت أنّ كلّ الأولاد في هذا الهمّ سواء . ويظهر أنّ سِيدِي ٱلْمِدِّبْ لا يفهم كثيرا ممّا يلقّننا إذ كان يتجرّأ أحيانا ، أحد الأطفال ، فيسأله عن عبارة فيقول له : ستفهمها عندما تصبح كبيرا. وأقول في نفسي ، ولماذا إذن أحفظ القرآن الآن ؟ ولماذا لا أنتظر حتّى أصبح كبيرا ؟

ومع مرور الأيّام ، ضقت بهذا الكتاب ، وبهذا ٱلْمِدِّبْ ذرعا . حتّى طفح كأس الظّلم في يوم مشهود . وشعرت بالجور شعورا حادّا لأنّني كنت هدفا له . وعرفت أنّ الظّلم الذي يمشي بيننا ، ويجلس قبالتنا ، ويحاذينا ، ويسكن بين ظهرانينا ، ويرابط وراءنا ، قلّما أن نفطن إليه ، ولكنّه إذا سلّط على فرد منّا ، وأصابه في الصّميم ، واختنقت له أنفاسه ، عند ذلك يصبح الإحساس به واقعا ، وتصوّره لا شكّ فيه .

اعتاد المؤدّب أن يترك عبد الله يشرف صباح كلّ يوم اربعاء على الكتّاب ، ويذهب هو إلى تونس ممتطيا «التُّرْمْفَايْ» لقضاء شؤونه . فكانت تلك الفترة ، بالنسبة إلى الأولاد ، فترة راحة ، ولعب ، وصياح ، وصراخ ، وصراع . وكنت أنا أنتحي ركنا ، أنظر منه إلى كلّ ما يقع تارة محبّذا ، وأخرى مستنكرا أعمال لداتي . ولكنّني لم أشاركهم مرّة

واحدة في لعبهم ، وكم كنت ألوم نفسي على ذلك ، وليس من سبب إلّا أنّني كنت خائفا على طربوشي من أن يلعب به الأطفال ، متوقّيا من تقطيع ثيابي ، وظهوري بمظهر لا أرضاه ولا يرضاه والدي ووالدتي ، مستنكفا من أن أكون مثل بعض لداتي محلّ سخريّة المؤدّب وتندّره ، وفرصة تتاح لكبار الأولاد للضّحك والمناوشة بالأيدي وما إلى ذلك . أو لعلّ الجدّ الذي سكنني منذ صغري حرّم عليّ أن ألعب في الجامع ، وأنا جئت لأحفظ القرآن .

وفي صباح من أيّام الخميس المعهودة ، خرج سيدي ٱلْمِدِّبْ ليذهب إلى وسط العاصمة مثل عادته ، ولكن طرأ عليه طارىء اضطرّه إلى الرّجوع إلى الكتّاب على غير عادته دون غياب طويل . ولكنّها فترة مكّنت الأولاد من أن يكونوا في عزّ لعبهم وهرجهم ومرحهم . وبما أنّني كنت في موقع أراقب فيه من بعيد الجميع فقد لمحت عمامة سيدي ٱلْمِدِّبْ تخرج عن قائمة باب «ٱلدَّرِيبَهْ» ثمّ يبين رأسه . وكان بودّي أن أشعر الأولاد بذلك ولكنّ الأحداث تجاوزتني . إذ ما أن ملأ المؤدّب عينيه من هذه المناظر وتملّى هذا الكتّاب الذي أصبح سوقا أسبوعيّة ، حلبة سباق ، بطحاء الحلفاوين ، لا ينقصها إلا القرود والثّعابين والسّحرة ، والمشعبذون ، حتّى خرج من مخبئه وصاح بالأولاد صيحة عظيمة ، زلزلت أركان صحن الجامع . فخيّم صمت ثقيل وحلف سِيدِي ٱلْمِدِّبْ بالأيمان المغلّطة ، وبالحرام الثّلاثة أن يرفع أرجل كلّ الأولاد للفلقة بدون استثناء . وبدأ تواري الأولاد بعضهم وراء بعض ، لأنّهم يعرفون أنَ سِيدِي ٱلْمِدِّبْ كبير في السّن ولا يقدر على ضرب كلّ الأولاد بشدّة ، وأنّ الأوّلين هم الذين سينالهم الضّرب المبرّح . ولكنّه بدأ بمن رآهم بنفسه يقودون الشّغب ، وأصبح صحن الجامع مثل بطحاء باردو في أحلك أيّام البايات ، مكانا للجلد والصّراخ ، والعويل . وأجهد سِيدِي ٱلْمِدِّبْ إجهادا كبيرا ، وأصبح العرق يتصبّب منه ، ولكنّ غضبه

كان يزداد في كلّ مرّة ، فتتفاقم به نقمته ، ويشتدّ ضربه حتّى قدّمني إليه زبانيّة عبد الله الصّغار ، فقال كبير الزبانيّة الذي كان أوّل من نال نصيبه من الضّرب الشّكليّ لأنّه لم يقم بواجبه :

ــ يا سِيدِي ، عَادِلْ ، وُلْدْ الفَرِيكْ مصطفى (وكرّرها مرّتين حتّى يتنبّه ٱلْمِدِّبْ وهو في سورة غضبه إلى خطورة ما سيقدم عليه) لم يفعل شيئا ، ولم يتحرّك من مكانه .

ــ إنّني حلفت ولا بدّ أن ترفع رجلاه للعصا مثل غيره .

وسحبني عبد الله من قدميّ ، وأنا ذاهل أستغرِبُ ما حلّ بي. ووُضعت رجلاي في الفلقة، ولم أفطن إلاّ وقد رُفعتا إلى فوق، وأصبحت معلّقا، لا يصلني بالأرض إلاّ رأسي فقد كان يحتكّ بالحصير ، وأحسست بضربة أولى وثانية وثالثة . وتملّكني الغيظ إلى الحدّ الذي جعلني لا أقدر على البكاء ، وخاصّة عندما خلّصوني من الفلقة ، ورموني جانبا كأنّني متاع ، هباء ، لا شيء . وبينما كان القوم في عيهتهم ، اغتنمت الفرصة ، وأطلقت ساقيّ للرّيح ، وما أن شارفت المنزل ، حتّى انفجرت بالبكاء ، ودخلت باب القصر ، وأنا أُعوِل إعْوَالا منكرا ، هبّ له كلّ أهل الدّار يتقدّمهم والدي. وفي ذلك الوقت وصل عبد الله ، يلهث باحثا عنّي . فاستوقفه والدي صارخا في وجهه :

ــ ماذا فعل عادل ؟

ــ لقد ضربه سِيدِي بالعصا .

ــ هل لم يحفظ سورته .

وتلعثم عبد الله وهو يلهث وقال :

ــ لا ...

وقصّ الخبر باختصار ففهم والدي الأمر ، واستشاط غضبا ، وطرد عبد الله ، مزمجرا في وجهه :

ـ قل لِسيدكْ ٱلْمِدِّبْ أنّه ليس جديرا بأن يؤتمن عنده الأولاد ... سنرى ....

وزدت حبّا لوالدي في ذلك الوقت لأنّه قلّما ينصف الآباء الأولاد في مثل هذه الحالات في عصرنا ذاك . فالعصا خلقت عندهم من الجنّة ، والمحاسبة بالجلد هي السّائدة . ولكنّ والدي فهمني ، واستطاب ودّ فعلي بتلك الصورة ، وعرف أنّ ابنه من معدن حرّ ، وأنّ طبعه لا يمتّ في شيء إلى طبع العبيد الذين يستكينون للعنف ، والعنف لا يثمر مع ذوي الأفكار الحرّة . ولكنّ الذي لم يفهمه والدي هو أنّني تأثّرت من الظلم أكثر من تأثّري من العنف وجرحت في كرامتي من صورة العنف أكثر من العنف نفسه : أن أقلب رأسا على عقب ، وأصبح شيئا معلّقا لا إرادة له هو الذي لم أقبله البتّة .

وقرّر والدي من ذلك اليوم أن ينتدب لي مؤدّبا خاصّا ، يحرص على تحفيظي القرآن في بيتنا ، وكأنّه تراجع وقتيّا في فكرته التي كان يتمسّك بها ، ويعتبرها أساس نجاحي في الحياة ، اندماجا في واقع النّاس ، واحتكاكا بهم حتّى لا أكون مهمّشا ، غريبا عن المتغيّرات التي تؤثّر في المجتمع .

وتوقّف عبد اللطيف عن القراءة ، عندما رأى الإعياء قد ظهر على أسارير وجه جدّه وقال :

ـ نواصل غدا قراءتنا لمذكّرات عادل .

فأجابه جدّه :

ـ لقد قرأ عليّ عادل هذه الصفحات فاستطبتها ، وحرّضته على المضيّ قدما في النّسق القريب من الواقع ، واستفسرته عن ليلى فقال :

ــ إنّها تأتيني كلّ عشيّة ، وأقرأ عليها ما أكتبه كلّ صباح ، وتعلق على ذلك بالفرنسية في هذه الوريقات التي لا أنفكّ أرجع إليها ، لأنها تحذّرني من الوقوع في عيوب أساليب المذكّرات . إنّ ليلى لآنت شيئا ما على ما كانت عليه من قبل . ولكنّ الذي يحيّرني في أمرها ، هو أنّني لا أعرف هل هي تحبّني حقيقة أم هي تعطف عليّ مجرّد عطف باعتباري قريبا منها .

ــ وأنت هل تحبّها ؟

وكأنّ السّؤال نزل على سمعه نزولا غريبا لم يتوقّعه منّي . وفهمت أنّه لا يريد في هذه المرّة التبسّط في الموضوع . فودّعته وخرجت .

ــ 10 ــ

قال الشيخ علي في السّهرة الموالية ، قبل أن يواصل عبد اللطيف قراءة المذكرات :

ــ وفي الغد ، عندما زرت عادل ، واجهني قائلا :

ــ لقد حيّرتني ، البارحة ، بسؤالك ، وتركتني مع ليلى ، في العشيّة ، أحاول استفسارها عن موقعي في قلبها ، وكانت مساجلة طويلة ، خرجت منها خاسرا ، بل خرجنا الاثنين خاسرين .

وفي ذلك الوقت ظهر الإعياء على الشّيخ عليّ ، وسكت ووعد بأن يفيض في الموضوع في مرّة أخرى ، وطلب من عادل أن يقرأ فقرأ :

«وهكذا أضطررت إلى أن أختار السّعادة في البيت في سنوات طفولتي الأولى ، على التّوتّرات التي تحدثها الزّمالة ، والاحتكاك بواقع النّاس . واستعذبت هذه السّعادة التي تحفّ بي من كل جوانب القصر ، واعتبرتها أمرا عاديا ، ونسيت ما شعرت به من ظلم في الكتّاب ولم أفطن في ذلك الوقت إلى أنّ هذه السّعادة ليست من العدل في شيء بل حظوة ، وامتياز لم أكسبهما بعرق الجبين . وكان عليّ أن أعرف كيف أتحمّل

ظلم المؤدّب وجوره ، لأظفر بالحقيقة : حقيقة هذا الكون ، حقيقة الكائن ، حقيقة الحياة ، حقيقة الزمان بإهاناته ، ومظالمه . واختار لي والدي أن تكون النّعمة وبحبوحة العيش هما نصيبي ، مع أنّه كان يعتقد أنّه لا بدّ من أن أخوض الحياة كما هي . ولكنّ الرأفة بي والحنان ، و الحبّ الأبويين ، طغى كلّ هذا على ما كان يعتبره واجب الأبوّة . وبقيت هانىء البال إلى السّادسة من عمري ، وقد حفظت من القرآن أحزابا عديدة ، وتعلّمت الكتابة ، والقراءة بالعربيّة . ولست أدري لماذا لم يعلّمني ، ولو حرفا بالفرنسيّة ، ومع هذا فإنّي حضرت في يوم من الأيّام ، مناقشة ، بينه وبين شيخ وقور من مشايخ جامع الزّيتونة أكّد فيها لوالدي أنّ تعلّم اللّغة الفرنسية يفتح أبواب الكفر . وظهر لي أن والدي لم يقتنع بكلام الشيخ ، بل أعلمه بقراره القاضي بدخولي المدرسة الصادقيّة في الموسم الدراسي القادم . فقام الشيّخ غاضبا ، وودّعنا ببرودة ، وبقي أشهرا لا يدخل بيتنا .

وانتظرت يوم الدّخول إلى الصادقيّة بفارغ الصّبر ، وكان الفرح يغمر قلبي لأنّني سأدخل طورا آخر من الطّفولة ، يخرجني من عالم النّساء الذي كان يحفّ بي ، من كلّ جانب في القصر ، ويحتضنني بكلّ حنان ، ولكنّه يضفي على حياتي رتابة ، كنت أمقتها ، وخمولا تغلغل في نفسي ، ما أنفكّ أقاومه ، ووصم ببلادة النّعمة طبعي ، ممّا دفعني إلى القيام بجهد كبير للتّخلّص منها ومن تأثيراتها . ولكنّ هذا الفرح كان يخالطه شيء من الوجل ممّا يخبّئه المجهول .

ودخلت المدرسة الصادقيّة في غرّة أكتوبر . وكان الازدحام كبيرا بمدخل الفرع ، لأن والدي حرص على أن نأتي أمام المدرسة ممتطين الكرّوسة . ونزل منها ، ونزلت والأطفال والأولياء ينظرون إلينا ، وتقدّم عدد من النّاس يرحّبون بوالدي، ويسلّمون عليه بحرارة. وشقّ الجمع ماسكا

بيدي وحاول الوصول إلى باب المدرسة ولكنّه لم يقدر فقال :

ــ كان علينا أن ندخل من الباب الكبير .

وهو يعني مدخل المدرسة الصادقيّة الرّئيسي الذي يشرف من فوق الهضبة على شارع «بَابْ بَنَاتْ» لا باب الفرع الذي فتح في منتهى زقاق ، متفرّع عن نهج شرلُكَانْ . وبعد هياط ومياط ، تخطّينا باب المدرسة ، وتقدّم إلينا المدير . وهو فرنسيّ ، وصعدنا إلى الطّابق الأوّل حيث مكتبه ، ورسّمني في السّنة الأولى . ولا تسل عن فرحة والدي ووالدتي عندما رجعت في العشيّة إلى القصر ، بل إنّ القصر كلّه كان في عرس . ولعلّها فرحة تعادل ولادتي ، وتفوق الأفراح التي أقيمت يوم ختاني الذي كان في الواقع صدمة بالنسبة إلّي ، واعتبرته اعتداء علّي في قرارة نفسي ، ولكنّ الجميع هوّنوا علّي هذا الاعتداء ، لمّا أفهموني أن لا إسلام ولا رجولة إلّا بضريبة الدّم هذه . ولكنّ هذه الفرحة لم يشبها طعم من طعوم الظّلم الذي كنت أخشاه في التحوّلات الكبرى التّي طبعت حياتي .

ولئن مرّ اليوم الأوّل بسلام . فإن الدّراسة في الصادقيّة ليست كما كنت أظنّ سهولة ، ويسرا ، وانبساطا . بل كان نظام الدّراسة شديدا ، يبدأ من الحرص على النّظافة ، وحسن الهندام بالرّقابة اليوميّة عندما يصطفّ التلاميذ أمام الأقسام إلى تنظيم الدّروس تنظيما محكما ، حسب برامج مضبوطة ، يطبّقها معلّمون فرنسيّون وتونسيّون بحرص بالغ وانضباط مهووس .

لا أريد أن أدخل في التفاصيل ، لأبيّن وجاهة ما أقول ، ولكنّني أميل بطبعي إلى النّقد اللاّذع ، وإبراز ما صدمني في هذا التّعليم ، ولهذا سأتبسّط في ردوّد الفعل التّي صدرت عنّي سواء البارزة منها أو التي بقيت دفينة ، وكيّفت جوهر ذاتي . ذلك أني أعتقد أنّ ما تعارف عليه

مواطني من تنويه بتعليم الصّادقيّة أخفى سلبيّات ستتفاقم ، وستؤثّر تأثيرا عميقا في أجيال ، وأجيال من التّونسيين ، بل إن السّلبيّات التي سأضخّمها ، وألحّ على إبرازها بقوّة ستتجذّر شيئا فشيئا ، وتستفحل ، وتطغى على النّواحي الإيجابيّة .

وعند ذلك قاطع الشيخ على عبد اللطيف وقال :

ــ لقد ناقشت طويلا عادل في هذه النقطة ، واعتبرتها مبالغة ، وتعميما ، لتجربته الخاصّة، ولا تنطبق على كلّ الصّادقيين والمدرسيّين . وأكّدت على ولع التونسيين بالتعليم الصادقيّ المزدوج اللّغة . فأجابني بفجاجة مدّعيا أنّ ذلك سببه ما يوفّره هذا النوع من التّعليم من الكسب أكثر ممّا يضفيه على صاحبه من الثقافة . فالصّادقيّ يمكن أن يكون طبيبا ، أو محاميا، أو مهندسا، أو أستاذا، أو إن عثرت به قدمه، مترجما أو موظّفا في إدارة من الإدارات. فإما الثّروة وإمّا الرّزق المضمون على الأقل. ولهذا فكثير من الآباء يبيعون أرزاقهم لتعليم أبنائهم بالصّادقيّة ثم بفرنسا ، وهم على يقين من الثّروة الآتية . ولم أوافقه بالطّبع على هذا التحامل ونسبته إلى إخفاقه وتعثّره في مسيرته التّعليمية . وفي الواقع لم تظهر سلبيّات التّعليم المدرسيّ إلاّ فيما بعد ، عندما ابتعد أطفالنا شيئا فشيئا عن تأثيرات بيئتهم العربيّة الإسلامية وأصبح موضوع الهويّة بارزا للعيان ، والاستلاب ضاربا أطنابه .

ولم يلمس الشيخ علي في الحاضرين رغبة في مناقشة الموضوع فالتفت إلى عبد اللطيف وأشار إليه بمواصلة القراءة . فقرأ :

«لقد سخطوني في الأوّل بالقرآن الكريم لأحفظه ، وأنا لا أفهم من كلام الله شيئا . ولكنّ القرآن كان يجري في عروقي ، وبذرته موجودة في نفسي بحيث تطوّر فيّ فهمه عضويّا بمرور الأيّام ، وما كنت أحفظه لم يكن إلاّ غذاء فيه إثارة وتحريض . وإذا بهم يسخطونني وأنا في

السّادسة من عمري بلغة أخرى أجنبيّة هي الفرنسية : لغة «الرّومي» كما كان أهلنا يقولون لنا ، لغة الكفر . ومن كان يلقّننا هذه اللّغة في سنتنا الأولى تلك ؟ عجوز فرنسيّة ، تنظر إلينا نظرة شرسة ، لا يبرحها عبوسها ، رغم المساحيق والطّلاءات العديدة . والأغرب من هذا أنّها لا تقوم من كرسيّها ، إلّا لماما ، لتشير عند الاضطرار بمسطرة إلى حرف مرسوم مسبّقا على السبّورة . كلّ ما فيها عابس ، منفرّ ، يزيده غرابة ما يتهامس به بعض التّلامذة الخبثاء من أنّ «بِقَلْصُونِهَا» دَنْتِلاً قذرة لأنّها لا تصون نفسها عندالجلوس، وتظن أن المكتب يحميها من عيون الأطفال الفضوليّة . وأكثر من هذا ، فإنّها لا تلبث أن تصرخ مثل الثّعلب ، بين الحين والآخر ، بكلام لا نفهمه ، وتسدّ أنفها ، وتتلوّى في كرسيّها ثمّ تأمر تلميذا أشقر ، أمّه فرنسيّة ، بالمرور بين الصّفوف ، وشمّ أعجاز التّلاميذ ، ومن الصّدفة أن يكون دائما رفيقي الأسمر ، الجالس حذوي هو صاحب الفسوة . فيكون عقابه الخروج أمام القسم ، لمدّة خمس دقائق ، في البرد القارس أو حرارة الهاجرة . وكم ذاق المسكين الأمرّين ، المرّات العديدة ، عندما تأمره هذه العجوز ، في بدء الحصّة بالذّهاب إلى الحنفيّة لغسل ركبتيه ، لأنّهما حسب زعمها وسختين ، ولا بدّ أنّها تعتبر السّمرة ضربا من القذارة . فيحكّها المسكين بما لديه من «كَاسَةٍ» وصابون لأنّها من بين عدّة كل صادقيّ يحملها في كيس بمحفظته حتّى ضاق ذرعا بهذا الإضطهاد ، وشكا ذلك إلى والده ، فأتى يحتجّ لدى المدير ، فكان ردّ فعلها أن ألغته من نشاط القسم فهو حاضر غائب : لا يسأل أبدا ، وإن شارك من تلقاء نفسه ، وأجاب جوابا صحيحا فلا يؤبه له حتّى يفوه بنفس الجواب تلميذ آخر .

كلّ شيء مقلوب ، حتّى الكتابة والقراءة فهي من اليسار إلى اليمين ، والأعداد هي غير الأعداد التي عرفتها في الكتّاب ، ومع مؤدّبي في البيت . كنت إذن غاضبا بعد فرحة اليوم الأوّل ، واستغربت ما رأيته ،

فحدّثت ابن عمّي عن المعلّمة ، وهو من لداتي وفي القسم الموازي لقسمي ، فشكر لي معلّمته ؛ وقال إنّها ترفق بهم ، وتحرص على إفهامهم بكلّ أناة ، وصبر . واهتممت بالأمر ، وكنت في الصّف أمام القسم لا أنظر إلاّإلى نفسي خوفا من أن تنزل سخطة على رأسي سواء من المعلّمة أو المدير . فوجّهت نظري إلى الصفّ المجاور لنا ، فلمحت ابن عمّي وبينهم معلّمتهم تتفقّد أحوالهم بكلّ لطف . كانت رائعة الجمال ، في عنفوان شبابها ، ضحوكة ، تربت على أكتاف الأطفال ، وتمسح على رؤوسهم بحنان . فقرّرت في ذلك الوقت أن أنتقل من الغد إلى قسمها . وفعلتها . وظنّت المعلّمة أنّه تمّ ترسيمي في ذلك اليوم ، وانسجمت انسجاما رائعا وقدّرت أنّني ربحت الجولة . ولكنّ معلّم العربيّة ، رآني في العشيّة فقال عابسا :

ــ ماذا تفعل هنا؟ أنا أعرفك . أنت ابن الفريك مصطفى . كيف تنتقل من قسم إلى قسم بدون إذن .

ولم يسعني إلاّ أن قلت له :

ــ إنّي غلطت في القسم .

ولمّا ألحّ في إصرار ركيك ، اعترفت له بفعلتي . وظننت أنّه سيحتفظ بي في قسمه ، عندما شكرت له تعليمه ، ولكنّه لم يقتنع ، وآضطرّ إلى مرافقتي إلى المدير الذي لم يعجبه ما فعلت ، وأرجعني إلى العجوز وإلى معلّم العربيّة الذي يعاقب بالضّرب بعصا غليظة ويهدّد بإطعام المعاقبين ذبابا محبوسا في قارورة أمامه يزوّدها بما يصطاده بمهارة أثناء انشغالنا بكتابة ما في السّبورة . وعلاوة على ذلك فهو يلبس في القسم فوق اللباس الفرنجيّ جُبَّةً قديمة تقيه غبار الطّباشير . ولم أكن أستسيغ ذلك بالمرّة ، وأعتبره من فساد الذّوق ، وعندما أسأل في البيت عن لباس المعلّم لا أتحرّج في أن أجيب إنّه يلبس سُورِي (أي إفرنجي في

العاميّة التونسيّة) عَرْبِي . فكان معلّمنا يجسّم الفَرَنْكُو عربيّة بكلّ أمانة .

والواقع أنّني عندما أتحدّث مع رفقائي وأقول لهم في خصوص درس من الدّروس إنّني لم أفهم شيئا ، وأظهر في مظهر المسكين البائس ، كان أغلبهم لا يوافقونني على ذلك، وعند إلحاحي ليبيّنوا لي ما فهموه لا أجد إلّا واحدا أو اثنين قادرا على ذلك . فعرفت طيلة دراستي الابتدائيّة أنّنا ننقسم في الفصل إلى ثلاثة أصناف: صنفين يرون دائما أنّ الأمر بسيط أيْ صنف السّذّج وهم الأغلبيّة الذين لا يبحثون عن الفهم البتّة وصنف الأذكياء ذكاء بالغا وهم قلّة قليلة . أمّا أنا فمن الصنف الثّالث لا من السّذّج ، ولا من الأذكياء ذكاء بالغا ، فأجاول الفهم ، وأطرح الأسئلة ، وأعاني في سبيل ذلك المعاناة الكبيرة .

والغريب أنّ التعليم في الفرع الصادقيّ ، كان يدوم في وقتي أنا ثماني سنوات . ولم أصل إلى سنة الشّهادة الابتدائيّة ، حتّى تقلّص عدد التلامذة ، وضاعوا في الطّريق ، لم يقدروا على تحمّل المعاناة . ولكنّ أعدادا من السّذّج بقوا تجرّهم الأقسام جرّا . فإذا كثروا في قسم من الأقسام جرّوه إلى الوراء ، وغلّبوا عليه نهجهم . وبئس ما غلّبوا .
كانت إذن المعادلة صعبة . فالصّدفة تلعب دورها ، الحظّ عامل من العوامل الكبرى للنّجاح . وعناصر المعادلة هي : المعلّم الكفء في العربيّة والفرنسيّة ، المعلّم الكفء في إحدى اللّغتين ، غلبة السّذّج على الأذكياء أو البين بين ، غلبة الأذكياء و البين بين على السّذّج .

ومضت أربع سنوات أراها الآن ظلاما عندما أذكرها . فيها المعاناة ، وفيها كانت عناصر المعادلة سلبية ، عوراء ، تجمّعت فيها غلبة السّذّج من التّلاميذ ، وعدم الكفاءة البيداغوجيّة عند معلّم الفرنسيّة والعربيّة . وساد فيها في أيّام الشّتاء البارد الضّرب على الأيدي الذي يذوق من جرّائه الأطفال ــ النّابه منهم وغير النّابه ــ العذاب بسبب وبغير سبب .

لكن في السّنة الخامسة ، كان الحظّ من جانبنا نحن التّلاميذ ، وأصبحت المعادلة سحريّة ، تجمّعت فيها كلّ عناصر النّجاح . لم أدر كيف أصبحت الأوّل في القسم ، ورفيقي الأسمر الثاني طيلة السّنة الدراسيّة ، ممّا جعل إدارة المدرسة ، تعمد إلى ترقيتي أنا ورفيقي إلى السّنة الثّانية أي قبل عام من سنة الشّهادة الابتدائيّة ، والانتقال من الصّادقيّة الكبيرة إلى الصغيرة . وهو إجراء نادر قلّما تقوم به الإدارة .

ولم تمرّ هذه السنة المشرقة بدون كسوف . إذ كبوت كبوة غشّت مسيرتي التعليميّة بغشاوة كان من الصّعب إزالتها . فلقد تضافرت عليّ معادلة أخرى ، كثيرا ما كنت ضحيّة لها إذا سلّطت عليّ وتفاعلت معها : الشعور بالظّلم والإنسياق إلى الفاشلين من التّلاميذ .

ذلك أن إدارة المدرسة ، اعتادت أن تنظّم دروسا للمراجعة بمعلوم طفيف في آخر اليوم بعد الانتهاء من الدّروس ، وتعمد إلى تجميع تلامذة السنوات الخامسة والرّابعة في قسم واحد ، وكذلك بالنّسبة إلى السّنوات النهائيّة . ومن سوء حظّي أن تضافر عنصران : من جهة مشرف على درس المراجعة وهو نائب المدير ، فرنسيّ ، قصير القامة ، أعرج ، لحيته كلحية التّيس، سكّير، ومن جهة أخرى رفيق حذوي ، خبيث ماكر ، لا يعرف للجدّ سبيلا ، ماهر في اللّعب ، وإضاعة الوقت . سخطتني الصّدفة بهما ، وأصبح الفصل سوقا أسبوعيّة ، بطحاء الحلفاوين ، بما عمّه من هرج ومرج وصراخ . فلا مراجعة ولا درس . وغضبت لذلك غضبة عنتريّة ، وحدّثت رفيقي الهازل الذي كان مشغولا بصنع طائرات من الورق يرسلها لتُحلّق في القسم ، وتحطّ في بعض الأحيان على مكتب المشرف الذي لا يرى مانعا في العبث بها ، وإرسالها من جديد في فضاء القسم ، فيهيج لها التّلاميذ هيجانا منكرا. وحدّثتني نفسي بالانتقام منه ، وكلّمت رفيقي في ذلك ، وشجّعني فرسمت للمشرف

رسما كاريكاتوريّا بشعا ، في هيئة مزرية ، ذيّلته بهجاء بالفرنسيّة ، الرّخيصة ، أملاه عليّ «رفيقي» «أيّده الله» . وقمت من مكاني ، واقتربت من مكتب المشرف والأولاد متجمّعون حوله ، ودسست الورقة بين دفّتي محفظته المخلولقة . ورجعت إلى مكاني وكأنّني شفيت نفسي من الشّعور بالظّلم ، بظلم سلّطه عليّ هذا المستهتر بنا .

وما أن دقّ الجرس حتّى فتح نائب المدير محفظته ، ليضع فيها لوازمه الموزّعة على المكتب وإذا بالورقة تسقط على الأرض فيلتقطها ، ويقرؤها ، فيعمّ وجهه الدميم عبوس قاتل ، ويدسّ الورقة في جيب «تَابِلِيَّتِهِ» التي يلبسها في القسم. وأحسست عند ذلك بخطورة ما أقدمت عليه ، ولكنّي طمأنت نفسي ، متيقّنا من أن لا أحد في إمكانه أن يعرف صاحب الورقة، وعزمت ، واليوم يوم سبت، أن أختلسها من «تابليّته» قبل الدّخول إلى الفصل يوم الإثنين ، إذ لمحته ، وقد علقها في مشذب في الفصل المجاور لفصلنا .

وجاء يوم الإثنين ، وقد نسيت الأمر ، وشغلت باللّعب وما إلى ذلك . ولكنّ سيّدنا نائب المدير لم ينس ، إذ فتح بحثا دام صباح ذلك اليوم بأكمله ، فعمد إلى بحث كلّ تلميذ كان في فصل المراجعة عشيّة يوم السّبت ، وكان يقارن بين الخطّ الموجود على الورقة وخطّ التلميذ . ولم أدر في أوّل الأمر كيف توصّل البحث إلى الإهتداء إلىّ ، لأنّني تعمّدت تغيير خطّي . ولكنّ معلّمي الغيور عليّ والذي دافع عنّي دفاعا مستميتا ، نبّهني إلى أنّه ، قد سبق السّيف العذل ، وأنّ رفيقي الجالس حذوي ، هو الذي وشى بي ، ونصحني بالإعتراف وطلب العفو ، ووعدني بمساندتي ، حتّى يكون العقاب خفيفا . واعترفت والإعتراف يهدم الإقتراف ، ولكنّني مع هذا لم أكل مقتنعا بأنّني على غير حقّ ، والأحرى أن يعترف نائب المدير بأنّه أخلّ بواجبه كمشرف على المراجعة . غير أنّه لا سبيل إلى من في مثل وضعي أن يستنزل الصّواعق .

وسكتُّ عن أخطاء المدير . وتأسّفت على مشاركة معلّمي المحبّب في إدانتي ، وتزعزعت ثقتي به ، واعتبرته منحازا إلى الظّالم القويّ . ومهما كان الأمر فإن آلانيّة العقاب انطلقت ، ولكن بلطف ودُعي والدي إلى المدرسة ، وعرف ، وهو المبجّل في الدّوائر الحكوميّة ، كيف يهوّن الأمر ، ويقنع نائب المدير بأنّ ما قمت به هو مجرّد طيش ونتيجة للرّفقة السّيّئة ، ولا يمكن بأيّة حال أن يعدّ من باب مناوأة النّظام الاستعماري ، ووالدي أدرى من غيره بأنّ مثل هذه الأعمال عقابها هو الطّرد نهائيّا من كلّ المدارس الحكوميّة بالإيّالة . ولهذا سمح إلى ذلك القزم بأن يصفعني أمامه صفعتين على خدّيَّ طار من جرّائهما نعيمي. وأُعلم بأنّني سأحرم من معلّقة الشّرف التي تسند إليّ كلّ شهر، لأنّني الأوّل من بين التّلاميذ . وكان هذا العقاب أقسى على نفسي من الصّفعتين ، وأشدّ وقعا من امتناعي عن الإدلاء بأسباب فعلتي. إذا بقيت أشهرا متتالية محروما من معلّقة الشّرف التي تسند كلّ شهر للأول والثاني في القسم . وأحسست بأنّ الإنسان في هذه الدّنيا يمكن أن يذهب سعيه سدى ، وأنّ الخطيئة مهما كانت مبرّراتها تتعقّب المرء في حياته ، فينوء بجريرتها ، ولا مفرّ له من ذلك . وتذكّرت آدم وحوّاء . ولكنّ الشّيطان هو نائب المدير . وأقسى من كلّ هذا وقع الشّماتة في نفسي عندما يمرّ المدير كلّ شهر بقسمنا لتوزيع معلّقات الشّرف وبطاقات الاستحسان للخمسة الأوّل من التلاميذ المتفوّقين على أقرانهم . وكان ينظر إليّ شزرا بدون ذكر إسمي ، مع توقّف له ألف معنى ، كان يحزّ في نفسي ، ويجعلني أشعر بأنّه بصدد التّمثيل بي . ولا تخفّ الوطأة إلّا عندما يذكر إسم رفيقي الأسمر .

وبعد هذه السّنة المشرقة والمغشّاة بسحابة عابرة دخلت لمدّة سنتين المعادلة السلبيّة. وأتحفونا ــ وأنا ورفيقي الأسمر، لم ندرس برنامج السّنة الثالثة ــ بمعلّم للعربيّة غائب دائما حتّى عند حضوره. يغيب لأنّه غريب

الأطوار ، ربّما لمرض نفسانيّ ، ملازم له . وعند الحضور يشغل التلاميذ إمّا بنسخ نصّ أو قرآءته ، أو باستظهار محفوظة . ومهما كان الأمر فهو دائم التّجوال بين الصّفوف ، يده اليسرى تحت الجبّة ، ويقول الخبثاء من التّلامذة ، غفر الله لهم أنّها قابضة دائما على عروته ، غير الوثقى بالطّبع ، والله أعلم ، واليد اليمنى ماسكة بعصا ، رقيقة ، لعلّها من شجر الخروع ، تنزل بدون حساب على الرّؤوس ، والأقذال ، والأقفية ، والآذان ، والأصابع ، بدون سابق إنذار ، ومن خلف بالذّات . فلا يزال التّلامذة في أمن من شرّ العصا ، جالسين جلسة عادية ما دام المعلّم يمشي والسّبّورة وراءه ، ولكن عند رجعته ، تجدهم قد قلّصوا أكتافهم وأدخلوا رؤوسهم فيها كالسّلاحف ، تحسّبا لضربة لاذعة ، تصيب أحدهم ، تاركة على جلده خطّا أحمر . فهم بين مدّ فيه السّلامة ، وجزر يصاحبه شرّ مستطير . وحتّى المدّ لا يخلو في بعض الأحيان من مفاجآت ، ولكنّها قليلة جدّا ، إذ تتخلّى اليد اليمنى عن العصا ، وتمسك بأذن طفل من الأطفال تمّ اختياره ، والتعلّل عليه ، وتعركها عركا مع حكّ الخدّ الناعم بقفا اليد ، بينما اليسرى تحت الجبّة لا تفارقها .

أمّا معلّم الفرنسيّة الذي يأتينا يوميّا ، حسب جدول الأوقات ، بعد الغداء رأسا فهو ثمل على الدّوام ، ميّال إلى النّعاس ، في عينيه ترنيق ، لا يهمّه من أمر التّلامذة إلّا سكوتهم والتزامهم للصّمت .

ورغم هذا فقد انتقل أغلبنا إلى السّنة الأولى التي ستؤهلنا للدّخول إلى الصادقية الكبيرة . وبقيت أنا مع معلّميّ «الأثيرين» وانتقل رفيقي الأسمر ، من حسن حظّه إلى القسم الموازي مع معلّميْن آخرين . ولا تسل عن حصيلة هذه السّنة مع معلّمي المذكورين ، وإتحافي بزميل آخر عوضا عن رفيقي الأسمر . وكان الزميل المسكين أو المحظوظ قد نجا ،

منذ فترة قليلة من مرض الخناق الذّي سدّ منافذ عقله ، فأصبح لا يقدر إلّا على التّخفّي وراء يديه ، أو كتابه أو كرّاسه ، والاسترسال في ضحك بَلِيدٍ ، منهكٍ ، مما شوّش عليّ دراستي ، وجرّني إلى خمول ما بعده خمول .

وكانت النتيجة أن حصلت على الشهادةالإبتدائية ، رغم المعادلة السّلبية ، ولكنّي أخفقت في الدّخول إلى الصّادقيّة الكبيرة ، أي النّجاح في هذا المعهد العتيد بينما كان نصيب رفيقي الأسمر الفوز المبين . ولا تسل عن تأثير ذلك على معنويّاتي ، فأنا الذي قدرت باجتهادي على ربح سنة كاملة، أرسب بعد ذلك لا لسبب إلّا لأنّ التّعليم في الصّادقية لم يكن دائما على قدر كبير من الجدّ الذي اشتهر به . وبالفعل لو أحصي عدد الشباب الذين ضاع مستقبلهم من جرّاء هذا النّظام التّعليمي ، وما فيه من دسّ تعمّده الحكم الاستعماري لاقشعرّت الأبدان ولكن النّاس بهرهم العدد القليل من المحامين ، والأطباء ، والأساتذة ، والمهندسين الذين لم يتخرّجوا كلّهم من الصّادقية ، وعشيت أبصارهم عن الأغلبية التي كانت ضمن القطيع مثلي أنا تماما ، كجامع الزّيتونة الذي أفرز عددا قليلا من الغلماء ، والمشايخ الأفذاذ ، وترك الأغلبية الغالبة ، رغم النّضال المستميت من أجل تعصيره ، في نوع من الأميّة لولا الجهد الذّاتي والطّموح الشخصيّ ، والعزم الذي لا يفلّ .

وعند ذلك تدخّل الشّيخ علي وقال :

لقد انتقدت عادل انتقادا لاذعا لمّا قرأ عليّ هذه الصفحات ، وعزوت هذه الصورة القاتمة إلى إخفاقه في التعليم ، وإلى النّعمة وبحبوحة العيش اللّتين عرفهما آنذاك ، فكانا السّبب الأصلي في إلقاء المسؤولية على غيره : على المعلّم وعلى الرّفقة السّيئة .

فأجاب ، وهو يعلم أنّني أحاول استدراجه لمزيد من الاعترافات :

ـــ كنت طفلا مثل الأطفال ، أنجح عندما تكون ظروف التعليم طبيعيّة ، وأخفق عندما تنتفي هذه الظّروف ؟ لماذا مثلا لمّا رسبت في سنة ثمّ وجدت في السّنة الموالية معلّما بالفرنسيّة عظيما مازلت أذكره إلى اليوم ، وأتّصل به ، من حين إلى آخر ، وأجلّه الإجلال الكبير ، كان نجاحي باهرا ؟ وكذلك معلّم العربيّة رحمه الله ، فلقد كان الجدّ بعينه ، والكفاءة التي لا تمارى ، والحرص على إنجاحنا جميعا ، وكان كذلك في تلك السنة . خاصّة وأن التّعليم آنذاك كان مركّزا على حصيلة من المعارف لابدّ منها ، تستند إلى العقلانيّة ، وإلى المنطق ، ولا تاخذ بعين الإعتبار مواهب الطفل ، وصقل ذهنه . فحشو الدّماغ بالمعارف ، والمعلومات كان هو السّائد. فإذا كانت الحصيلة في سنة كاملة هزيلة، أخفق التّلميذ بالطبع . ناهيك أنّ بعض التلامذة الأذكياء ذكاء يفوق ما وهبني الله ، لم يتمكّنوا من تذليل هذه العقبة المتمثّلة في المعادلة الصّعبة التي أتمسّك بها اللهمّ إلاّ إذا وجدوا في البيت من يأخذ بيدهم . وأنا أثناء دراستي لم أجد من يهتمّ بي لأنّ والدي مشغول بوضعه ضمن حاشية الباي ، وبالكشف عن الدّسائس وإحباطها ، ويعتبرني غير محتاج إليه ، ويتمسّك دائما أمام الأصحاب بقوله : عادل رَجَّالٌ ، ذكيّ ، يعرف كيف يدبّر أمره . وإذا به يصدم صدمة كبيرة لمّا رسبت في مناظرة الدّخول إلى الصّادقيّة الكبيرة في الكرّة الأولى ، وأصبح يتحاشى الحديث عنّي مع الأصحاب ، ولكنّ الحسرة لم تبرحه » .

وعند ذلك انفضّ الجمع ، وقد حرصوا على ألّا يدخلوا في مناقشة طويلة مع جدّهم خوفا عليه من الإرهاق وتمنّوا له ليلة سعيدة وأحلاما لذيذة .

لم يرد أبناء الشّيخ علي وأحفاده الإثقال عليه ، وتركوه أيّاما حتّى تعافى ورجع إلى سالف نشاطه ، والتأمت السّهرات مثل العادة .

— 11 —

قال الشيخ ملتفتا إلى عبد اللطيف : هات لنا ما كتبه عادل بعد الذي اطّلعنا عليه آخر مرّة ، وقرأ عبد اللطيف .

«لا أريد الدّخول في تفاصيل ما حدث لي أثناء الدّراسة لأنّ ذلك يقتضي سفرا كاملا والنفس غير مستعدّة الآن ـــ وأنا مازلت في ريعان الشّباب ـــ للخوض في الذكريات بتفاصيلها . وربّما هي غير قادرة على ذلك في مثل هذه الساعة . لأن الحافظة كلّما تهلهلت كانت أقدر على التّذكّر فلأنتظر تهلهلها . إذن هي أمنيّة ضمنيّة لإدراك الشّيخوخة كأنّ الحياة جديرة بأن يطلب الإنسان امتدادها ، ليذوق العذاب أكثر ، ويمرّ بالمحنة تلو المحنة .

أمّا الآن فأنا بين الذّكر والتذكّر : أتّحد مع الحيوان في الذّكر وهو ما تتيحه الغريزة ، وتوفّره العادة المكتسبة ، ولكنّني عندما أطلب التذكّر يستعصي عليّ . فكأنّني عاجز عن أن أحتال لاستعادة ما اندرس . غير أنّ ما أتذكّره اليوم دليل على قدرتي في ذلك الوقت على إصدار حكم ، وإبداء رأي فيما يهمّني ؛ ولو كان هذا الرأي غامضا فطيرا .

وعلى كلّ فإنّ أسس النّظام التعليميّ في فرع الصّادقيّة كانت هي السائدة في المعهد الأصلي . والغرض منها قبل كل شيء هو أن يجيد تلامذة هذه المدرسة في آخر الأمر الفرنسية ، ناهيك أنّ النحو العربيّ كان يدرس بالفرنسية . علاوة على تمارين الترجمة نقلا ، وتعريبا ، بما في ذلك التّرجمة الإداريّة ، وما أدرك ماهي التي تدرّبك على أن تنقل إلى اللّغة الفرنسيّة ، بأسلوب نظيف ، رسائل المواطنين أو المسؤولين الإداريين التونسيين ، المكتوبة بلغة خليط ، فَرَنْكُوَ-عربيّة ، عامية ، هجينة ، إلى أسيادهم الفرنسيّين . ولهذا كان الصّراع حادّا بين الأساتذة الوطنيّين الذين أدركوا خطر هذه السياسة ، وبين الأساتذة الأجانب الذين يرون أنّه من الطبيعيّ ، تجذير لغتهم في نفوس رعايا الحماية . بل إنّ

الصّراع يشتدّ بين الأساتذة التونسيين أنفسهم المنقسمين إلى عصريّين «مَدْرِسيّين» : وإلى تقليديّين، «زيتونيّين» ، هؤلاء ميّالون إلى الحفظ والرّجوع إلى النصّ ، والاعتماد على السّند ، وأولائك شغوفون بإعمال الفكر ، وتحكيم العقل والحثّ على الاستنباط ، وفتح الآفاق نحو الثّقافة الفرنسية . أما أنا ـــ ولربّما مثل ذلك غيري من لداتي ـــ فكنت أنظر إلى الأمر من وجهة أخرى : ما أشعر به ، وأحياه ، وأعانيه من جراء المعادلة القاسية التي كنت ذكرتها ، وإن ضعفت نتيجة لِمَا وصلت إليه من نضج عقلّي ، ومن تغليب للمصلحة على الانسياق إلى نزعة اللّعب والهزل من جهة ، وما أواجهه من مشاكل أخرى أخطر وأشدّ تأثيرا على الذهنيّة من حيث التّعبير ، والصراع مع الظاهرة اللّغويّة المتمثّلة في الإزدواجيّة من جهة أخرى .

وإذا كان الحفظ هو الملاذ في النّهل من المعارف سواء كانت بالعربية أو الفرنسيّة ، فهمتُ أو لم أفهم ، فإن الشّقاوة تبرز في التّعبير ذاته . فطالما كنت أُصغر قريبا من لغتي العربية ، كان الصّراع بين لهجتي العاميّة التّونسيّة والفصحى ، هيّنا ، طبيعيّا . ولكن سرعان ما تحوّل إلى صراع بين الفصحى والفرنسيّة . ليس هناك سلاسة ، ولا انسياب في التّعبير بالنّسبة إلى كلّ لغة تعبّر بواسطتها بل كان التداخل واضحا بين اللّغتين والتركيبين ، والاستنجاد باللّغة الأخرى عند العجز أو التّلعثم أمر وارد ، ولا مفرّ منه . فكان الخلط وشيوع ٱلْفَرَنْكُوَ–عربيّة سائدين . وانقسم رفقاء الدّراسة بمرور السّنوات إلى فرق ثلاث لست أدري أيّا منها النّاجية . وظني أنّ النّاجية في معنى الظّافرة بهويّة ثقافيّة ملائمة لواقع الحياة ، فيها التّوازن الذّاتي والتراشح مع المجتمع في مقوّماته الأساسيّة ، لا النّجاة بمعنى النّجاح في الحياة ماديّا ، والإعراض عمّا يؤول إليه المجتمع إن شرّا أو خيرا . والواقع أنّ النّاجين من هذه الفرق الثّلاث ، هم الّذين عوّلوا على أنفسهم فيما بعد ، ولم يكْتفُوا بهذا الذي لُقّنوه في

المدرسة . بل إنّ النخبة التي نراها اليوم تكافح إنّما هي بصدد مقاومة هذا النّظام التّعليميَ ، وانتشال الشّباب من الضّرر المحدق به بإحداث الجمعيّات والمدارس الخاصّة ، ومنها الخلدونيّة ، وقدماء الصادقيّة وبعث الحركات المنقذة لأفراد هذا الشّعب ممّا يتنتظرهم من ضياع حضاريّ وإنسانيّ » .

وعند هذا الحدّ قاطع الشيخ علي عبد اللطيف وقال :

ـــ لمّا قرأ عليّ عادل هذا الكلام قلت له إنّك أصبحت تلقي خطبة ، متأثّرا بالأجواء السّائدة الآن . فجزم لي أنّ هذه المشاكل كانت تعتمل في نفسه منذ كان في الصّادقيّة ، ولكن لم تكن بهذا الوضوح ، وأنّ خيبته متأتّية من وعي غامض بها .

واسترسل عادل في قراءة المذكّرات . قال على لسان عادل :

«وهذه الفرق الثّلاث أراها كالآتي : فرقة رضيت بما اقتسمه لها التّعليم الصّادقي المفروض من إدارة الحماية ، رغم مقاومة الاساتذة التّونسيين ، من مدرسيّين ، وزيتونيّين ، ومآلها بعد ستّ سنوات الحصول على ديبلوم الصّادقيّة ، للانخراط في الإدارة ، وشرطها هو حذق التّرجمة نقلا وتعريبا . وفرقة رأت «النّجاة» في التّشبّث بالفرنسيّة لمواصلة التّعليم العالي . فضحّت بالعربيّة في أغلب الحالات ، اللّهمّ إلّا بعض الاستثناءات بل الشّواذ الذين يعدّون على الأصابع منذ تأسيس المعهد ، والشّاذ يحفظ ولا يقاس عليه . وفرقة لم تقدر لسبب من الأسباب ، دفينا كان أو ظرفيّا ، على الانسجام مع نظام التّعليم الصّادقيّ لتغلغل اللّغة العريّة في أفرادها ، فكان نصيبهم التعثّر والطّرد وقلّما حصل أحد منهم على ديبلوم المعهد .

ولقائل أن يقول ، من أيّ فريق أنا . أنا من الفريق الثّالث الذّي تشبّع بلغته ، ولم يستعض عنها بلغة أخرى ، ولم يؤثّر فيه الخوف من ضياع

المستقبل ، والطّمع في المناصب ولا أساليب قهر الذّات واستلاب الشّخصيّة ولا كلّ الطّرق المتوخّاة للتّشويش على نسق اللّغة القوميّة . أنا من صمدت نفسه أمام هجمات نظام تعليمي آلي على نفسه أن يمسخ ذات كلّ من استظلّ به . أنا من أولائك الذين أحسّوا بحدسهم ، وقوّة شخصيّتهم أنّ الفكر العقلانيّ المنطقي ليس إلّا وجها من وجوه الذّكاء ، ولعلّه أشدّ الوجوه الباعثة على اليأس . والذّكاء هو قبل كلّ شيّء قدرة على الخلق ، على الابتكار ، على الإبداع ، ولا يكون ذلك إلّا بالتّجذّر في اللّغة الأمّ . وهذا الوجه من الذّكاء ، هو الذي ضحّى به النّظام التّعليمي الصّادقيّ . ولكنّه عندما يتعلّق الأمر باللّغة القوميّة في نظام الإزدواجيّة تكون الكارثة ، وعرفتها في أصدقاء عزيزين عليّ ، ضاعوا في متاهات مأساويّة ، سواء بالنسبة إلى ذاتهم أو مجتمعهم .

أنا لم أكن كسرطان البحر الذي يفقد قوقعته في فترة من حياته ، ويعيش الخوف المستمرّ من ثعبان البحر طيلة أيّام وليال حتّى تنبت له قوقعة أخرى . أنا حافظت على قوقعتي ، ولم يبتلعني الثّعبان . ولكنّ مأساتي المتمثّلة في الحفاظ على قوقعتي هذه ، كانت أشدّ وأنكى أثناء الدّراسة وبعدها . فأنا رغم قوّة حافظتي ، وخصب مطالعاتي ، سواء بالفرنسيّة أو العربية ، أستنكف من أن أكون كالببّغاء ، وأريد دائما الإطمئنان إلى رأيي ، والاتّجاه اتّجاها مخالفا لما يملي عليّ إن رأيت فيه مأخذا من المآخذ . وعند ذلك أرمي بفساد التّفكير ، والرأي الفطير ، ويعاب عليّ التّمسك بالشّاذ من الآراء والاستنباط الخاطىء والتّنكّب عن التّسلسل المنطقي للأفكار ، والإغراق في الحذلقة الكلاميّة ، والخيال المريض . لا مجال لأن أكتب مثلما يكتب الكتّاب الكبار بطرافتهم وفحولتهم . أنا يجب أن أبقى صغيرا ، ساذجا ، بسيطا في أفكاري ، وكتابتي . يجب أن أبقى ببّغاء . وهذا ما لم أرضه ولم أقبله . فكانت الخيبة تلو الخيبة . وهو ما جعلني أيضا أتمسّك بلغتي

ولا أريد أن أخسرها باحتضاني للنّسق اللّغوي المغاير الذي كانت تفرضه علينا اللّغة الفرنسيّة . أنظر إلى زملائي الذين نجحوا في تعليمهم العالي بفرنسا ، كيف يجدون صعوبة في الكلام بالعربيّة فإنهم يتلجلجون ، يتمتمون ، يتعثّرون ، إلاّ قلّة قليلة حمت نفسها من ذلك بوعي وحرص منها . وحتّى بعض النّابهين منهم الذين اكتسبوا شيئا من السّلاسة فإنّ كلامهم إمّا أن يصبح غامضا ، وهذا شأن بعض أساتذتنا الأفذاذ الذين لا يفهمهم في القسم إلاّ عدد ضئيل من التّلاميذ والبقية سلّموا أمرهم لله، ولاذوا بالفرنسية إلى الأبد . وإمّا أن يكون كلامهم مجرّد ألفاظ ، ترصف لا طائل من ورائها ، وخطابة ليس فيها إلاّ السّحر اللّفظيّ والبلاغة المتصنّعة .

وهكذا لم يفهم جلّ أساتذتنا أنّ قضيّتنا ، نحن التّلامذة آنذاك ، ليست قضيّة حشو للأدمغة ، وجملة معارف يعتدون على أذهاننا الصّغيرة بها ، وأكثرهم يعرفون أنّ البيداغوجيا تقتضي أن يلقّن التّلميذ ما هو قادر على قبوله ذهنيّا ، لا ما يقرّره الاستاذ ، ويفرضه فرضا بدون إفهام غالبا ، بل هي قضيّة لغويّة أساسا قضيّة تلقين كائن حيّ لكائنٍ حيّ ، واللّغة كائن حيّ ، إن مسختها ، أو تسبّبت في اضطراب نسقها ، مسخت متلقّيها ، وبعثت في نفسه الاضطراب ، والتّشويش اللّغوي ، بل هي قضيّة ثراء الشّخصيّة ، تكوين بشر سويّ يحترم نفسه ، ويحترم المجموعة ، هي قضيّة إبداع وابتكار ، واختراع لا لانسياق في آخر الأمر إلى نوع من المرامقة في الإمتحان ، وهو ما كان يسمّى بالـ«بَاشُوتَاجْ» حتّى قبل الباكالوريا والدّيبلوم. أين كلّ ذلك في هذا التّعليم ؟ وأين تعليم الفنون ؟ وأين الثقافة بالمعنى النّبيل ؟ وأين الانفتاح على المحيط ومعانقة العصر ؟ أنظر إلى جلّ المتخرّجين من هذا المعهد من منهم يفتح كتابا ، ويتابع ما في الدّنيا إنّهم قلّة ، أغلبهم منصرفون إلى أحوالهم الخاصّة ، إلى الكسب . فحتّى الجمعيّات الثقافيّة العديدة

نواديها مقفرةٌ ، وروّادها أغلبهم من الزّيتونيّين . إقرأ ما تكتبه الصّحافة عن هذه الظاهرة المخزية. إقرأ ما يحبّره زين العابدين السّنوسي بالدّموع عند تعريجه على هذا الموضوع .

هذه مأساتي في الصّادقيّة ، ولو أنّني في آخر الأمر بعد أن غادرت المدرسة حصلت على ديبلومها . هكذا من أجل والدي ، وخرجت ناجيا بنفسي إلى المجتمع لأجد فيه الملجأ ولكن يا خيبة المسعى أيضا».

قال الشيخ علي :

ــ عندما قرأ عليّ عادل هذه الصفحات صدمت لما كتبه ، وقلت له كيف تسمح لنَفسك بأن تطعن في تعليم نال إعجاب كلّ التونسيّين حتّى أنّ أمنية كلّ وليّ هو قبول ابنه في هذا المعهد. الإدارة أغلبها من المتخرّجين من الصّادقيّة ، علاوة على الأطبّاء ، والمحامين ، والأساتذة ، و هم مبجّلون مكرّمون .

ــ كنت طرقت هذا الموضوع ولعلّك سرحت في مسائل أخرى . ضمان العيش هو الدّافع، يا علي. لكن لماذا تحملون فكرة عن النّقد خاطئة ؟ فالنّقد لا يكون لاذعا ، إلاّ إذا تناول الأمور العظيمة . والمعهد الصّادقي عظيم ، وعظمته كامنة في الأقليّة ، هذه النّخبة التي نعتزّ بها ، من جوانب عدّة ، وإن كانت غير متكاملة الشّخصيّة ثقافيّا اللّهم إلا بضعة أنفار . أمّا الأغلبيّة أين هي ؟ كان من المفروض من مدرسة تدخلها نخبة بالمناظرة على صعيد البلاد كلّها ، أن يكون النّجاح مائة بالمائة ، تسعون بالمائة على الأقلّ . والواقع المرّ أنّنا لا نصل إلى عشرة بالمائة .

ثم هل عرفت شاعرا فحلا ، أو قصّاصا ، أو كاتبا بارعا تخرّج من الصّادقيّة ، أغلب الذين على السّاحة الثقافيّة هم من الزّيتونة . هناك بعض الباحثين القادرين ، أمّا المبدعون من الصّادقيّة أين هم ؟ لمست فيهم

شدّة على أنفسهم ، وعلى الأدباء . هم ينشدون الكمال . هم يريدون أن يقلبوا سنّة الحياةِ التي تقول بالتّدرجّ في التّطوّر . لا بدّ من العفويّة ، ولا بدّ من بداية بعد ركود طال ، وجمود استحكم . يمنعون النّاس من الكتابة ، ويقولون لهم انتظروا حتّى يشتدّ عودكم ، ومن أدراه أنّه لم يشتدّ عوده . أمّا إذا كتبوا فإنّهم يمسخونهم مسخا . لأنّهم لا ينقدون بل يسلخون . ألا تعرف أنّ من شعرائنا المجيدين من أحرق ديوان شعر كامل لأنّ أستاذا عظيما سلخه سلخا ، وعاب عليه أن يقول الشّعر ، هو ينصحه بالصّمت . ولولا أنّ الشابي وجد في مجلّة أبوللّو متنفّسا لما عرفه التّونسيّون . وهل يعرفه التّونسيّون الآن ؟ بل إنّهم سيتنكّرون له ، وسيضيقون به ذرعا ، ولو لا إقدام زين العابدين السّنوسي على نشر شعره في مجلّة العالم الأدبي ، ومساندته له لما عرفناه . تصوّر الكاتب عندما يصبح هو نفسه الخصم والحكم : خصم نفسه لأنّه إذا كتب أصبح العدوّ اللّدود لما كتب . يريد الكمال ، ويحاول أن يكون حكما لينصف نفسه ، ولكنّه خصم لها . فيضيع ويقلع عن الكتابة ، ويريد أن يشيع ذلك بين النّاس ، وتصبح هذه الحالة من الإحباط هي السّائدة . ومن يقوم بهذا ؟ هي تلك النّخبة التي كنّا ننتظر منها أن تفتح أبواب الإبداع ، والخلق على مصراعيها . خوفي من انتصارها ، فتخلق أجيالا من المحبطين المكبوتين ، النّاشدين للكمال ولا كمال .

ـــ أنا أعرف أنّك عندما تتمسّك بفكرة من الصعب أن تتزحزح عنها . وأنا ذكائي عسكريّ لا يسمح لي بأن أفهم هذه الأمور فهما عميقا . ألا تعرف أنّ الذّكاء ثلاثة : ذكاء بشريّ ، وذكاء حيوانيّ ، وذكاء عسكريّ .

وضحك وقال :

ـــ أنا لم أسمع أنّ نوحا حمل في سفينته عسكريّ . كان فيها البشر والحيوان أمّا العسكريّ فلا .

ـــ كيف تتحامل على الإزدواجيّة اللّغوية . بينما هي تعتبر لدى عامّة النّاس انفتاحا على العالم . وقد قلت لي إنّ أساتذتك نصحوا بإتقان لغة ثانية حتى لا نكون أمّة تراجمة .

فضحك ضحكة عاليّة كلّها سخريّة وقال :

ـــ أتعجّب كيف يسمح التّفكير الكرتزياني بهذا الزّعم ! نحن الآن أمّة تراجمة . إذ كلّ واحد منّا يحمل جهازاً في عقله ، يجعله يترجم في كلّ دقيقة . بينما الأمم الحيّة توكل ذلك إلى نخبة قليلة تطلعها على أهمّ المستجدّات في الأمم الحيّة . وبهذه الصّورة يثرون لغتهم وعلومهم ، ومعارفهم ، ويطلقون العنان لمبدعيهم ، وخلاّقيهم ، وعامّة شعبهم ، ولا يكبّلونهم بإزدواجيّة تشوّش عليهم سليقتهم وعفويّتهم . هذا هو شأن الأمم ذات اللّغات الحيّة . واللّغة العربية لغة حيّة قدرت وقادرة على مواكبة العصر . أمّا إذا تمسّكنا بالإزدواجيّة بهذه الصّورة فمعناه أنّنا مازلنا نريد التّواكل على غيرنا . أليست هذه الأمم على حقّ ونحن على باطل ؟ ألسنا نحن الذين حكمنا على أنفسنا بأن نكون أمّة تراجمة . وخوفي من أنّ هذا الذي استجازه النّظام الإستعماري ، وغرسه فينا ، سترضاه أجيال وأجيال من شعبنا ، وتكون الكارثة حتّى أنّ أبا القاسم الشّابي عبّر لي، في يوم من الأيّام، عن أسفه لأنّه لا يعرف الفرنسيّة وقال لي : إنّه يطير بجناح واحد . قلت له أنت مخطئ لو كنت تعرف الفرنسيّة لما حلّقت بلغتك في أعلى علّيين من التّجديد . أنت بما استوعبته من ترجمات الأدب الغربي ، نفذت إلى كنه الحداثة ، وأمكن لك بامتلاك لغتك بدون شريك أن تصوغ عبارة جديدة ، وموسيقى للشّعر حديثة . أنظر إلى قصيدتك الأولى التي لم تنشرها ، تلك التي أطلعتني عليها أخيرا ، هي تقليديّة ، مجرّد صياغة ، ولكنّك عندما التقيت مع الآداب العالميّة مترجمة في لغتك وتناغمت مع إيقاع الحياة فيها فتحت في الشّعر العربي إيقاعا لم يعرفه من قبل شعراء العربيّة لا شوقي ، ولا حافظ ، ولا مطران .

ـــ اسمع يا عادل دعنا من هذا ، وحدّثني عن زواجك بليلى ، وحبّك لها أو كرهك لست أدري .

وكان ، في هذه المرّة ، مستعدّا لخوض هذا الموضوع ، ولعلّه فكّر فيه مليّا ، بعد أن أعرض عن التّبسط فيه عندما سألته في المرّة السّابقة . وقال ، وهو ينظر نظرة فيها سهوم ، وكأنّه غير مقتنع بما سيفوه به ، أو هو لا يريد أن يقول لي كلّ شيء :

ـــ القصّة طويلة ، لكنّني أختصرها لك . أنت تعرف أنّني كنت أتردّد كثيرا على بيت خالي . وكانت رقيّة ، أخت زوجة خالي ، تحبّني كثيرا ، وكنت آوي إليها في خلوتها ، وأنا ، مازلت طفلا . وكنت أعانق فيها ، ببراءة ، أنوثتها ، وألتذّ بنكهة قبلاتها ، وبشذى شميمها ، وأستطيب في عفويّة دفء نهديها ، وانتصاب حلمتيها ، وأندسّ في شغف بين أطراف جسدها النّاعم ، وغدائرها المرسلة قبل شدّها استعدادا للنّوم . حتّى صدّتني عن نفسها عندما دخلت المراهقة . ورغم هذا ، ورغم الحياء ، بقيت أحنّ إلى ضحكاتها الرّخيمة ، عندما أقبّلها بين فوديها ، وهي لا تحتمل ذلك ، وإلى دغدغة خاصرتيها ، وهي ترتعش بين يديّ الصغيرتين ، فيصبح الفراش حلبة للدّفع ، والممانعة ، والإقبال ، والإدبار ، والجذب والإرخاء ، إلى أن يصيبنا الإجهاد من لعب لا نعرف حدّ البراءة فيه . ولكنّه يبقى سرّنا الحميم الذي لا ينكشف إلّا لأعيننا ، عندما تتلاقى في السّهرة أو أثناء الطعام . فتعلو الابتسامة وجهينا ، وتفترق نظراتنا بسرعة . نعم . رغم كلّ هذا ، ورغم الحياء الذي كان يجلّل وجهها، وتنطق به عيناها كلّما صادف أن ظلّلنا مكان خلا من الرّقيب ، فإنّي لا أتمالك عن معانقتها وضمّها إليّ ضمّة ، لست أدري أهي الحنان أم العطف أو الحبّ ، وأشعر من كلّ قلبي أنّها تبادلني مثل ذلك . وأختم اللّقاء بقبلة أطبعها على شفتيها ، فترتعش بين يديّ ، ويغلي

دم الشّباب فيّ ، وتطفح الشّهوة منذرة بالرّشح . فتدفعني دفعا ، رفيقا ، ثم تقبل عليّ ، وتمرّر يدها على خدّي وتقول : يا شيطان كبرت . والغريب أنّني لم أفكّر ، في ذلك الوقت ، أكثر من هذا ، بل كنت أوثر أن تبقى هذه السعادة مفتوحة على المستقبل ، عطشى لأن تكرّر المرات والمرّات بمثل ذلك الشّوق ، وبمثل تلك الحرارة ، لا تستنفد ولا تستفرغ . هي في قوّة رائحة مشموم الفلّ الذي لا أنسى أن أضعه بين يديها في كلّ زيارة . إذ كانت تحبّ الزهور ، والورود الحمراء ، العبقة ، ولكنّ الفلّ هو كيمياء حبّنا .

فقاطعته وقلت له : أنا أعرف أنك تستطيب دائما هذا الوصف بل تلتذّ به ، وتعتبره متعة من متع الحياة .

فصاح بي : أي أنت أيّها الذي تشتمّ فيك رائحة التّزمّت والنّفاق . ما الفرق بين اللذّة التي تشعر بها البهيمة ، واللذّة التي يشعر بها الإنسان . تلك لا تعدو الغريزة ، أمّا هذه فهي لا تسمو ولا تبلغ ذروتها إلّا بما جبل عليه الإنسان من كلام وتعبير . ألم يقل الرّسول محمّد : «لا يقعنّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول قيل وما الرّسول يا رسول الله ، قال القبلة والكلام» . وقال: «ثلاث من العجز في الرّجل ، أن يلقى من يحبّ معرفته فيفارقه قبل أن يعلم إسمه ونسبه ، والثاني أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث أن يقارب الرّجل جاريته أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدّثها ، ويؤانسها ، ويضاجعها ، فيقضي حاجته منها قبل أن تقضي حاجته منه» . وورد في آداب الجماع أنّ بعض أصحاب الحديث يكبّر حتّى يسمع أهل الدّار صوته . وما ذا تريد منّي أن أزيد على هذا وفي كتاب إحياء علوم الدّين للغزالي تفاصيل جنسيّة شبقيّة لو كتبها واحد منّا الآن لا تهمّ بأبشع التّهم .

وعند ذلك تدخّل عبد اللطيف بلطف وقال لجدّه :

ـــ يا جدّي العزيز هؤلاء الشّبان الذين أمامك مازالوا صغارا ، وأنت تنساق في نقل ما قاله لك عادل بدون غربلة ولا تورية .

ـــ صحيح . وكيف تريد منّي أن أحذف ما به اختصّ عادل . والله في كتابه الكريم لم يتحرّج من أن يصوّر مشاهد تبدو منافية للأخلاق ، والقصد دائما هو الإعتبار ، وكتب القدامى زاخرة بذلك . ومن يقرأ اليوم السّيرة النّبويّة يتعجّب من درجة حريّة التّعبير، وسعة أفق تلك البيئة. وافتح لسان العرب تجد فيه كلّ الكلام البذىء ، والأوصاف الخبيثة ، الماكرة . فهل نحجب عن النّاس ، وعن النّاشئة ما في بطون الكتب . هو كلام وليس فعلا . المهمّ ألّا يكون فيه تحريض ، بل الغرض هو العلم والمعرفة والإعتبار .

ثمّ استرسل فيما كان بصدده مع عادل وقال :

ـــ لم يبق لك يا عادل إلّا أن تصوّر لي كلّ ذلك . إِحْكِ لي عن ليلى ودعني من رقيّة .

ـــ ولكنّ ليلى برقيّة ، ولولا هذه لما كانت الأخرى بالنّسبة إلّي . قلت إذن : دامت سعادتي مع رقية ردحا من الزّمن حتّى خطبها تاجر موسر من «الشّواشِيَّهْ» . فحزنت لذلك حزنا عظيما ، وفهمت رقيّه انكساري من عينيّ . ثمّ حجبت عنّي ، حتّى تزوّجت . ولم يكن في إمكاني أن أخلو بها ، ولو لحظة واحدة اللّهم إلّا عندما أراها مع زوجها في دار خالي أو مع أختها . وبعد ذلك أصبحت تدعوني إلى بيتها مع كافّة أفراد عائلة خالي .

وجاء الصّيف ، وانتقلت رقيّة مع زوجها إلى شاطىء خير الدّين ، في بيت جميل ، يشرف على البحر . وكان من عادتنا أن نجتمع معا

في أيّام الصّيف ولياليه . وبالطّبع كان خالي وأفراد عائلته وأخوه الشّاذْلي يدعون . .من حين إلى آخر ، لقضاء بضعة أيّام بخير الدّين ، فرارا من حرارة الصيف الشّديدة بالعاصمة . وكان زوج رقيه رجل ببطنه اندحاق تظهر عليه النّعمة بل الشّره . ولعلّه ليس له من إقبال على الدّنيا — إلى جانب تصريف شؤون تجارته وأملاكه — غير الإقبال على صنوف الطّعام بشره ، من مرقة القنّاريّة إلى الملوخيّة إلى الطّواجين بأنواعها والمرطّبات والحلويّات وغير ذلك. ووجد في رقية ضالّته فهي لا تبخل بتهيئة أصناف الطعام المحبّبة إليه ، ولا تتوانى في تلبية أيّة رغبة في هذا الباب ، ولو كلّفها السّهر أو النهوض في الصّباح الباكر . ظنّا منها أنّ ذلك يقويّ زوجها ، ويسمح له بالقيام بواجبه الزّوجي الأهمّ على أحسن الوجوه أو الأوضاع أو التّراكيب . وكان لا ينفكّ يثني على زوجته ، لأنّه وجد معها من الهناء ما زاد في عظم بطنه إذ كان لا يتحرّج أمام الخاصّ والعام من ملاطفته ، والتّرتيب عليه ، وتسميته بالـ «بَيَّهْ» ولكنّه مع هذا لا يركن للصّمت بل كان كثير الكلام في الباطل مع لثغة بارزة تضفي على الألفاظ الجارحة التي يتفوّه بها وقعا كالمسامير . وكان حنتوفا ينتف بين أظافره شعرات ذقنه ، رغم حرصه على حلقه كلّ يوم .

أمّا «رقية» فقد ظهرت ، رغم طول صباها في بيت أختها، جميلة، أنيقة . وبقيت على خفرها ، يعلو وجهها الحياء ، وتظهر في عينيها العفّة ولكنّه أصبح في مشيتها ترنّح ، وتغنّج ، وتبرّج وميل بارز إلى ما اكتشفته بعد طول حرمان ، من متعة جنسيّة . كما كان تخطّرها ينمّ على دعوة خفيّة لإطفاء أوار رغبتها أمام من تحبّه وترضاه . ومع هذا فهي تظهر شيئا من الجرأة على زوجها ، وكأنّها تخالفه ، وليس بينهما خلاف يذكر . هو التدلّل بعينه . واستطاب منها زوجها هذه السّيرة ، واستثناها من قائمة الذين تعوّد لذعهم بلسانه ، ولسان حاله يقول : أليس الزّواج السّعيد هو هذا الحوار الطّويل الذي يظهر دائما

قصيرا . ومع هذا فرقيّة محبّة له ، متحبّبة ما في ذلك شكّ أماً. هو فقد كانت له مؤهّلات واستعدادات كفيلة بأن تجعل منه ديّوثا ، ولكنّها اكتفت بأن صيّرته مجرّد «طَحَّان» . ولم يكن ليصدر ذلك منها عن سابق إضمار ، ومكر سيّىء ، وقصد الإساءة إلى زوجها وإنما هي الصّدفة المحض والإنسياق إلى الشّهوة ، بدون خبث مبيت وسوء نية ، عند الوقوع في شرك اللذّة مع السّتر والبعد عن الفضيحة .

ــ أما كفانا حديثا عن حنتوفك هذا ؟ وهل هو جدير بكلّ هذه العناية . وألا تحدّثني عن خطبك مع ليلى ...

ــ ولكنّها «رقيّة» وجمالها ودلالها ... تلك لن أنساها أبدا ... وما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل ... مسكينة أصيبت بمرض عضال ، ولكنّها بقيت كما هي على رشاقتها ، وأناقتها . تصوّر أنّنا نبيت كلّنا في بيتها بخير الدين . خالي وزوجته ينامان في فراش الحنتوف تكريما ، وتقديرا لهما . أمّا زوج رقيّةْ ، فهو لا يرضى إلّا بالشّرفة . فهو بهذه الصّورة لا يزعج بشخيره ، ونخيره إلّا أمواج البحر. وأمّا نحن فنتوزّع على الغرف الأخرى، ونختار منها أقلّها حرارة ، وأكثرها تقبّلا لنسيم البحر وكان الشّادلي يدّعي دائما أنّه لا ينام من شدّة الحرّ وتراه في الهزيع الأخير من بعض اللّيالي ، يتنقّل من مكان إلى آخر . فرابني أمره ، وتيقّنت أنّ له علاقة مع رقيّةْ . وحزمت أمري في ليلة ، سكنت فيها كلّ نأمة ، وقلت في نفسي أنا اكتفيت مع رقيّةْ بحبّ عذري دام طويلا ، عشت على أنقاضه بعد زواجها ، أتذوّق بقايا سعادة باهتة وهذا الشّاذْلي الفتى الأرعن ، ينال منها ما لم ينله حبيبها الأول . وانسللت إليها ، وهي نائمة ، واندسست فيهَا كما كنت أندسّ وأنا طفل فلم تمانع وقالت :

ــ أُوَّهْ ... يَا سِي الشّاذْلِي ... هو كُلّ ليلة ...

فكتمت أنفاسي ، ولمّا توغّلنا فيما ليس منه بدّ ، وأصبح الأمر بدون رجعة ، قلت لها :

ـ لا هو حبيبك الذي يَحبّك منذ أن تذوّق طعم الحياة .
ـــ أُوِّهْ ... عَادِلْ ... وَلِّيتْ رَاجِلْ ... يَا حَلُّوف ...

ولا فائدة في أن أطيل عليك الحديث ، ولا فيما وجدته فيها من متعة تفوق كلّ ما عرفته مع الكثيرات من النّساء . لأنّ كلّ جزء من جسدها كان يتفاعل معي تفاعلا عجيبا ، ويحتضن ما فيّ احتضانا ، بل يحتويه ... يذوب فيه . ثمّ إنّ لها قدرة على القبض والبسط ، والإرتهاز لم أرها عند غيرها . وكم كانت في غمرة إيغافها تدعوني إلى أن أكفّ : ... يِزّي ... يِزّي ... ولكنّها في الواقع ليست تلك إلّا ذروة الشّبق ، ومنتهى اللّذة التي تكاد تشارف منطقة الألم ، لتعود من جديد إلى نشوة المتعة ، ونقطة الإنطلاق ... وكنت أتعجّب كيف أصبحت رقيّة الحيِّية الخفرة على هذه الدّرجة من حذقها للجنس . ولكنّها رغم هذا بقيت عفيفة العينين والأذنين . فنصفها الأعلى هو للحصان ، المبرّأة من العيوب ، الجليلة التي تظهر للنّاس ، ويجلس إليها القوم ، والنّصف الأسفل لطالبة اللّذة ، والمستهترة في الجنس ، في كتمان شديد ، وسرّيّة عجيبة . مع أنّ الحياء هو ضدّ للحبّ وللمرض ، وأصيبت المسكينة بهذين الاثنين واحتفظت بالحياء مع هذا

ولما أطال عادل عليّ الحديث وقرب وقت زيارة ليلى نبّهته إلى ذلك ، وودّعته قائلا :
ـــ جبر الله لك بعض عقلك يا أخي عادل ... لا تنس مواصلة كتابة مذكّراتك . فأنا مشتاق إلى معرفة إخفاقك في عالم السّياسة ، والنّقابات والأدب . أمّا هذا الذي تحدّثني عنه فهو قسمة كلّ خلق الله . فكلّ يظنّ أنّه اكتشف من جديد الحبّ والمرأة واللّذة . هي مأساة الإنسانية أن يذوق كلّ فرد لوحده مرّ الحياة وحلوها حسب مذاقه الخاصّ مثلما يذوق طعم الموت ويظنّ أن له شريكا في ذلك فالمأساة إذن هي في

أنّك فرد وآخر . ولو كنت أنت و«رقيّه» شيئا واحدا لكنت مثلها مريضا ومثلها حييّا . بينما أنت الرّقاعة بعينها وإذا عصيتم فاستتروا .

ــ هكذا يا علي ... أرأيتني أجرّر أذيالي في المواخير أمام الخاصّ والعام . أنا حدّثتك حديث الصديق للصّديق لأدلّل على أنّ المظاهر الكاذبة التي يعيش فيها مجتمعنا لا تصلح شيئا من شبابنا . هي النّفاق بعينه . وهل تظنّ أنّ مقولة إذا عصيتم فاستتروا لا تعمل على إباحة العصيان ولا تحرّض عليه . هي مقولة المجتمع المنافق الذي يؤدّي بأفراده إلى الضّياع وخاصّة في مرحلة شبابهم .

وقلت له مداعبا ، مودّعا مرّة أخرى :

ــ أظنّ أنّ بابا عبد الله قد أثّر فيك قبل هلاكه .

وعند خروجي من الغرفة التقيت بليلى ، و هي تختال في «سِفْسَارِيِّهَا» «في وُسْط الدَّارْ» وقد ظهرت من السِّفْسَارِي تسريحة لشعرها رائعة ، فسلّمت عليها في خشوع أمام جمالها وقلت لها :

ــ عادل ينتظرك على أحرّ من الجمر .

وابتسمت ابتسامة استشففت منها مخايل السّعادة ، وسارت في طريقها ، ووراءها «الحاج كرنبهْ» والتفتّ فإذا هي وكأنها طيف حوريّة من حوريّات الجنّة ، يتوارى بين سواري القصر .

ــ 12 ــ

لما تحلّقت العائلة حول الشيخ علي من جديد قال :

ــ غبت يومين كاملين عن عادل . لم أزره لأنّني شغلت بأشياء طرأت من جرّاء تطوّر الأحوال في البلاد . لقد نزل المعصار بعد أحداث 9 أفريل كامل الإيّالة . وتعقّبت الإدارة كلّ الوطنيين الدستوريّين منهم وغير الدّستوريّين ، حشرتهم في السّجون ، وبدأت باستنطاقهم أمام المحكمة العسكريّة . ورغم هذا فإن ثلّة من الشّبان الوطنيّين ردّوا الفعل بعنف ،

وقطعوا أعواد الهاتف وأشعلوا النّار في بعض مراكز البريد . وكان منهم أحد الأقارب فشغلت بذلك وحاولت أن أفعل شيئا ولكنّ التّهمة كانت خطيرة . ولم يكن في مقدوري أن أنقذه . فاكتفيت بالاتصال بمحامي الوطنيّين ، وزوّدته بالملفّ . وفي هذا الجوّ من الاضطهاد هبطت السّكينة على البلاد ، وأصبحت الإدارة الاستعماريّة هي صاحبة القول الفصل لأن الصحافة لجّمت والزّعماء غيّبوا في السّجون . وهكذا عندما يجد الشّعب نفسه بدون زعماء حقيقيّين ينيرون له الطّريق ، ويبقى تحت تأثير ما تصنعه الإدارة من وجهاء ، وأعيان يصبح قطيعا لا شأن له ، حتّى يصل إلى درجة الصّفر . وعند ذلك ــ إذا بقيت في الشّعب بقيّة حياة ــ يبدأ العدّ التصاعدي ، ويفرز زعماء من جديد . أمّا في تلك الفترة ، فإن النّاس كانوا يشاهدون أنواع الظّلم بأعينهم ، ويستكينون إلى العملاء ، والوشاة و«القَوَّادَهْ» والمُتَلَصِّصِين ، والعيون ، والأرصاد ، والسُّعاد ، والدسَّاسين ، والمخبرين ، والنّمامين ، ولا من يثير فيهم حميّة ، ويستفزّ كرامة ، كأنّهم خصوا خصاء ،وذهبت فحولتهم .

ولمّا زرت عادل وجدته على أحرّ من الجمر ، يفكّر في طريقة للاتّصال بي هاتفيّا ، وما أن رآني حتّى قال :

ــ إيه يا أخي ... هكذا تتركني وحدي . فهل ستتخلّى عنّي أنت أيضا .

ــ لا ... يا علي ... إنّما الأمر ليس كما تظنّ .

وحكيت له قصّتي فتألم لقريبي ولوضع البلاد . وقال :

ــ كلّما تقدّمت في السّنّ إلّا وشعرت بالعجز . لا يحمّل الله نفسا إلا وسعها . ما أصبت وأصيب به الناس من حولي لا تقدر على حمله الجبال . ولكن ما الحيلة . والتفت إلى النّافذة وتقدّم منها خطوات وقال :

ــ هذه الحديقة ، وما فيها من أشجار وأنوار لا تقدر على تعويض ما أشعر به من فقد للطبيعة ، لا لسبب إلّا لأنّني أحسّ بنفسي حبيسا .

ومهما جمع لي «الحاج» من زهور ، وورود وكدّسها هنا في الغرفة فلا تعوّض عليّ جولة بين البساتين والحقول وأنا حرّ طليق . وعلاوة على ذلك فإنّني أشعر وكأنّني فقدت عزيزا عليّ ... الموسيقى يا علي ... مفقودة هنا ... لا عودي يخفّف عنّي بلواي ، ولا حفلة الرّشيديّة التي كنت أملأ بأنغامها وألحانها جوانحي مرخّص لي حضورها إذ ليس في إمكاني أن أظهر أمام النّاس في النّادي . فهل في إمكاني أن أجلب عودي ... أو الفونغراف .

ــ سنرى ذلك ... ليس هذا بعزيز ...

وأخذ يغنّي دور سيّد درويش : أنا «هويتْ وانْتهيتْ» وسألته عمّا كتب فوجدته قد مضى شوطا كبيرا في مذكّراته وأشرف على إنهائها . والتفت الشّيخ علي إلى عبد اللطيف وقال له : اقرأ ، فقرأ :

«أصابتني حرفة الأدب يوم أن وقع بيدي كتاب بالفرنسيّة معدّ للأطفال سلّمنيه معلّمي . وكنت في السّنة الأخيرة من التعليم الإبتدائي . وهذا المعلّم الفرنسي أذكره بخير ، وأعشق فيه إنسانيّته ، وتفانيه في تلقيننا المبادي السّاميّة ، وحثّنا من طرف خفيّ على حبّ وطننا ، والاعتزار بحضارتنا ، ولكنّه مع هذا كان حريصا على تلقيننا اللّغة الفرنسيّة ، وجعلها محبّبة لدينا بما روّضنا عليه من خضوع إلى منهجيّة فيها الصّرامة العقليّة ، والتّفكير العقلانيّ السّويّ ، واليقظة الفكريّة الدائمة . وكان يقول لنا فكّروا مثلما كان يفكّر أجدادكم كابن خلدون ، وأفيرُواس وأفيسانْ ، يعني ابن رشد وابن سينا . وكنّا ننظر إليه بعيون واسعة لأنّنا لم نسمع بهم أبدا في وسطنا . ورغم شدّته وحرصه المضني فإنّه كان ييسّر علينا الفهم ، ويتيح لنا سرعة الالتقاط والحفظ .

لم نتعوّد مطالعة كتب معدّة للأطفال بالعربيّة ، لأنّها غير موجودة في ذلك الوقت . وجلّ ما ينتهي إلينا من الكتب ، وندعى إلى قراءته ، إنّما هي كتب موعودة للكبار . وممّا استهواني كتاب ألف ليلة وليلة ، بدأت في قراءته متشبّثا بما أفهمه ، معرضا عمّا لا طاقة لي به . وأعجبني في كليلة ودمنة القصص التي يتكلّم فيها الحيوان ويفكّر . أما كتب الفرنسيّة فهي ميسّرة كنّا نقبل على مطالعتها إقبالا عجيبا ، ويزورُّ أغلبنا عن الكتب العربيّة إلاّ قلّة قليلة ، منها أنا ، تحاول بحدس دفين ، وإحساس غامض ، التشبّث بكتب قريبة ، من أنفسنا عزيزة علينا ، نعتبرها منّا وإلينا . ولكن ما العمل ، وليس لنا بالعربيّة ما يقابل كتب المطالعة **بالفرنسيّة، ولا حتّى صدى ما كانت تحكيه لنا جدّتنا أو العجائز التي** كانت تتنقّل من بيت إلى بيت لتقصّ بمقابل ماليّ زهيد ، ما حفظته من الخرافات الشعبيّة أبا عن جدّ من مثل قصص السّبع عجائز ، وولد السّلطان بو سبعة براقع ، وفِلِيفْلَهْ بِنْتَ الشَّمْرُوشْ ، وَذَهْبِيَّهْ ، وبَابَغَيُّو ، والقَدِّيدَهْ والصَّاغْ تِشِيشْ ، والمَرَا المتجبّرة المتكبّرة وغيرها وعددها يفوق المائة .

وكان معلّمي الفذّ فطن إلى هذا الشّعور المنغرس فيّ ، مقدّر شغفي **بلغتنا، وحرصي على اكتشاف عيون أدبنا، وأبطال ملاحمنا،** فاعطاني كتابا غير موجود في مكتبة القسم ، جلبه خصّيصا لي يحكي قصّة عنترة ابن شداد . فشكرته على ذلك ، ولكنّني غضبت في قرارة نفسي وصرَخ صارخ فيّ يقول : كيف . عنترة بن شدّاد هذا البطل العربي شغف به «الحاج كرنبهْ» وحفظ من الفداويّ كلّ أطوار حياته أقرأ عنه من كتاب بالفرنسيّة . وقرّرت أن أترجمه إلى العربيّة . وهو ردّ فعل غريب . اعتبرته في ذلك الوقت من طبيعة الأشياء . وترجمته بعناء ولا بدّ أن كان مسخا فظيعا للنّص الفرنسيّ ، ولكنّني كنت معتزّا به ، وأطلعت والدي عليه ، وأعجب بجرأتي أكثر من إعجابه بقدرتي

على التّرجمة ، وسلّمه إلى صديق له متخرّج من الصّادقيّة ، فشجّعني على المواصلة غير أنّه لم يخف عليّ ما كان ينمّ عليه لسان حاله من اشمئزاز من هذه التّرجمة . ورغم هذا فلقد كانت هذه التّجربة انطلاقة سهّلت عليّ الدخول في لعبة الكتابة . ودخلتها من ذلك الوقت ألهو بها ، وأنظر من خلالها إلى نفسي كيف تتألّم ، وأحكي بواسطتها ما أراه وأعيشه . فكانت لهوي الذي طالما قادني إلى تجذير يأسي وتعميقه . وحسبت أنّني بها أصلح أمري ، وأكون خيرا ممّا أنا فيه ، فقادتني إلى طريق مبثوثة بالأسى والحزن وليس في إمكاني التّنكّب عنها والخروج من أخدودها . فكانت كتابتي لهوا ، ويأسا معا . وزادني أسفا على أسفي أنّ رفيقي الأسمر اختار الفرنسيّة للتّلهي بكتابتها فوجد من معلّمنا الفرنسيّ كلّ عناية ، وقاد خطاه الأولى بإصرار ، وبقي متّصلا به طيلة تعليمه الثّانوي ، وهو الآن من الأقلام الجيّدة بالفرنسيّة ينشر له بفرنسا . أمّا أنا فلم أجد والحقّ يقال من يأخذ بيدي في مجال الكتابة . وكيف يطلب من أساتذتنا ذلك وهم أقسى على أنفسهم من قسوتهم على غيرهم . هم أنفسهم يعيشون مأساة من أجل هذا الأمر . أنظر إليها في أعينهم ، وأفهمها من لسان حالهم . فهم يطلبون منك المستحيل . يؤمنون بالحداثة ، ويريدون منك أن تكون عصريّا ، ثمّ يفرضون عليك جماليّة القدامى وذوقهم . من هنا جاء التفاوت بين الفكرة والتّعبير وحلّ الغموض . فكان تمشّيهم يقود بدون قصد إلى العقم وإلى التّعجيز . ولهذا هرب جلّ الصّادقين إلى الفرنسيّة . والأغرب من هذا أنّه نشأت شبه مازوشيّة ، بثّها أقدر الأساتذة على امتلاك اللّغتين ، فأصبح التّعبير بالعربيّة تعذيب للنفس وغلق لأبواب الإبداع والإبتكار . وأخشى ما أخشاه أن تسيطر هذه النّزعة ، وتقضي على أجيال وأجيال في سبيل الوصول إلى المحال . وهكذا عمّ التّعجيز والإحباط ، وشحّت الأقلام ، وانسدّت منافذ العبقريّة في كلّ ما يتعلّق بالعربيّة . وفرّ النّابهون

من جيلنا بجلدهم إلى الفرنسيّة . وعند هذه الجملة قاطع الشّيخ علي عبد اللطيف قائلا :

ــ ولمّا قرأ عليّ عادل هذه الصفحات أنكرت عليه هذه القسوة واتّهمته بالمبالغة ، وعلّلْتُ كلامي بتنبيهه إلى أنّ هذه النخبة هي التي تدافع من أجل الحفاظ على ذاتيتنا . فأجابني وهو مصرّ على فكرته :

ــ إنّك قصير النّظر . هؤلاء منغرسون في بيئتهم . عرفوا الكتّاب . وحفظوا القرآن ، وعاشوا في وسط كلّه حفاظ وأصالة ، أما الأجيال القادمة ، فلن تكون كذلك. زد على ذلك أن نخبتنا تعتقد أنّ هذا النّسق التّعليمي الذي فرضه الاستعمار في الصّادقيّة فيه التّقدّم ، واللّحاق بالأمم الحيّة ولكنّهم لم يفهموا أنّ هذه الذّبذبة ستدفع الأجيال القادمة إلى إنكار ذاتها ، إلى التعلّق بالآخر ، وانتظار الخير منه ، والتّواكل عليه ، وتصبح ليس لها من إيمان إلّا بضعفها ، وبأنّها لا تساوي شيئا . وتبقى دائما ملتفتة إلى الخارج تائقة إلى تثبيت مقوّماتها بالغير . كلّ شعب من الشّعوب العربيّة والإسلاميّة يعتبر نفسه قطب الرّحى . هو قلب العروبة النّابض ، وهو درع الإسلام . أمّا نحن فبالعكس لا نؤمن بأنّ هذه المقوّمات في ذاتنا لا تستقيم إلّا بتثبيت تونسيّتنا ، بالذّود عن كياننا ، عن مصالحنا ، عن خصوصيّتنا . الاستعمار دفع نخبتنا بنظام تعليمه إلى عدم التّعويل على النّفس . فمرّة نطرق باب الغرب وأخرى باب الشّرق . نحن الذّبذبة بعينها . نحن كما جاء في القولية الشعبيّة : «كقنديل باب منارة لا يضوي إلّا على البرّاني» وكيف تريد منّي أن أتغلّب على كلّ هذا . أنا لست نبيًّا حتّى أقلب هذا السّلم المتذبذب المنتصب في قرارة أنفسنا . ولكنّني كما ترى أقاومه وأضيع ، ولكنّ خوفي من الأجيال التي لن تقدر على مقاومته مثلما قدر هذا الجيل ، جيل الشّابي والطاهر الحدّاد والبشروش ، هؤلاء الذين آمنوا بمقوّماتهم الأصلية وآمنوا بشعبهم أيضا بما يدعّمه ويقوّيه . الأجيال القادمة لن تقدر حتّى على الضّياع

مثلي لأنها لن تكون واعية بما يهدّدها ، ستصبح لا شيء ، ستداس بل إنّها ستندثر ، ويأكلها الحافر ، باسم أيّ شيء يراد لها . ألا تعرف أنّ شعوبا كثيرة اندثرت لأنّها تحمل في نفسها عوامل الاندثار .

قلت له لقد أوجعت لي رأسي بتشاؤمك هذا ، وقسوتك على نفسك وعلى النّاس ، وحتّى على الأجيال القادمة . أنت لا تعرف الشّعب التّونسي وردود فعله ، وتمسّكه بمقوّماته ، وحفاظه على ذاته وهو سينتصر على كلّ هذه العوامل السّلبية التي تحمل أنت منها الشّيء الكثير. **ثم التفت إلى حفيده وقال : اقرأ البقيّة يا عبد اللّطيف. وقرأ :**

«مرّت الأيّام ، وعاشرت الأدباء ، والكتاب والشّعراء ، وأطلعت الخلصاء منهم على ما أكتب فلم يشجّعني واحد منهم على النّشر ، رغم إعجابهم بما قدّمت لهم ، ولست أدري لماذا ؟ لعلّه إفراطي في التّواضع . ناهيك أن بعضهم لا يتورّع في السّطو على أفكاري ونشرها **بعد أيّام تحت إمضائه ويقول عندما يراني، والله فكرتك صائبة ولم أعْدُ** أن نقلت ما قلته حرفيّا . ومع ذلك فلست أدري لماذا لم يدفعني كلّ هذا إلى إرسال ما أخبّر إلى جريدة أو مجلّة في تونس أو في مصر . حتّى طال بي الأمر على هذه الحال ، ونظرت في المرآة إلى وجهي في يوم من الأيام بعد أن أصابني اليأس من نفسي ، وحلّ بي الأسى بسبب نهاية نوابغ الأدب التّجديدي بفقدان آخرهم الطاهر الحدّاد العظيم **فوجدت آذاني طويلة، فقلت في نفسي : إنّني لا أعدو أن أكون حمارا في الأدب فلأجرّب السّياسة.**

وقبل أن أنظر إلى وجهي في المرآة ، كانت لي جولات في النّوادي ، قادني لها أصدقائي الذين عرفتهم في سينما بن كاملَهْ بنهج القصبة في الأول ثم البَاساج سنة 1922 بالمسرح الكاملي حيث كنت ألتقي بمجموعة فيها كرباكه ، والدّوعاجي ، ومصطفى خريّف والعروي وخَال

عَلِي . ولكن رغم قربي منهم ، وحرصي على معاشرتهم لم يجمع بيني وبينهم أمر له أهمّيته في العشرة وهو الاشتراك في الطبقة الإجتماعيّة : أنا من المحظوظين المتخومين ، وهم أغلبهم من العاطلين الذين يطمعون في نفاية سيقارة . وحاولت أن أندمج في صفّهم وأضفي عليهم شيئا من الرّخاء فازورّوا عنّي أنفة واستعلاء . فلا انضمامي معهم إلى عسكر اللّيل هؤلاء المتحمّسين لحبيبة مسيكة وفضيلة ختمي بعدها ، ولا حضوري معهم مجلس العربي الكبادي في حمّام الأنف بمقهى «عَلي القِزْ» ، وفي العاصمة ، بمقهى «الصّيد» بباب منارة ، ولا تردّدي على مقهى«تحت السّور» برفقة خَالْ عَلِي وعمران بن كاملة ، مكنّني كلّ ذلك من أن أصبح جليسهم ، ونديمهم بل ألمح دائما في بعضهم التّضايق منّي ، فتركت مجالستهم للصّدفة أو للفتة كريمة من بَابَا عزِيزْ . ولم أتعلّم منهم بهذه الصّورة ما يتيح لي إتقان صنعة الشّعر ولا التّعرف إلى خفايا الأدب ، فخرجت بخفيّ حنين .

وفيما بعد تردّدت على زين العابدين السّنوسي عندما أصدر مجلّة العالم الأدبي ، وأسّس دار العرب للطّبع والنّشر بنهج «سيدي عجُولَهْ» وشاركته في حماسه للأدباء المجدّدين ولكنّني كنت ألومه على القطيعة الموجودة بين السياسيين الذين بدؤوا يدخلون بقوّة الصّراع مع نظام الحماية ، وبين المثقّفين . وأنتقده في حياده ، ولكنّني كنت أؤيّده عندما يتحمّس للطاهر الحداد ولأبي القاسم الشابي ومحمّد البشروش وخاصّة هذا الأخير عندما خاض غمار قضيّة الموسيقى التّونسيّة والأدب التونسي ، ولكنّني والحقّ يقال ، كنت أميل إلى قضاء جلّ وقتي مع سارّة وأرتاد قاعة علي بن سلامة قرب المسرح الكاملي الذي سرعان ما تألّبت على صاحبه الإدارة الاستعماريّة فأفلس وصار مسرحه مستودعا للسيّارات . وكنت أحضر مسرحيّات شافية رشدي ، وحفلات فضيلة ختمي ، ولُويزة التونسية ، وفتحية خيري ، ورتيبة ، وهي تغني أمام فرقة كشكش بِك :

ثم جرّبت السياسة ، وكرهت أن أكون مع القعدة ، وحضرت اجتماعات عديدة بنادي الحزب الجديد ، واستمعت إلى الحبيب بورقيبة والمنجي سليم وعلي البلهوان وصالح بن يوسف وتيّقنت أنّهم الزّعماء بحقّ ، وأنّهم يمثّلون مستقبل هذه الأمة . ولكن ما ذنبي إن أنا لم يحتضني هؤلاء . أنا ابن الفريك مصطفى ، القريب من إدارة الحماية ، فكنت محلّ شكّ منهم . ورغم أنّي اشتركت في هذا الحزب ، ودخلت شعبة من شعبه فإني لم أتمكّن من أخذ مسؤوليّة ولو بسيطة في صفوفه. كنت محلّ تندّر بعض الشّباب المتردّد على النادي ، وكم ابتكروا أكثر من حيلة لإبعادي من الإجتماعات الهامة . فعمّني الأسى وقلت : هذا المجتمع قاس لم ينزع عنه روح الطبقيّة ، ومنا يزال يصنّف النّاس على حسب انتمائهم الطّبقي ثم أقول : لعلّي أنا هو الذي لم ينزع عنه عقليته الأرستقراطية . ثمّ نظرت إلى وجهي في المرآة وإلى طول أذنيّ، وقلت حتّى في السياسة لست سلوقيّا . وأقبلت على القمار ، وما إليه، وزدت حبّا لسارّة ، وبقيت على هامش المجتمع أحضر من حين لآخر النّدوات الأدبيّة والحفلات الفنيّة ، والإجتماعات السيّاسية مع سائر الخلق وآخرها مظاهرة 8 أفريل » .

وهنا توقّف عبد اللّطيف عن القراءة وأغلق الدّفتر وقال انتهت المذكّرات فتنحنح الشّيخ علي وقال .

ـــ نعم . عندما قرأ عادل هذه الصفحات استوقفته وألححت عليه أن يحدّثني عن سارة فقال :

ـــ أتعرف ، يا علي ... أنّ سارّة تحبّني وأنني عندما سمعت الطّياب يذكرها ، وعرفت أنها عين من عيون البوليس ، قرّرت أن أقطع معها ، مهما كان حزني على ذلك . والتقيت معها في الحديقة بعدما غادرت ليلى قصر باردو، ودار بيننا حديث خُتم ببكائها . قلت لها :

ـــ للأسف إن هذا هو آخر يوم ألتقي بك فيه لأنه منذ الآن ، يتعذّر عليّ الخروج من القصر .

ــ ولماذا . في إمكاني أن آخذ رخصة من الإدارة لزيارتك .
ــ هل أنت قادرة على ذلك .
ــ نعم ... أنا أعرف الكومسار بيار ...
ــ تعرفينه جيّدا ... هل يسألك عنّي .
ــ نعم يسألني ... ولا أقول له شيئا .
وكانت ذكيّة ، فهمت أنّني فطنت إلى دورها وقالت :

ــ اعلم أنني منذ زمان أصبحت رهن إشارة البوليس ، ولولا ذلك لدخلت السّجن مرّات ومرّات ، وآخرها إفلاتي من الحبس في اللّيلة التي أخذك البوليس بدار أحد البايات . ولكنّني ماذا أفعل ؟ وأحلف بالله أنّني لم أقل شيئا عنك ، وحبّي لك لا يعادله شيء .

وبكت بكاء حارا. والغريب أنّها متعلّقة بي وأنا أحبّها ولكن لم أضاجعها أبدا . حبّنا حبّ عذريّ ، ولقاؤنا كان دائما فيه تحليق في سماء الآداب العالميّة ... إنّها مثقّفة ثقافة عالية ، وهي يهودية الأصل ، وقد شجّعني على هذا النّوع من الحب أنّني عرفت أن الشّادلي الذي يتبعني في حبّي كظلّي هو الذي يضاجعها ، وقصّ عليّ قصّته معها وكيف كانت تزوّده دائما ، بقطعة شكلاطة مثيرة للباه على حدّ زعمه . هي جارة له كنت أراها في حَوْمَة خالي، تسكن مع والدتها ، يأتيها ليلا من فوق السّطح الملاصق ، فكرهت أن أكون آكل شكلاطة مثله وأعرضت عن أخذها عندما تقدّمها إلّي حتّى قلت لها في يوم الأيّام ، ولم أعرف الذي انتابني :
ــ اعطيها للشّادلي
وفهمت قصدي ، واتّفقنا ضمنيّا على أن يبقى حبّنا عذريّا ، يتوق الواحد منّا إلى الآخر ، ويقبّله ويضمّه إليه ، ولكن عندما ينتابنا ممّا ليس منه بدّ بعد الذي كان . أقول وتقول .
ــ وميثاق الشّكلاطة .

وقلت له عند ذلك .

ــ أصدقني يا عادل ... هذا كلام لا يجوز ... الشّادلي نفسه رآك فوق السّطح في ليلة من اللّيالي تتسلّل من سطح دار خالك ... وأنت تعرف أنّه لا يكتم سرّا .

ــ صحيح ... ذلك لم يقع إلّا مرّات تعدّ على الأصابع ، وأنا صرت اليوم عاجزا عن تسلّق السّطوح .

ــ وليلى كيف تزوّجتها ... إنك في كلّ مرة تراوغ ، وتفيض في الحديث عن «رقيّة» ؟

ــ نعم ... «رقيّة» هي التي دفعتني للزواج منها ... هي ابنة أختها ، لا أكبرها إلا بسنوات قليلة . كنت أعطف عليها ، ويشقّ عليّ أن تكون فتاة في مثل جمالها بكُوشَة ، وهي ابنة خالي . وعندما تمتّنت علاقتي «برقيّة» بدأت تحدّثني عنها ... عن ثقافتها ، واتّزانها ، وذكائها حتّى رضيت بذلك إرضاء أيضا لوالدي ووالدتي .

كانت حفلة العرس عظيمة ، اهتزّت لها العاصمة ، وظهرت ليلى كحوريّة من الجنّة ، جمالا ، وأناقة ، ورقّة ، ولمّا دخلت الغرفة ، وجدت ليلى جالسة ، فوق السرير ، وشعرت ، وكأنّ درجة الصّوت صفرا ، وتذكّرت أنّ توازن الجسم ، يعتمد على الأذن ، والأذن تعتمد على عكّاز اسمه الموجات الصّوتيّة وأحسست بأنّني فقدت توازني ، وكدت أسقط ، فنهضت ليلى ، وأرادت أن تنطق ، فوضعت إصبعي على فمها ، حتّى لا تتمتم . وبقيت سنوات طويلة لا تعدو مضاجعتي لها مجرّد استمناء ، يصحبها ذاك الصّوت الذي شاركت فيه «شيخه» بينما الإحساس لا يقوى إلا بالأمر الغريب الجديد ، وهذا لا يتأتّى إلا بالكلام ولا يدرك إلا بالذّوق في تجاوبه ليعظم الشّوق . وهذا ما لم يكن متاحا لي . وتقول لي إن ليلى مثقّفة . وهي التي جرّبت معي في أيّام زفافنا الأولى ما نهلته من علوم العجائز ، وما نصحتْها به السّاحرات

و«الدَّقازَاتُ» و«ضارِبَاتُ الخَفِيفِ» وقارئات الفنجان . تصوّر أنّني في الصّباح يعنّ لي أن أدعوها إلى ما تعرف ، وإذا بها تمدّ لي «القصريّهْ» وتشير عليّ بأن أبول ، وهي تظنّ كما نصحتها به العجائز أنّ ساعتي دقّت السّادسة والنّصف . فأفعل بعد لأي طبعا . ولكنّها لا يروعها إلّا وعفريتي يخرج من قمقمه ، وينتشر كأشدّ ما يكون الانتشار ، وأدعوها إلى حصّة صباحيّة كُتّابيّة ، فيها تهجية للباء ، وهي لا تحسن إلّا ذلك . فيكون نصيبها أن ترفع رجليها للفلقة ، لتهجيّ «الباء وحده من سفل» أمّا «الأليف» فصامت لا شيء عليه بالطّبع . وكرّرت ذلك ثلاث أو أربع مرّات ثم تداركت خطأها . هذه ليلى المثقّفة ، قاسيت منها الأمرّين . من استعلائها ، وعنادها ، وأنا أرفق بها ، لأنّها خرساء، وأحاول إفهامها بطرق عديدة ، حتّى تغيّرت كثيرا ، وأصبحت غير الذي كانت ، وفهمت أنّ علوم العجائز لا تنفع بل تضرّ ، وخاصّة في هذه الأيّام فلقد أقلعت عن أن تكون تملّكيّة، بل هي الآن في آن واحد الزّوجة ، والخليلة ، والشّريكة ، فنحن اثنان في واحد الآن ، وهي لا ينقصها إلّا الكلام ... يا ليتها تتكلّم ... يا أخي علي ...

وقاطع أحد أحفاد الشّيخ علي جدّه وقال :

ــ وكيف كان نضال عادل في النّقابات .

ــ وضحك الشّيخ ضحكة عالية وقال :

ــ عندما سمع عادل بنشاط محمّد علي الحامي في ميناء تونس بدأ يتردّد على تلك الأوساط ويحضر بعض الإجتماعات . وكان يأتينا في مجلسنا وثيابه عليها غبار أسود ويقول لنا : تلك ضريبة النّضال النّقابي . ولكنّه لم يكن مرتاحا إذ لم يجد من بين العمّال من يستمع إليه وهو في لباسه ذاك ، وفي جهله لقضايا العمّال. فخطر له في يوم من الأيام أن يلبس «المَحْصُورْ» : سِرْوال بالقَنْدَلِيسَهْ ، وبِدْعِيَّة وكشْطَة مَطْرُوزْ ، ويذهب إلى الاجتماع . ولكنّه عوضا عن أن يقتصر على ذلك إذا به يأخذ معه

قفصا فيه عصفور «كَنَالُو» ، ويرشق على أذنه مشموما من الياسمين ، ويتسلّح بِسِبْسِي ، ويدخل قاعة الإجتماع. وظنّ أنه سينسجم مع العملة بذلك اللباس ويكون أقرب إليهم. ولكنّ الإجتماع تحوّل في فترته الأولى إلى حصّة من التّندّر والفكاهة . فنصحه محمّد علي بأن يغادر القاعة . فجاءنا بذلك اللّباس وهو منفعل . ولكنّه انبسط فيما بعد انبساطا لم نعرفه له أبدا. وهكذا جرّب عادل النّضال في صلب النّقابات ولكنّها لفظته. فأصبح مرتاح الضّمير ، غير ملوم .

وواصل الشّيخ علي قائلا :

ــ ولمّا أتمّ عادل كلامه في ذلك اليوم دخلت في تلك اللّحظة ليلى ، وشرعت أنا في الخروج ، وإذ ب«الْحاج كرنْبه» يدخل بدون اسئذان لاهثا معولا صارخا :

ــ سِيدِي مصطفى توفّى .

وبقي عادل ساهما . ولكنّ ليلى سقطت مغشيا عليها . ولمّا مسحتُ على وجهها النّاعم بيدي المبلّلة بماء الزّهر أفاقت وبكت قائلة :

ــ سِيدِي مصطفى توفّى .

ولم ننتبه للمعجزة في تلك اللّحظة من جرّاء وقع صدمة وفاة الفريك. ثم تفطنّا للحدث الجديد . وتعانقت ليلى وعادل وهما يبكيان . ولست أدري هل من الفرح برجوع النّطق لليلى أم من الحزن على وفاة الفريك .

وتبيّن أنّ الفريك دخل في غيبوبة عميقة ظنّها أهل القصر موتا محقّقا ، ولكنّه تعافى بعد ساعات . وكان ذلك سببا في خروج عادل من سجنه الذهبي وفي شفاء ليلى .

وبعد سنوات قليلة توفّي الفريك وباع عادل التّركة ، واشترى «فِيلاَ» في «مُونْفُلورِي» وأصبحت ليلى معبودته إذ تفتّقت كلّ مواهبها ، وظهرت

بنطقها مكتملة الشّخصيّة ، حدوبة على عادل ، وفيّة له ، مغضية عن هناته ، فاتحة بيتها لأصدقائه ، وخاصّة لحبيبته سارّة ، معتقدة أنّ ميثاق الشّكلاطة أصلب من أن يذوب تحت تأثير شواظ العاطفة ، وأنّ القمار الذي تبدّدت من جرّائه ثروة عادل لم يؤثّر في رفاهيّة عيشهما ، وهي التي ادّخرت من الأموال ما يكفيها ويكفيه إلى آخر حياتهما .

وسكت الشّيخ علي ، ونهض أحفاده ، يقبّلونه واحدا واحدا ، معبّرين عن فرحهم به داعين له بطول العمر ، ولكنّ عبد اللطيف قال لهم :
ـــ إن في جراب جدّنا أكثر من قصّة ، وهو سيطول عمره حتّى يحكيها الواحدة بعد الأخرى فقال الشّيخ علي :

ـــ إن كانت في النّفس بقيّة . ولكنّني لا أنسى ما قاله لي عادل في هيئة هي أقرب إلى اللاّمبالاة منها إلى الأسف والحسرة : اسمع يا علي ... إنّ تمام خيبتي ، في النّهاية ، هي أن اكتفيت بأن رجعتُ إلى ليلى ورجعتْ إليّ . فلا أنا غنمت من المأساة ، المقدورة المُشقية ، القدرة على إخفاء متناقضات الحياة ودفنها في قرار مكين ، وسرت في المهيع الواسع . ولا أنا خضت ، طلبا للنّجاة ، ملحمة الحياة ، وجنحت إلى الحلول الجذريّة ، بطولةً وإقداما . ولا أنا غرفت من الطّاقة اللاّهية ما دفعني إلى الخلق والإبداع ، وأبعدني عن الهوّة المهلكة ... فأنا عابر ، عابر ، عابر ... أضرّ به وعيه بالعبور .

انتهى طبع هذا الكتاب
بالمطبعة العربية
بن عروس ـ تونس
سحب من هذا الكتاب 3.200 نسخة

ولد البشير بن سلامة في 14 أكتوبر 1931 بباردو. زاول تعلّمه بالمدرسة الصادقية، ثم بدار المعلّمين العليا. درّس اللّغة والآداب العربية. تولى رئاسة مجلّة الفكر إلى أن توقّفت سنة 1986. من مؤسسي اتحاد الكتاب التونسيّين (أمين مال ثم أمين عام من 1970 إلى 1981). ناضل في صفوف الحزب الاشتراكي الدستوري قبل الاستقلال وبعده إلى أن انتخب عدّة مرّات باللّجنة المركزية ثم عضوا بالديوان السياسي من 1980 إلى 1986. مارس عدّة مسؤوليات سياسية وإدارية (عضو بمجلس النواب من 1969 إلى 1986 — رئيس بلدية قصور الساف من 1977 إلى 1986 — وزير الشؤون الثقافية من 1981 إلى 1986.

متفرّغ الآن للكتابة.

هي رواية تحكي سيرة «عادل» الذي طلب الجنون فلم يجده، وحاول تجربة الموت فلم يفلح، واستطاب العلّة فلم يطاوعه جسده. فشعر بالعجز أمام الجنون، أمام الموت، أمام العلّة؛ ولم يجد نفسه شجاعا، ذا قدرة، ليثا هصورا نسرا محلّقا، إلّا أمام طاولة القمار... فلا هو غنم من المأساة المقدورة، المُشْقية، القدرة على إخضاع متناقضات الحياة ودفنها في قرار مكين، وسار في المهيع الواسع؛ ولا هو خاض، طلبا للنجاة، ملحمة الحياة، وجنح إلى الحلول الجذرية، بطولةً وإقداما؛ ولا هو غرف من الطاقة اللاهية ما دفعه إلى الخلق والابداع، وأبعده عن الهوة المهلكة، فهو، كما قال، عابر ... عابر ... عابر ... أضرّ به وعيُه بالعبور.

أفريل 1991

الثمن 3.500 د.ت